

عبد الوهاب مطاوع
نهر الدموع
الدار المصرية اللبنانية

نــهــر الدموع

مطاوع ، عبد الوهاب

نهر الدموع / عبد الوهاب مطاوع

. ـ ط1. ـ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2008

352 ص ؛ 21 سم .

تدمك : 9 ـ 341 ـ 427 ـ 977

1 ـ القصص الاجتماعية

أ ـ العنوان 813,03

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 1602 / 2008

الطبعة الأولى : للدار المصرية اللبنانية

رجب 1429 هـ ـ يوليو 2008 م

عبد الوهاب مطاوع

نهر الدموع

الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المحتويات

مقدمة

دمعتان سابحتان فى نهر ال الدموع .

قالت الأولى : أنا دمعة رجل اغتصب منه صديقه زوجته وتزوجها .

فقالت الدمعة الثانية : لاتحزنى يا أختاه فأنا دمعة هذا الصديق الذى بكى نادمًا بعد أن تزوجها !

إنها أمثولة قديمة يتعزّى بها كثيرون عن آلامهم وهمومهم ، وهى صادقة إلى حد كبير . . وسوف تتذكرها كثيرًا وأنت تقرأ قصص هذا الكتاب الواقعية الإنسانية ، التى تصور معاناة الإنسان مع أقداره وآلامه . . وقد اخترتها بعناية مما نشرته فى بريد الجمعة عبر السنين استجابة لرغبات قراء عديدين طلبوا منّى جمع هذه القصص فى كتاب ، ليستعينوا بخبرة أصحابها فى مواجهة اختبارات الحياة المتجددة فاستجبت لمطلبهم .

وأرجو أن أكون قد وُفِّقت فى الاختيار .

عبد الوهاب مطاوع

أنا شاب لم أكمل بعد الثامنة عشرة من عمرى ، نشأت فى بيت سعيد ، وأذكر منذ نشأتى أننى كنت طفلاً محبوباً من أبى وأمى ولى شقيق يصغرنى بعامين، كان رفيقى فى وحدتى بالشقة . . فأمى موظفة بشركة قطاع عام وأبى موظف بإحدى الهيئات ، وقد فرضت عليهما ظروف الحياة وطلب الرزق أن تعود أمى للعمل بعد انتهاء أجازة العام لرعاية المولود. . وأن يغلقا علينا باب الشقة بالمفتاح ، ويبعداً عن أيدينا كل ما يمكن أن نؤذى به أنفسنا ، ثم تعود أمى ملهوفة عند الظهر فتجدنى ألعب فى أمان مع أخى . . أما أبى فلقد كان الحنان كله لى ولشقيقى ولأمى ، فهو يعود بعد الظهر فيسألنى عما فعلنا خلال غيابه . . ويأكل معنا ويستريح قليلاً ثم يصطحبنى أنا وشقيقى إلى قطعة أرض خلاء قريبة من بيتنا ليلعب معنا الكرة . . أو يراقبنا ونحن نلعب مع الأطفال ساعتين أو ثلاثًا بلا ملل منه أو استعجال ، ويقول إنه يفعل ذلك لكى يعوضنا عن حبسنا فى الشقة طوال النهار . . أما فى المناسبات فلقد كان أبى يصحبنا جميعًا إلى السينما أو الأهرامات أو الحدائق ، ونركب معه سيارته القديمة جدًا ، التى عرفت من أمى أنه باع نصف الفدان الوحيد الذى يملكه ليشتريها وليستكمل أثاث بيتنا .

ولم يضربنا أبى مرة واحدة فى حياته . . فقد كان يكفيه أن ينظر إلينا غاضبًا أو فى عتاب حتى نعترف بخطئنا ونطلب

صفحه . . أما أمى فلقد كانت تضربنا برفق أحيانًا إذا أخطأنا . فإذا بكينا أسرعت بالبكاء أكثر منا وصالحتنا بعد قليل . .

وفى جو هذه الأسرة الصغيرة نشأتُ وأدركت رغم صغر سنى كم تحب أمى أبى وتعتز به . . وكم يحبها أبى ويقدرها ، لكنى أدركت أيضاً من ناحية أخرى أننا على عكس أصدقاء المدرسة ، ليس لنا أولاد أعمام أو خالات نزورهم ويزوروننا . . وسألت أمى عن سبب ذلك فعرفت أن أهل أبى أو من تبقى منهم يعيشون فى أقصى الجنوب على بعد مئات الكيلومترات ، ولم يبق منهم سوى أبيه العجوز وشقيقته المتزوجة هناك ، والتى يعيش الأب فى رعايتها من تجارة بسيطة . . أما أمى فإن أسرتها تعيش فى مدينة ساحلية هى دمياط وبقى لها منها شقيقة متزوجة هناك . .

ومضت الحياة وادعة جميلة والتحق شقيقى بنفس المدرسة التى دخلتها وتلازمنا ليلاً ونهاراً . . لكنى لاحظت بعد فترة أن أمى مرهقة دائماً ، وتعجز أحيانا عن تنظيف البيت وإعداد الطعام ، وفسر لى أبى ذلك بأنه قريبًا سوف يكون لنا شقيق ثالث أو شقيقة تشاركنا اللعب . . وبدأت أساعد أمى فى أعمال البيت ، لكن إرهاقها تزايد وأصبحت تقضى اليوم كله فى الفراش . وجاءت خالتى من بلدها لتزورها وكذلك عمتى . . وبدأت أرى أبى وهو يغسل لنا الملابس ويطهو الطعام ويخرج إلى الطبيب ويعود محملاً بالأدوية . ثم اقترب موعد الولادة ودخلت أمى المستشفى . . ولازمها أبى فيه ، ووجدت نفسى أنا وشقيقى وقد بلغت العاشرة وحيدين ، كما كنا قبل ذلك فى الشقة الخالية ، وطال غياب أمى

فى المستشفى ، وتوقفنا عن الذهاب إلى المدرسة يومين لم نغادر الشقة خلالهما . .

وقد وعيت نصائح أمى بألا نقترب من البوتاجاز وأكباس الكهرباء وألا نفتح الباب لأحد مهما كان . . لكن طرق الباب اشتد حتى تملكنا الهلع وبكى شقيقى الصغير من الخوف . . وسمعت صوت جارتنا التى تقيم أمامنا تناشدنا أن نفتح لها الباب ، فتجرأت وفتحته ودخلت منزعجة ، ثم دعتنا للذهاب معها إلى شقتها وجمعت ملابسنا وكتبنا المدرسية واصطحبتنا معها . . وأدخلتنا الحمام وخرجنا لنجد طعامًا ساخنًا ، فأكلنا بشهية بعد يومين لم نأكل خلالهما سوى الخبز والجبن . وفى الصباح اصطحبتنا مع طفلتها إلى المدرسة وعادت فى الظهر فتسلمتنا ، ثم فوجئت بأبى ومعه زوج جارتنا يدخلان علينا واجمين وكأنهما عائدان من سفر ، وعدنا إلى شقتنا مع أبى . . فسأله شقيقى عن ماما فأجابه أبى بأنها مازالت فى المستشفى . . وأحسست رغم صغر سنى إحساسًا غامضًا بأن هناك شيئًا ما يخفيه عنا أبى . . ولم تعد أمى الجميلة الطيبة من «المستشفى» بعد ذلك أبدًا . وخلت شقتنا الصغيرة منها ومن حنانها وصوتها الجميل ، وحين أدركنا الحقيقة القاسية بعد أسابيع . . لم أبك طويلاً رغم افتقادى لها لأنى لست كثير البكاء وأكتم مشاعرى . أما شقيقى فقد سالت دموعه كالنهر الجارف ، وهو سريع البكاء دائمًا . . ولأى سبب . . ومضت بنا الحياة . وتعلمت فى سن الثانية عشرة تنظيف البيت ومساعدة أبى فى غسل الملابس وطهو الطعام . وأصبح أبى يعود إلى البيت من عمله فلا يفارقه حتى اليوم التالى . . وإذا خرج إلى مشوار

ضرورى اصطحبنا معه ، وطالبنا دائما بأن ننجح فى دراستنا لكى نسعد أمنا فى العالم الآخر ، ولم نخيِّب ظنه . . فتقدمنا فى الدراسة عامًا بعد عام بغير دروس خصوصية إلا مساعدة أبى لنا . وفى الصيف كان يصحبنا لزيارة خالتنا وأولادها فى المدينة الساحلية ولزيارة عمتنا وجدِّنا فى أقصى الجنوب ، وفى إحدى هذه الزيارات سمعت - عرضًا - حوارًا بين أبى وجدى ، يسأله فيه جدى لماذا لا يتزوج مرة أخرى ليجىء لنا بمن ترعانا . وسمعت أبى يقول له بأنه قد رضى عن نصيبه من الحياة بعد أن سعد سنوات من عمره بصحبة أمنا ، ولن يُدخل على أولاده من لا يضمن حنوَّها عليهم ، وقد يفكر إذا طال به العمر فى الزواج بعد أن يشتد عود أولاده ويلتحق أصغرهم بالجامعة !

ورغم ذلك فلقد لاحظت عليه أنه قليل الضحك كثير الصمت ، ورأيته أكثر من مرة يبكى وهو يصلى ، فرجوته أن يروِّح عن نفسه ويخرج فى المساء ليلتقى بأصدقائه ويتسلى معهم . . فنظر إلىَّ طويلاً ثم قال لى : إنه ليس متضايقًا من بقائه فى البيت معنا ، وأنه يريد أن يتفرغ لنا هذه السنوات القليلة القادمة حتى أحصل على الثانوية العامة وألتحق بالجامعة . . ثم يدعنى لنفسى مطمئنا إلى قدرتى على مواصلة الطريق ويركز بعد ذلك على شقيقى إلى أن يحصل على الثانوية العامة أيضًا . . وحينذاك سيحس بأننا قد وضعنا أقدامنا على أول طريق ، وسوف يلتفت بعض الشىء إلى حياته بغير خوف علينا من الانحراف ، لأننا والحمد لله متدينان ونؤدى الفرائض فى وقتها .

وقد حافظنا على عهدنا لأبينا ، فواصلنا التقدم فى الدراسة ، واتسم سلوكنا دائمًا بالأدب والاحترام . وعلّمنا أبى حب الناس واحترام مشاعرهم ومجاملتهم فى مناسباتهم المختلفة ، وكثيراً ما اصطحبنا لأداء واجب العزاء معه لزملائه وأصدقائه وجيرانه . وكان يأمرنا إذا حدثت حالة وفاة فى العمارة التى نقيم فيها أو فى العمارات المجاورة أن نقف طوال النهار فى خدمة أهل المصاب ، ونحمل الكراسى ونلبى أى طلب يطلب منا حتى ينتهى العزاء ويعود آخر الليل معنا راضيًا عنا . وأقسم على أحد جيراننا توفيت زوجته - رحمها الله - أن يستضيف ابنه عدة أيام بعد الوفاة وأمرنا ألا نفارقه ونخفف عنه ، واحتضنه مودعًا إياه حين جاء أبوه ليستعيده والدموع فى عينيه .

وفى كل عام حين تأتى ذكرى رحيل أمنا ، كنا نقف جميعًا فى المطبخ لنطهو اللحم والأرز ونحشو بهما الأرغفة ونوزعها على الفقراء فى حيِّنا . ونقرأ الفاتحة على روحها الطاهرة . أما فى المناسبات السعيدة للجيران فلقد كنا نحمل إليهم زجاجات الشربات وصناديق المياه الغازية ونوزعها على المدعوين ، ونرحب بأداء أى خدمة ونكنس الشقة بعد انتهاء المناسبة مع أصحابها وهم يشكروننا ويثنون على شهامتنا ، وأبى فخور بنا ويحثنا على بذل المزيد من الجهد لأن الناس «لبعضها» ولابد أن يكون المرء فى عون أخيه . ووصلت إلى الثانوية العامة وضاعفت من ساعات مذاكرتى وأحاطنى أبى بحبه واهتمامه وأعفانى من أعمال البيت ، وكلف بها شقيقى الذى سأرد له الجميل فى ثانويته العامة بإذن الله .

ومضى شهران من بداية العام الدراسى ثم صحوت يوم جمعة متأخراً فلم أجد أبى فى الصالة كعادته ودخلت عليه غرفة النوم ، فإذا بى أجده جالسًا على مقعده المفضل بجوار السرير يمسك بالصحيفة فى يده وقد مال رأسه إلى الوراء . . وفارقت روحه هذه الدُّنيا الفانية . ولا تسألنى يا سيدى عن حالى وحال شقيقى الأصغر حين عرفنا فجأة أن أبانا وسندنا الوحيد فى الحياة قد رحل هو الآخر عنا . فلقد جرى ما جرى بعد ذلك وكأنه يحدث لشخص آخر غيرى أتفرج عليه وأكاد لا أشارك فيه إلا بالبكاء المكتوم . . ولا يزعجنى فيه إلا عويل شقيقى الصغير الذى انهار وولول كثيراً وله عذره ، لأنه رأى آخر حصن لنا ينهار أمام أعيننا بهذه البساطة .

وأمضينا اليوم محاطين بالجيران والأصدقاء . . حتى أكاد لا أذكر فى بيت من منهم تناولنا الغداء . . وفى بيت من منهم أمضينا ليلتنا ، فلقد أقسم الجميع على دعوتنا لبيوتهم ، وجاءت عمتى وجدى وخالتى وبعد فترة عادت خالتى وعمتى إلى بلديهما ، وبقى معنا جدى لبعض الوقت وجلس يبحث معنا مستقبلنا فطمأنته إلى أننا نستطيع الاعتماد على أنفسنا وأن جيراننا يقومون بإجراءات المعاش ، وأننا سنتكيف مع حياتنا فجلس مهمومًا وهو يرى نفسه عاجزاً عن الحياة معنا لأن تجارته الصغيرة فى أقصى الجنوب ، وعاجزاً عن ضمِّنا إليه لأن مدارسنا هنا . لكنى هوَّنت عليه بالأمر وطمأنته ، فأصر على أن يترك لنا بعض النقود ، وجاء موعد سفره وخرجت معه لأوصله إلى محطة السكة الحديد ، ففوجئت به يتوقف أمام باب شقة جيراننا المقابلين الذين لم

يتركونا لحظة منذ الوفاة وطرق بابهم فخرج إليه جارنا وجارتنا الفاضلة ودعياه للدخول فاعتذر ، وقال إنه فقط يريد أن يشكرهما على «تحنان» قلبيهما على هذين «الولدين اليتيمين» ويدعو لهما بالصحة وحسن الجزاء، ثم يطالبهما بأن يكملا جميلهما بالسؤال عنا كل فترة.

وبكى وهو يقول ذلك فسالت دموع جارتنا وتوارت خلف الباب ، وأكد له جارنا أننا أمانة فى عنقه أمام الله وطمأنه كثيراً، فانصرف داعيًا له ومضى يصافح كل من يلتقى به على السلم ويوصيه بنا خيراً ، ثم سافر مصحوبًا بالسلامة إلى بلده .

وامتثلنا لما جرت به إرادة الله وواجهنا حياتنا الجديدة . . وأصبحت أعيش مع شقيقى وحدنا فى الشقة ، نذهب إلى المدرسة معًا ونعود معًا ولا نغادر البيت بعد ذلك إلا نادراً ، ولم يتركنا الله وحدنا ففى كل حين يدق علينا الباب جار من جيراننا أو صديق يسأل عنا ، وجارتنا الفاضلة تصر على أن تغسل ملابسنا مع ملابس أبنائها رغم أننا كنا نغسلها بأنفسنا طوال عمرنا ، وفى كل يوم جمعة لابد أن يدعونا والد أحد أصدقائنا بالمدرسة أو الجيران للغداء عنده وقضاء بعض الوقت . ونحن نعيش على معاش كما كنا نعيش فى حياة أبى ، وقد بيعت السيارة القديمة ووضع ثمنها فى شهادات باسمنا ، وجارنا المقابل صديق أبى يقوم عنا بكل الإجراءات ، ويراقب تصرفنا فى النقود ويثق فىّ ويعتبرنى مسئولاً عن أخى ، ولا أحد يتأخر عن مساعدتنا فى أى خدمة نحتاج إليها . وقد فوَّضت أمرى إلى الله وبدأت أحاول التعود على الحياة بلا أب ولا أم

ولا أم . . وأهز رأسى بشدة حين تطوف بى ذكرى أبى الطيب وأنا أذاكر كأنى أطرد الذكريات الجميلة حتى لا تشوِّش على تركيزى فى المذاكرة .

لكن شقيقى لا يساعدنى على ذلك يا سيدى لأنه كثير البكاء كل يوم ودائم المخاوف والهواجس . وقد انصرف عن المذاكرة عدة أسابيع بعد الوفاة ، فساءت نتيجة امتحانه الشهرى ، وتوسلت إليه ألا يخيب رجاء أبيه فيه فعاد للمذاكرة من جديد - وكلما طمأنته وشجعته . . لا يستجيب لى ويحدثنى عن خوفه من المستقبل ويقول لى كل يوم إن الحياة قاسية . . وسوف نضيع فيها وحدنا وسوف نواجه أياما صعبة فى المستقبل ، ثم يسألنى أسئلة لا أستطيع أن أجيبه عنها . . فيقول لى فجأة وهو يبكى : ماذا نفعل حين يموت جدنا . . أو ماذا فعلنا من ذنب حتى «نتلطم» فى الحياة وحدنا بلا أب ولا أم ولا خال قريب منا ولا عم . . ولا أمل ولا مستقبل ، حتى بدأ هو يخيفنى بدلا من أن أطمئنه أنا .

لقد كان أبى يقرأ لك دائمًا وكثيرًا ما أشركنا معه فى قراءة ما تنشره من هموم الناس ويقارنها بحالنا ، ويقول لنا إن حالنا أفضل من غيرنا ، وقد طلب منى ذات يوم أن أقرأ قصة الشاب الذى فقد أباه المحامى وأمه وأخته الصغيرة - وكانوا كل أسرته- فى حادث سيارة، وهم فى طريقهم لزيارته يوم عيد ميلاده فى الإسكندرية حيث يدرس بالجامعة ، وقال لى بعد أن قرأتها إن هذا الشاب سوف يواجه الحياة وحيدا وسوف ينجح ويحقق أمل أسرته فيه . ولهذا أريدك أن تكتب لأخى وتصبره وتشجعه وتطمئنه إلى أن الحياة ليست قاسية كما يعتقد ،

وأننا يمكن بوجودنا معا أن يحمى كل منا الآخر ونشق طريقنا بنجاح فى الحياة . . إن شقيقى طيب وحنون ويشفق على الناس والحيوانات ، ويطعم القطط الشاردة ويضع لها الماء . . وأقول له إن هذا من الإيمان وسوف يجزيك الله عنه خيراً . . لكنه بدلاً من أن يتجاوب معى فى ذلك يصدمنى ويقول لى نحن كهذه القطط لا أهل لها وسوف نتشرد فى الحياة مثلها !

إننى أرجوك أن تكتب له وتقوى إيمانه وعزمه لكى أستطيع أن أتفرغ للمذاكرة بتركيز خلال الفترة القصيرة الباقية على امتحان الثانوية العامة ، وأن تؤكد له أننا لن نضيع فى الدنيا لأننا لم نفعل شيئاً سيئًا فى حياتنا . . وإنما نصلى ولا نؤذى أحدًا ، وقد جاءت ذكرى رحيل أمنا منذ أسابيع فطهونا معا اللحم والأرز ووزعنا الطعام كما نفعل كل سنة رغم تغير الظروف وسوف نفعل ذلك أيضًا فى ذكرى أبى حتى ولو حرمنا أنفسنا من الطعام عدة أيام . . فلماذا سنضيع فى الحياة كما يعتقد ، وهل الحياة قاسية إلى هذا الحد فعلاً يا سيدى كما يقول شقيقى ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

الحياة قاسية فعلاً ولكن على من نكب بسوء الخلق الذى ينفر منه الآخرون ويسد دونه أبواب قلوبهم . . ويشل أيديهم عن إنهاضه إذا تعثر .

كما أنها قاسية أيضًا على من يعجز عن التواصل معها ومع الآخرين ومن يستسلم إلى فشل الروح والتشاؤم والوساوس والهواجس ، ويفتقر إلى الإرادة والحماس والقدرة على الكفاح وتحقيق الأهداف . وأنتما والحمد لله قد ورثتما عن أبيكما الراحل -رحمه الله - خير ما يرثه ابن عن أبيه وهو حسن الخلق ، فكأنكما بذلك قد ورثتما عنه الدين كله لأن «الدين حسن الخلق» كما جاء فى الحديث الشريف ، كما ورثتما عنه أيضًا حب الناس واحترام مشاعرهم وخدمتهم والقدرة على التواصل معهم ، فتفتحت لكما قلوبهم ، فإذا أضيف إلى كل ذلك استقامتكما وجديتكما فى الحياة وحرصكما على أداء الواجب بروح المسئولية والنضج المبكر . . فكيف يفشل مثلكما إذن فى الحياة ؟ أو كيف ينهزمان أمام أية صعوبات جديدة . . بل أى صعوبات يمكن أن تواجهاها

فى المستقبل أقسى من اختبارات الحياة المؤلمة التى صمدتما لها بشجاعة وإيمان خليق بالكبار حتى الآن . لا يا صديقى العزيز ، لن يكون الغد أسوأ من اليوم أو الأمس بالنسبة لكما بأى حال من الأحوال بإذن الله ، فلقد أديتما ضريبة الألم مضاعفة خلال عمركما الصغير . . ولابد أن يأتى دوركما ذات يوم قريب لكى تفتح أمامكما أبواب السعادة والأمان والنجاح فى الحياة . إذ لمن يكون النجاح والسعادة إذاً إن لم يكونا لأمثالكما من الأبناء الطيبين المكافحين الصابرين الملتزمين فى حياتهم بالنهج القويم وتفيض نفوسهم فوق كل ذلك بكل هذه القيم الخيرة ؟

لقد أكسبت الظروف الأليمة التى واجهتماها ، شقيقك الصغير نظرة تشاؤمية تجاه المستقبل ، وإنى لألتمس له بعض العذر فيها بالنظر إلى ظروفه وتكوينه النفسى فى ظروف الحرمان المبكر من الأم الذى يسلب الصغير قدراً كبيراً من إحساسه بالأمان ، لكننى فقط أدعوه لأن يثق فى أن الله لن يضيعكما أبدًا بإذنه تعالى ، ويثق فى نفسه وقدراته ويعرف أن الإنسان لا يمكن تحطيمه أبدًا إذا امتلكس شعلة الإرادة والقدرة على الكفاح لتحقيق الأهداف الشريفة والتزام الطريق القويم فى حياته .

إذا ليس عدلاً مع النفس لمن عانى مثلما عانى شقيقك أن يفسد يومه لحساب غد بظهر الغيب ، ولا يستطيع أن يجزم بما إذا كان يحمل له خيراً أو شراً . فإذا كان الأمر كذلك «فليتمسك بيومه» كما يقول المثل الرومانى ، ويعرف أن خير وسيلة للاستعداد للمستقبل هى أن نركز أنظارنا وجهدنا على عمل اليوم لأنه مفتاح الغد . وعمل اليوم بالنسبة

إليه هو أن يكون جديراً باسم أبيه ويحقق النجاح والتفوق فى دراسته ، فيحقق خطوة لها اعتبارها على طريق المستقبل ، وليسترجع كلما راودته المخاوف قصة ذلك اليتيم العظيم الذى غيَّر مجرى التاريخ ، ووجده ربه يتيما فآوى ووجده عائلاً فأغنى ووجده ضالاً فهدى ، وهدى به الأمم ، وليراجع كتب التاريخ بعد نجاحه فى امتحان هذا العام بإذن الله ؛ ليعرف كم من العظماء وصناع التاريخ والأدباء والفنانين الخالدين ورجال المال والصناعة والاقتصاد الكبار قد بدأوا حياتهم كما بدأها هو ، وربما فى ظروف أشد قسوة وصلت ببعضهم إلى ملاجئ الأيتام فى بعض مراحل عمرهم ومع ذلك فلقد صمدوا لأعاصير الحياة . . وحققوا نجاحهم وغرَّدت طيور السعادة فى أعشاشهم أو قصورهم .

إن شقيقك يا صديقى رقيق العاطفة سريع التأثر وسوف يحتاج دائمًا إلى دعمك النفسى له ، فلا تملَّ من طمأنته دائمًا وتشجيعه واحتمال هواجسه وميله الغريزى لتوقع المخاطر - فهو فتى طيب القلب حمَّلته الحياة ، وهو فى هذه السن الصغيرة ، ما قد ينوء بحمله بعض الكبار فاصبر عليه ولا تملَّ من تشجيعه وتذكيره دائماً بأن فى السماء ربًا لا يغفل عن عباده ، وأن أمر المؤمن كله خير إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له كما جاء فى مضمون الحديث الشريف ، ولا تكف عن تذكيره أيضًا بأن موعدكما السعادة فى المستقبل القريب بإذن رب العالمين وليس الشقاء أبدًا ، لأنكما قد استوفيتما كل نصيبكما منه ، وإذا احتجت إلى مساعدة نفسية متخصصة لبث الطمأنينة

فى نفس شقيقك الصغير ، فإنه يسعدنى أن أرتب ذلك لك بلا أية أعباء مادية بعد انتهائه من امتحانه ، كما يسعدنى أن ألتقى بكما وأسعد بالتعرف عليكما فى أى وقت تراه مناسبًا لذلك إن شاء الله .
وأرجو أن أكون أول المهنئين لشقيقك بالنجاح فى عامه الدراسى الحالى ولك بالنجاح والتفوق فى الثانوية العامة بإذن الله . . ولا تتردد فى الاتصال بى إذا رغبت فى أى خدمة من أى نوع لك ولشقيقك . .
وشكراً لك مقدماً إذا فعلت والسلام .

أنا شاب فى التاسعة والعشرين من عمرى ، شاء قدرى أن أكون آخر أبناء أبى بعد ابنين وابنة ، كما شاء قدرى أيضًا أن تمرض أمى بعد ولادتى بفترة قصيرة فتتولى أختى الكبرى معظم شئونى حتى أصبحت لى أمًا ثانية وهى فتاة فى سن المراهقة ، وعندما تماثلت أمى للشفاء نسبيًا بعد مرض طويل ، كان هاجسها الدائم أنها تحس بأن العمر لن يطول بها لرعايتى كما رعت إخوتى ، وأنى سوف أعانى مرارة اليُتم صغيراً فأغدقت علىَّ من عطفها وحنانها ما حاولت به تعويضى عما ينتظرنى من شقاء ، ولم يكن أبى مقتنعاً بمبررات أمى فى ذلك ، لكنه آثر عدم معارضتها وجرح مشاعرها ؛ وحاول تعويض ذلك من ناحيته بأن يبالغ فى تشدده معى حتى لايفسدنى التدليل كما عرفت فيما بعد . وكان أبى ومازال شخصية ناجحة فى مجال عمله المهنى الذى لا أريد الإشارة إليه حتى لا يعرفه أحد ، وكنا نعيش فى شقة أنيقة فى حى راق ولأبى سيارته التى يصطحبنا فيها إلى النادى يوم الجمعة وإلى المصايف الجميلة ، ورغم تحفظه معى فلقد كنت أرى فيه دائمًا مثلى الأعلى ، وأحلم بأن أصبح ذات يوم ناجحًا مثله . وكان هو يشجع فى أبنائه هذا الاتجاه ويريد منهم جميعًا أن يدرسوا نفس دراسته ليستعين بهم فى عمله بعد تخرجهم . . ويفتح أمامهم أبواب النجاح لكن أختى الكبرى خيَّبت بعض أمله ، وعجزت عن الالتحاق بنفس الكلية التى تخرج فيها ، والتحقت بكلية علمية أخرى وتزوَّجت

فى سن الثالثة والعشرين من مدرس مساعد بنفس الكلية وسافرت معه لأوروبا لترافقه فى بعثته للحصول على الدكتوراه. وحقق شقيقى الذى يليها رغبة أبيه وسلك نفس طريقه فى الحياة، فى حين اختار شقيقى الذى يليه مباشرة طريقًا آخر، وفى الثانية عشرة من عمرى توفيت أمى إلى رحمة ربها، وتركتنى وحيدًا بعد سفر أختى الكبرى للخارج.. فعرفت مرارة اليُتم الحقيقية. ومرضت مرضًا طويلاً، وبدأت خطواتى فى الدراسة تتعثر وخشى أبى أن أفشل فى الدراسة، فمارس علىَّ ضغوطًا شديدة لكى أتفوق فى دراستى كباقى إخوتى.. وبذلت كل جهدى لكى أُرضيه وأتجنب غضبه.. لكن جهودى كلها لم تكن تسفر إلا عن نجاحى بصعوبة فى نهاية السنة بالرغم من الدروس الخصوصية وساعات المذاكرة الطويلة. وبدأ أبى يضربنى وأنا فى سن الرابعة عشرة بقسوة شديدة، مع أنه لم يمد يده على أحد من إخوتى طوال عمرهم، وراح يراقبنى ويتهم شقيقىَّ بأنهما يتستران على عدم مذاكرتى، مع أنهما كان يُقسمان له بأنى لا أخرج من البيت وأننى أمضى الساعات الطويلة فى المذاكرة، وتطور الأمر إلى خصام شبه مستمر من جانبه لى إلى جانب تهكمه اللاذع علىَّ وتنديده بأنى - فيما يبدو - سأكون فاسوخة الأسرة، أى «خائب» العائلة الذى لا يشرفه أن يعرف الناس أنه ابنه، فكنت أتألم كثيرًا لذلك وأضاعف من ساعات مذاكرتى، فلا تجىء النتيجة فى النهاية إلا بنجاح بالعافية أو على حافة السقوط، وبدلاً من أن يقدر لى جهدى ويعرف أننى لست فى ذكاء إخوتى وأن هذه هى إرادة الله ولا دخل لى فيها كان ينهال علىَّ ضربًا ولومًا وسخريةً، وعندما

بلغت السنة الثانية في المرحلة الثانوية تزوج أبي من أرملة من أقاربنا لها أبناء ، وأقام معها في شقة فاخرة قريبة من شقتنا فكانت هذه السيدة الطيبة أكثر رفقًا بي منه ، وتنصحه بأن يخفف من ضغطه عليّ حتى لا أفشل نهائياً ، وكنت أزوره في مسكنه الجديد فتستقبلني بابتسامة ، وتتمسك بأن أجلس وأشرب معها الشاي ويستقبلني هو بوجه عابس ويسألني عما جاء بي - فأقول له : أردت فقط أن أراك فيأمرني بالعودة إلى البيت والمذاكرة ، فأخرج وأنا أقرر أني لن أعود لزيارة أبي مرة أخرى . . فلا يمضي أسبوع أو أسبوعان حتى أكرر الزيارة ويتكرر نفس الاستقبال ، أما شقيقاي فلقد كانا دائمًا موضع ترحيب أبي وفخره في أي مكان ، ثم جاءت سنة الثانوية العامة فعانيت فيها الأمرّين ، وجاءت النتيجة برسوبي فيها فكاد أبي يقتلني ، وكانت مناحة انفطرت فيها من البكاء وأنا أقسم لأبي أني فعلت كل ما أستطيع . . وواصلت الليل بالنهار وشقيقاي يشهدان لي بذلك ويدافعان عني وهو لا يقتنع ويتهمهما بمحاباتي وإفسادي كما أفسدتني أمي من قبل . وكانت أيامًا سوداء وازدادت سوادًا بعد أن فشلت في الحصول على الثانوية العامة ثلاث مرات متتالية ، وفقدت آخر فرصة لي في الحصول عليها فقاطعني أبي نهائيًا وحرمني من المصروف ومن الملابس ومن كل شيء ، وعشت علىَ مساعدة شقيقيّ اللذين كانا يُعطياني بعض النقود سراً ، وعلمت أختي بحالي وهي في غربتها فكانت ترسل لي بعض الملابس وتوصيني بكتمان السر حتى لا تفقد رضا أبي .

ولا أريد أن أطيل عليك فلقد وجدت نفسي وأنا في الحادية والعشرين طالبًا فاشلاً محرومًا من عطف أبيه . . واقتنعت بأنه لا أمل لي في تعليم أو وظيفة كإخواتي ، فقررت مواجهة الواقع مهما كانت مرارته وأديت الخدمة العسكرية لمدة ثلاث سنوات ، ورفض أبي أن يتوسط لي لدى معارفه الكثيرين لنقلي إلى موقع مريح أو قريب من القاهرة بحجة أنه لا يشرفه أن يعرف أحد أن له ابنا يؤدي الخدمة دون مؤهلات .

وأمضيت سنوات الخدمة في أكثر المواقع مشقة ، وعدت منها فوجدت شقيقي الذي اختار طريق أبي يستعد للسفر لأمريكا للحصول على الدكتوراه . . وحزنت لفراقه بعد فراق شقيقتي ، وسافر بعد قليل فلم يعد لي في الحياة سوى شقيقي الذي يكبرني مباشرة وهو إنسان طيب ، لكن علاقتي به كانت أقل حرارة من علاقتي بأختي وأخي اللذين سافرا للخارج ، ولم يكن ذلك من جانبي بالطبع ، فأنا دائمًا متلهف لإخوتي ولأبي ولكل الناس ، ولكن كان ذلك من جانبه لأنه كان عملياً في حياته وأقل عاطفية من أخي وأختي . . وبدأت أفكر فيما أفعل خاصة بعد أن قطع أبي عني أي مصروف وأمرني بعدم زيارته في بيته أو عمله ، كما حرمني من عضوية النادي الذي ينتمي إليه ، ورفض استخراج بطاقة الابن لي حتى لا أذهب إليه لأني أصبحت «عار الأسرة» المرموقة التي ينبغي أن تخفيه عن مجتمعها ، ولم يكن لي أصدقاء من الأصل في النادي لأني كنت دائماً شاعراً بنقص بالنسبة للآخرين . . فلم أشأ إحراج أحد ، وقررت الخروج للعمل لكن ماذا يعمل شاب

بلا شهادة مثلى ، لقد عرضت نفسى على صاحب محل لبيع الأحذية الرجالى ، وقبلنى بعد أن توسم فىَّ أنى كما قال «ابن ناس» ، وجربنى لعدة أيام فرآنى أعامل الزبائن باحترام وبصبر وأتحمل كل شىء فثبَّتنى فى العمل وأعطانى أجرًا طيباً وذهل حين علم بأنى ابن فلان المعروف ، ويبدو أنه أراد أن يتأكد من ذلك فسأل، وكانت هذه غلطة عمرى لأنى فوجئت بأبى يدخل البيت بعد عودتى من المحل مجهدًا ثم ينهال علىَّ سباباً ولعناً ، ويأمرنى بترك هذا العمل ، فطلب منه شقيقى مادام لا يوافق على عملى به . . أن يعيننى هو بعمل مشروع تجارى صغير لى فرفض ، لأنى خائب ولن أفلح فى شىء ، وطلب بدلاً من ذلك أن أذهب للعمل فى مكتبه فى وظيفة «كاتب أو سكرتير أو ساع» بمعنى أصح بمرتب مائة جنيه فى الشهر ، ورغم أنى لم أحلم لنفسى بأفضل من ذلك إلا أنى خشيت أن يؤدى اتصالى المستمر بأبى إلى زيادة معاناتى معه . . فاعتذرت فهاج وصفعنى بقسوة وبكيت صامتًا، فى حين احتج عليه شقيقى الذى كنت أظنه ليس عاطفياً ، وذكَّره بأنى لم أعد صغيراً كما أنى إنسان مؤدب ومسالم وأؤدى فرائض دينى وليست لى أى انحرافات سوى أن حظى فى الحياة والتعليم قليل ، ولم يقتنع أبى وخيَّرنى بين قبول ما عرضه علىّ وبين مغادرة البيت نهائيًا، وللمرة الأولى فى حياتى يا سيدى أرفع عينى فى عينى أبى وأقول له إنى أسلم أمرى إلى الله الذى لا يتخلى عن عباده ، وسوف أترك البيت وأشق طريقى فى الحياة دون مساعدة من أحد ، وخرج أبى وهو يهدد أخى بالويل والثبور إذا سمح لى بالعودة للبيت دون إذنه .

وعدت للعمل فى نفس المحل التجارى . . وحملت ملابسى إلى فندق شعبى رخيص رغم احتجاج شقيقى الذى حاول بكل قوته أن يمنعنى من مغادرة البيت وجذب منى حقيبة ملابسى بعنف أكثر من مرة ، ولم يتوقف إلا حين انحنيت على قدمه محاولاً تقبيلها ليتركنى لحالى ، فإذا به ينهار باكيًا للمرة الأولى فى حياته ويرفعنى من الأرض . . ويخرج معى إلى الفندق ويدفع لى حساب أسبوع مقدمًا ، رغمًا عنى وهو يؤكد على أنه سيتركنى هذا الأسبوع فقط لكى أهدأ ثم أعود للبيت . . وعدت للعمل فى المحل . . وبعد أيام قليلة فوجئت بصاحبه يعتذر بلطف عن اضطراره للاستغناء عنى ويطلب منى البحث عن عمل آخر . . وسألته عن السبب وهل بدر منى شىء . . أو لاحظ علىّ خيانة للأمانة . فأقسم لى أنه لا يعيب علىّ شيئًا . . لكنه مضطر لما فعل استجابة لضغط واقع عليه من شخص له نفوذه ثم أعطانى مكافأة طيبة وشهادة حسن سير وسلوك وصفنى فيها مشكوراً بأنى أمين ومهذب ويفخر بى أى محل أعمل فيه .

وفهمت أن أبى وراء هذا الضغط ورحت أطوف على المحلات باحثًا عن عمل ، وبفضل هذه الشهادة حصلت على عمل آخر بعد أيام . . واستقررت فيه بضعة شهور ، ثم فوجئت بصاحبه يستغنى عنى أيضاً بنفس الطريقة ويعطينى شهادة حسن سير وسلوك ، وخلال ذلك لم ينقطع عنى شقيقى وكان يأتى لى فى الفندق ويسأل صاحبه عن حسابى ، فإذا وجدنى متخلفًا عن السداد بضعة أيام دفعها لى وعزمنى على الغداء يوم أجازتى الأسبوعية ، وقد اقترب كل منا من الآخر كثيرًا وتضاعف

حبه فى قلبى بعد أن فهمته حق فهمه ، وقال لى هو إنه « يكتشفنى » للمرة الأولى خلال هذه المحنة ، ويكتشف فىّ أشياء جميلة لم يكن يعرفها عنى من قبل ، منها أننى لا أكره أحدًا حتى ولو أذانى . . وأن قلبى أبيض كالبفتة البيضاء . وأحب أبى رغم كل شىء ، ولا أحمل له أى ضغينة كما أحب إخوتى حبًا لا مثيل له وأحب الناس ويحبنى كل من يتعامل معى ويشهد لى بحسن الطباع والأخلاق . . ثم يدعونى للعودة للبيت فأعتذر حتى لا أحرجه ، ولم تنقطع عنى أخبار شقيقتى التى رقصت فرحًا وسعادة حين علمت أنها حصلت على الماجستير والدكتوراه فى الدولة الأوروبية التى تُقيم فيها مع زوجها ، كما سعدت بحصوله قبل ذلك على الدكتوراه وعمله أستاذًا بنفس الجامعة الأوروبية .

ورقصت فرحًا حين علمت بحصول أخى الآخر على الدكتوراه فى أمريكا وعمله أيضًا كأستاذ بالجامعة الأمريكية التى درس بها . . وسقطت دموعى كالمطر حين نجح شقيقى الحبيب بامتياز فى كليته وتم تعيينه فى وظيفة مرموقة لها احترامها وهيبتها ، كان يحلم بها منذ صغره ، وبعد عامين من العمل فى المحل التجارى الأخير الذى استقررت فيه نبض قلبى بحب فتاة طيبة تعمل معى بنفس المحل ، ووجدت فيها حنان أختى البعيدة وقلبها الكبير ، وأشفقت فتاتى علىَّ من الإقامة فى الفنادق فتوسطت لى لدى صاحبة البيت الذى تقيم فيه فى حى شعبى للحصول على شقة كانت مغلقة فى نفس البيت مقابل خلو رجل معقول ، وكان معى نصف المبلغ المطلوب تقريبًا ففكرت للمرة الأولى فى أن ألجأ إلى أبى ليقرضنى باقى المبلغ ، وتشاورت مع أخى فتوجه هو إليه طالبًا

المبلغ منه . . ورفض أبى فى البداية فثار عليه أخى مؤكداً له أن هذا هو أبسط حقوقى خاصة أنه سيتزوج قريبا ويقيم فى شقة الأسرة مؤقتًا ، وعاد إلىّ بالمبلغ وتوجه معى لصاحبة البيت وكتب لى العقد . . وفاجأنى بأنه استطاع أن يحصل لى من أبى أيضًا على مبلغ إضافى صغير لأشترى به الأثاث ورافقنى فى عملية الشراء . . ولم يتركنى إلا بعد أن تم فرش الشقة بمفروشات بسيطة وجميلة ، وشكرته ودعوت له الله كثيراً بأن يسعده فى حياته ويؤجره عنى خيراً فى الدُّنيا والآخرة ، وبعد استقرارى فى هذه الشقة بدأت أفكر فى الارتباط بفتاتى واستشرت أخى فقال لى إنها فتاة طيبة لكنه كان يتمنى لى أسرة كبيرة كأسرتى ، فقلت له وأين هى الأسرة الكبيرة التى تقبل بشاب مطرود من رحمة أبيه وبلا مؤهل مثلى؟ وحتى لو وجدتها فإن فتاتى أفضل عندى من كل فتيات الدُّنيا فحبها صادق وعطفها علىّ هو ما أحتاجه فى حياتى ، كما أن أسرتها طيبة متدينة وإخوتها كلهم متعلمون وهى أرقى منى تعليميًا لأنها حاصلة على دبلوم تجارى ، ولم يعترض شقيقى وإنما اعترض أبى كالعادة وتسبب مرة ثالثة فى قطع رزقى من المحل الذى أعمل به لكى يمنعنى من الزواج بهذه الفتاة ، مع أنه لم يقدم لى بديلاً ولم يفكر لحظة فيما يمكن أن أصنع بحياتى إذا تركتها ، ومضيت فى إجراءات الزواج ، ورغم التهديد والوعيد لم يتخل عنى شقيقى أكرمه الله . . وحضر معى كل الإجراءات وتلقيت خطابات التهانى من أخى وأختى الغائبين ، ومع كل خطاب هدية مالية بمناسبة الزواج ، وتزوجت على بركة الله وأنا فى السادسة والعشرين من عمرى ، ووجدت فى زوجتى وأسرتها كل ما أردته

وحلمت به والحمد لله رب العالمين . ووفَّقنى الله فى شراء محل صغير جداً لبيع الحلوى يقع فى نفس ان صاحبه الموظف بالمعاش يغلقه معظم أيام الشهر . وساعدتنى أسرة فتاتى بإقراضى المبلغ المطلوب ، وباعت زوجتى شبكتها وأعطتها لى لأشترى البضاعة التى سأبيعها ، وعلم شقيقى فى أمريكا وأختى فى أوروبا بما فعلت ، فأرسلا لى يهنئانى ويشجعانى ، ومع كل رسالة هدية مالية صغيرة ، لكنها كبيرة جداً فى نظرى وفى معناها . . وجدَّدت محلى الصغير ، وعملت فيه بإخلاص وجد من السابعة صباحًا حتى منتصف الليل ، وزوجتى معى وإخوتها وأبوها يشجعوننى ويشترون لى الطلبات . . وتجلس زوجتى مكانى إذا احتجت لاستراحة قصيرة ، خاصة بعد أن تركت العمل لتتفرغ لى ولحملها الذى أثمر طفلاً جميلاً هو نعمة كبيرة من الله سبحانه وتعالى .

وخلال عامين من بدء مشروعى كنت قد استطعت سداد دين أسرة زوجتى . . وشراء شبكة جديدة لها . . واستقرت أحوالى نسبيًا والحمد لله ، ثم فوجئت ذات يوم بسيارة أجرة تقف أمام محلى وينزل منها شقيقى الأكبر العائد من أمريكا ومعه زوجته الأجنبية التى صعقت من حرارة استقبالى لزوجها بالصراخ والضحك والدموع والأحضان والتصفيق العصبى الشديد كأننى فى مسرح أشاهد مسرحية ، وقالت حين هدأت إنها لم تر من قبل مشهداً جمع كل هذه الأشياء فى لحظة واحدة . أما ابنه الذى كنت أراه للمرة الأولى فلقد حملته فوق رأسى ورقصت به من السعادة ، وهو يضحك بلا خوف كأنه يعرف أننى عمه مع أن عمره لا يتعدى بضعة شهور ، وحين صعدنا إلى شقتى استقبلتنا زوجتى التى رأت المشهد من النافذة بالزغاريد فازدادت بهجة

اللقاء واندهاش زوجة شقيقى وسعادتها ، وأمضى شقيقى فى مصر شهراً كان من أسعد أيام حياتى ، وبعد أن سافر كتب لى رسالة يقول لى فيها إنه دخل بيوت كل أفراد العائلة الكبيرة والأصدقاء خلال وجوده فى مصر وتناول الغداء أو العشاء فيها . . فلم يشعر بكل هذه الراحة التى شعر بها وهو فى بيتى البسيط الصغير . . ولا بلذة طعامٍ كطعام زوجتى وقهوتها وشايها فحتى الماء كان له فى بيتك طعم خاصٌ أجمل من أى مكان آخر ، وهذا أيضًا هو إحساس زوجتى الأمريكية التى أحبتك وأحبت زوجتك وابنك وقالت إنك إنسان ممتاز فى أخلاقك وعملك !

أما شقيقتى الحنون فقد أسعدتنى هى الأخرى بالزيارة حين جاءت لمصر منذ فترة مع زوجها وطفلتها الصغيرة ، ولم تسعنى الفرحة حين رأيتها واندفعت إليها أقبل يديها فى الشارع لأن فضلها على كبير ولأنها أمى الثانية بعد أمى التى حُرمت منها صغيراً ، ولم تنقطع عنى لحظة خلال وجودها فى مصر ، وفاض حنانها كالنهر علىَّ وعلى زوجتى وطفلى . . وبكيت وبكت كثيراً وهى تودِّعنى عند سفرها ، وأكدت لى أن قلبها لم يسترح طوال السنوات الماضية إلا حين رأتنى ولمست توفيقى فى العمل وسعادتى فى حياتى ، وستسعد فى حياتها بعد أن اطمأن قلبها من ناحيتى .

أما شقيقى الثالث المحترم صاحب الوظيفة المهمة فهو لا ينقطع عنى أبدًا حماه الله وأسعده فى حياته ، وهو دائم السؤال عنى وإذا تأخرت عن زيارته أسبوعًا اتصل بى معاتبًا ، ويدعونى مع زوجتى وطفلى من حين لآخر فى بيته أو فى نادى الهيئة المحترمة التى ينتمى إليها على

شاطىء النيل للغداء معه ومع زوجته الفاضلة التى تشع طيبةً ونوراً على من معها ، ويشرفوننى بقبول دعوتى للغداء فى بيتى يوم الجمعة وقضاء وقت سعيد وجميل معنا من حين لآخر. أما الشخص الوحيد الذى لم يزرنى ولم ير زوجتى أو ابنى ولم يدخل بيتى حتى الآن فهو أبى المشهور، ومازلت رغم مرور 3 سنوات على زواجى مطروداً من جنته ومن رحمته . . وكل جريمتى عنده هى أننى فاشل ولم أحصل على شهادة دراسية ولا أشغل وظيفة مرموقة يتشرف بها فى مجتمعه كوظائف إخوتى ، ورغم ذلك فإننى لم أنقطع عنه وأصل رحمه التى قطعها هو وأزوره مرة كل شهر أو كل شهرين على الأكثر فى بيته ، فتستقبلنى زوجته وأبناؤها بترحيب ويستقبلنى هو بوجوم وتجهم ولا يبتسم أبداً فى وجهى ، مع أنى أحن إلى أن يصافحنى مرة بودٍّ ، وأن يسألنى عن أحوالى وأكاد فى كل مرة أقبِّل يده وأتوسل إليه أن يعفو عنى ويغفر لى جريمتى فى عدم حصولى على شهادة دراسية . . فالدُّنيا حظوظ . . وكم من أُسَر فيها الناجح وفيها الفاشل وهذا هو نصيبى من الحياة ، وفشلى فى وجهى أنا وليس فى وجهه هو ، وأنا راضٍ به وسعيد . . ويكفيه فخراً أشقائى الممتازون المتفوقون الذين أفخر بهمً . . فهؤلاء هم الذين يليقون حقًا باسمه ومركزه . . أما أنا فإنى لا أستخدم اسمه فى شىء وأتكتم أننى ابنه الفاشل ، ولا أتردد على مجتمعاته فلا أذهب إلى النادى ولا إلى بيوت الأقارب ولا أحضر أفراحهم . . ولا أظهر أمام أحد من زملائه أو أصدقائه . . والناس ينسون كل شىء بعد حين وقد نسى أقاربنا ومعارف والدى أن له ابنًا فاشلاً فى دراسته . .

فلمـاذا لاينسى هو ذلك؟ صحيح أننى تاجر صغير وأن محلى كشق الثعبان لكنى أكسب رزقى بالحلال وبعملى وكفاحى ، وأقوم بمسئوليتى عن أسرتى الصغيرة . . وأشرف اسم أبى وأسرته بأخلاقى وتدينى واستقامتى وحسن معاملتى للناس وبأمانتى معهم ، كما أنى أحاول تعويض نقص تعليمى بقراءة الصحف وبعض المجلات والكتب باهتمام، وفى بيتى مكتبة صغيرة ، وكم من أبناء عائلات وأصحاب ألقاب مرموقة لا يشرفون أسرهم بأخلاقهم . . ويسيئون إليهم بانحرافهم وإدمانهم ، وأنا والحمد لله رب العالمين لم أنحرف يومًا عن الطريق المستقيم ، ولم أسرق . . ولم أمد يدى أو عينى إلى حرام وأرعى الله فى حياتى وأسرتى وعملى وعلاقاتى مع الجميع ، وزبائنى يشهدون لى بالأمانة والصدق ، أفلا يكفى ذلك لكى ينسى لى أبى فشلى فى الحصول على الثانوية العامة وزواجى من أسرة بسيطة كحالى البسيط ، إننى أرجوك أن تكتب له أن يعفو عنى ويستقبلنى مرة واحدة عند زيارتى له بابتسامة الأب الطيب ، خاصة وأنا لا أريد منه شيئًا . . ولا أنتظر شيئًا - وعلى أتم استعداد لأن أوقع له على أية أوراق - وعلى يد محام أو فى الشهر العقارى - إذا أراد - لكى يحرمنى بها من الميراث بعد عمر طويل مديد . . وقد سبق أن عرضت عليه ذلك فسلخنى بسخريته وتهكمه اللاذعين . . وعجزت تمامًا عن إقناعه بأن كل ما أريده هو أن أشعر أننى ابنه رغم فشلى الدراسى . . وأننى «بنى آدم» له إحساس وشعور وكرامة . . وليس «عارًا» ، وإذا كنت كذلك فعلى نفسى وليس على أبى . . فهل هذا كثير على يا سيدى . . وهل تناشده فى ذلك حتى تصفو لى الحياة بعد أن استقرت أحوالى وبدأت أجنى ثمرة كفاحى؟

بل تستحق ما هو أكثر منه وأنبل يا صديقى فالناس يختلفون فى حظوظهم من التعليم والتوفيق وإقبال الحياة عليهم ، كما تختلف أوراق الشجرة الواحدة . فيندر أن تجد بينها ورقتين متماثلتين تمامًا ، لكن الإنسان فى كل الأحوال ومهما كان شرف مكانه أو بساطة شأنه إنما يستحق الاحترام بشرفه الشخصى وبمدى التزامه الخلقى وأمانته مع الآخرين ومع الحياة والإنسان الشريف لا يمكن أن يكون تافهًا أبدًا مهما كان حظه من التوفيق فى الحياة . فتعلَّم أنت أولا أن تحمل لنفسك ما هو جدير بإنسان مكافح وشريف ومستقيم مثلك من الاحترام ، فالحق أنى إذا كنت ضد التكبر وأعتبره اجتراء على مقام الله جلَّ شأنه الذى لا يحق لغيره مهما بلغ من شأن أن يتكبر أو يغتر بشىء ، فإنى أيضًا وبنفس الدرجة ضد الإحساس بالدونية بلا أى مبرر والشعور بالنقص تجاه الآخرين وأولهم الأهل الأقربون لمجرد أن الحظوظ تتفاوت بين الناس وبين أبناء الأب الواحد الذين نهلوا معًا من نبع واحد .

ذلك أن الإحساس بالدونية يورث الإنسان حساسية خاصة تفسد عليه بعض أوقاته وتدفعه لإساءة تفسير بعض تصرفات الآخرين معه ، وأنت والحمد لله مبرأ من كل حقد أو كراهية لأى إنسان وتحمل نفسًا

نقية وسيرة صافية ، تتطلع للآخرين برغبة صادقة فى نيل قبولهم ومحبتهم ، لكنك فى حاجة رغم ذلك إلى شىء من الثقة بالنفس . . وإلى الاقتناع بجدارتك بحب الآخرين واحترامهم ، فلا تخلط إذن بين التواضع الكريم المحبوب فى كل إنسان شريف ، وبين الإحساس بتفاهة الشأن وبعد ذلك نتناقش معا فى كل ما يعنيك ويشغلك . أما عن أبيك ، فإنى لم أفهم أبدًا سر هذا الموقف المتحجر الذى يتخذه منك ومازال ثابتًا عليه طوال هذه السنوات مع أن كل شىء فى الحياة يتغير من يوم إلى يوم . صحيح أننا نريد لأبنائنا أن يكونوا دائمًا الأفضل والأرقى . . لكن ماذا نفعل إذا لم يحالفهم التوفيق فيما نريده لهم أو إذا حالت قدراتهم الطبيعية دون تحقيقه ، هل ننبذهم وننكرهم ونبعدهم عن حياتنا ومجتمعنا وأصدقائنا كأنهم «عار» نتبرأ منه ؟

وبأى منطق يحق لنا أن نفعل ذلك وتوفيق الأبناء أو فشلهم فى الحياة لايغير من بنوّتهم لنا ولا من حقوقهم علينا أو واجباتنا تجاههم . . بل لعل الضعيف منهم أحق بعطفنا ورعايتنا له إلى أن نقيله من عثرته وبعدها يتساوى الجميع أمامنا فى حبنا لهم واعتزازنا بهم ، وأبناؤنا فى النهاية ليسوا مشروعات استثمارية نُديرها بحسابات دقيقة لابد أن تحقق نتائجها الأكثر دقة . . إذ أين تفاوت القدرات بينهم . . وأين تفاوت الحظوظ . . وأين اختلاف الشخصيات ثم أين التسليم بإرادة الله قبل كل ذلك وبعده ، وهو القائل جلّ شأنه «إنا كلّ شىء خلقْناه بقدر» . إن ما نملكه لأبنائنا هو أن نعينهم على اكتشاف المجالاتّ التى تتلاءمً مع قدراتهم ، ويستطيعون فيها تحقيق نجاحهم . والنجاح فى الحياة يمكن أن يتحقق فى مجالات عديدة ليست كلها مقصورة على أصحاب الشهادات والألقاب وحدهم ، ولقد أخطأ أبوك فى حقك خطأً جسيمًا حين لم

يكتشف في الوقت الملائم أن قدراتك على التحصيل الدراسي لا تتناسب مع نوع الدراسة التي اختارها لك في الثانوي العام ، ولو تنبّه لذلك في حمأة حرصه على أن يكرر كل أبنائه رحلته في الحياة لعرف أنك تذاكر كثيراً وتستوعب قليلاً وتنجح بصعوبة ، مما يقطع بعدم ملاءمة الثانوي العام لك . ولحوَّلك إلى التعليم التجاري الفني مثلاً فحققت فيه نجاحك . لكنه بدلاً من أن يفعل ذلك قسا عليك ليصبَّك في القالب الذي يريده لك ثم حاسبك أنت على سوء تقديره وفساد طريقته في العلاج بحرمانك من جنته ومن اعتزازه بك كابن بار وشريف يعتز به كل أب ، أنت تعمل بجد وإخلاص من السابعة صباحًا حتى منتصف الليل ، وتتحمل مسئوليتك عن نفسك وأسرتك بأمانة وتتعامل مع الحياة بشرف ، وتحمل في قلبك من الحب لإخوتك ولأبيك وللآخرين ما يرقى بك إلى مرتبة سامية بين البشر الحقيقيين الذين لا مكان للحقد أو الكراهية في قلوبهم ، فامض في سبيلك كما أنت يا صديقي فلسوف تحقق نجاحك الباهر ذات يوم قريب ، ولسوف تصبح إنسانًا له شأنه في وقت غير بعيد . وكل ما أتمناه لك هو أن يطول العمر بأبيك ليشهد نجاحك وانتصارك على كل العقبات . . وليأسف لأنه قد حرم نفسه من قربك منه كل هذه السنين ، وإلى أن يتحقق ذلك بإذن الله احرص على أن تصل أباك كما تفعل الآن سواء لان قلبه لك أو ظل كالحجر أو أشد قسوة ، فلنفسك ولربك ما تفعل معه قبل أن يكون له ، وعلى أبيك وفي حسابه يوم الحساب ما يفعل معك الآن هذا إن لم يصلك كما تصله ويفتح لك أبواب رحمته ويعطيك من قلبه ومشاعره بعض ما تعطيه له ، وبعض ما هو جديد بابن طيب مثلك . قلبه ومشاعره بعض ما تعطيه له ، وبعض ما هو جدير بابن طيب مثلك .

أكتب لك هذه الرسالة لأعبر لك عن حيرتى وحاجتى لمن يشير علىَّ بمخرج من مشكلتى ، أنا رجل فى الرابعة والخمسين من العمر أعمل بوظيفة حكومية كبيرة . عقب تخرجى فى الجامعة بثلاث سنوات توَّجت قصة حبى لابنة عمى بالزواج ونهلنا معًا من رحيق الحب والسعادة ، ولم يعكر صفونا حتى وفاة وليدنا الأول أثناء الولادة ، وإنما تجاوزنا معا المحنة سريعًا . وبعد الولادة عقدت العزم على عدم تكرار التجربة خوفًا على صحة زوجتى بناء على تحذيرات أحد الأطباء ، لكن زوجتى كانت تتطلع بحنين إلى الإنجاب . . واستشرنا أطباء آخرين فأكدوا إمكانية الحمل إذا اتبعنا الاحتياطات اللازمة ، ومع ذلك لم يزايلنى الخوف عليها . . وراوغتها طويلاً لتأجيل الحمل وظلت هى تحاول إقناعى بهدوء وصبر ثلاث سنوات كاملة حتى سلَّمت برغبتها ، ومرت شهور الحمل الأولى بسلام ، وسعدت زوجتى بحملها سعادة طاغية حتى لُمت نفسى على حرمانى لها من السعادة فى السنوات الماضية ، ثم بدأت المتاعب فى الشهور الأخيرة من الحمل حتى أمضت الشهرين الأخيرين راقدة بلا حراك فى الفراش ثم جاءت الولادة قبل موعدها المتوقع بأسبوعين وتدهورت صحتها بسرعة رهيبة . . وفوجئت بها تذبل وتنسحب دماء الحياة من وجهها ثم اختارها ربها إلى جواره بعد الولادة بساعات . . وتركت لى هدية غالية لتذكِّرنى بها إلى يوم الدين ، هى طفلة صغيرة جميلة مثل أمها الراحلة

3

وأتجاوز هذه الفترة العصيبة من حياتى سريعًا لأقول لك إنى وجدت نفسى أبًا فى التاسعة والعشرين من عمرى لطفلة لم تر أمها ولم ترضع من حنانها، وتتبادلها أسرة عمى وأسرتى وأنا أتردد عليها فى البيت الذى تقيم فيه وأمضى معها الساعات ألاعبها وأتأملها . . وأحاول اكتشاف ملامح الشبه بينها وبين أمها الجميلة الراحلة، إلى أن درجت على الأرض وتحددت ملامحها فإذا بها سبحان الله العظيم نسخة أخرى من الفتاة الرقيقة التى أحببتها وهى فى السابعة عشرة من عمرها !

وفى هذه الفترة من العمر تزايد إلحاح أبى وأمى علىّ لأتزوج مرة أخرى ، وكان الحل المثالى الذى توصلا إليه هو أن أتزوج شقيقة زوجتى الصغرى التى تخرجت لتوِّها فى الجامعة . لكن الشقيقة كان لها رأى آخر فقد اعتذرت عن عدم الحلول محل شقيقتها، وقالتها صراحة إنها تحبنى كأخ لكن قلبها مشغول بإنسان آخر . . ولم أغضب منها وإنما تمنيت لها السعادة مع من تريده ويريدها ، لكن أمى غضبت منها غضبًا شديداً وقاطعتها حتى رحلت عن الحياة يرحمها الله بعد ذلك بعامين . وبعد وفاة أمى استقرت ابنتى فى بيت عمى ، ولم أجد حافزاً قويًا للزواج فانصرفت عنه إلى عملى ، وسافرت للعمل فى الخارج لمدة ثلاثة أعوام عدت خلالها مرتين لأرى ابنتى ثم لم أحتمل البعد عنها أكثر من ذلك فرجعت نهائيًا وضممت ابنتى إلىّ فى بيتى رغم معارضة جدتها ، وتفرغت لرعايتها وقاسيت الأمرَّين مع المربيات اللاتى يرفضن خدمة طفلة رجل أرمل مثلى . . أو يراوغننى لاستغلالى بأبشع صورة . . وخلال ذلك كنت أذهب بابنتى إلى المدرسة وأرجع بها إلى

البيت ، وإذا خرجت لزيارة فى المساء أو لعمل أو لمشوار أصطحبها معى حتى أصبحت لا أذهب إلى مكان إلا وهى معى .

وبسبب معاناتى الشديدة مع المربيات فكرت فى الزواج مرة أخرى لأوفر لها الاستقرار النفسى ، وعرضت نفسى على أكثر من زميلة لى فى العمل فرفضتنى من رفضتنى منهن لأنها تريد لنفسها شابًا لم يتزوج وليس له أبناء ، واشترطت أخريات ألا تعيش معنا ابنتى فرفضتهن على الفور .

ولفترة ما خُيل إلىّ ياسيدى أننى مدانٌ بجريمة كبرى فى نظر هؤلاء الزميلات لمجرد أن لدىَّ طفلة يتيمة عمرها 6 سنوات ، مع أنها هادئة وجميلة وتحب كل من يتعامل معها ، ثم رشَّح لى زميل فى العمل قريبة له أرملة فى مثل عمرى ولديها ولد وبنت فى سن الثامنة والعاشرة ، ورحَّبت بها وأجبته حين سألنى عن شروطى بأنى لا أريد شيئًا سوى أن ترعى الله فى ابنتى وأن تحب لها ما تحبه لولديها . . وقدَّمنى لها وكررت عليها مطلبى الوحيد فأكدت لى أنها أم ولا يرضى ضميرها أن تظلم طفلة محرومة ، ولا تطلب منى إلا أن أعامل أطفالها بنفس المبدأ . . وارتحت لمن وفِّقت إليه وتعاهدنا على أن يكون كل منا أباً وأماً لأطفالنا . وتزوجت خلال 3 شهور وانتقلت إلى بيتى . وبدأت حياتنا الزوجية مُبشرة بالخير واسترحت كثيرًا حين ألفت ابنتى «شقيقيها» الجديدين وأحبتهما . ولتجاربى السابقة مع المربيات كنت لا أدع طفلتى تغيب عن عينى كثيرًا ، وأسألها بينى وبينها عما فعلت معها زوجتى وأولادها فى غيابى ، وكانت الإجابات دائمًا مطمئنة فحمدت ربى على ذلك وبدأت

أستريح من هواجسى . ثم رغبت زوجتى فى الإنجاب لكى تعمِّق روابطنا كما قالت لى فرضت ذلك بشدة لأن لدينا من الأبناء ما يكفينا ، فصدمت قليلاً ثم عادت تلح علىَّ فى ذلك فأصررت على الرفض ، فإذا بها تنقلب شخصية أخرى غير من عرفتها وتزوجتها وبدأت تسىء معاملتى ، وفقدت حرصها على حياتنا الزوجية ثم بدأت تنهر ابنتى بعصبية أمامى ، فانزعجت جداً وذكَّرتها بما اتفقنا عليه فلم ترتدع ، وبدأت تتهم ابنتى بالدلع وبأنها سخيفة وكثيرة الالتصاق بى ولابد من تأديبها ، مع أنها لم تكن تفعل أكثر مما كان طفلاها يفعلانه وهما أيضًا مدللان وملتصقان بها .

وحزنت لما وصلت إليه الحال ، ومع ذلك لم أسلم باليأس . وصبرت وضاعفت من رعايتى لزوجتى وطفليها وكلما اقتربنا من نقطة الوفاق . طالبتنى بالإنجاب فنعود مرة أخرى من حيث بدأنا ، واستعنت عليها بأهلها فأيدونى . . لكن تزايدت عصبيتها ، فإذا بى أعود ذات يوم فأجد الرعب متجمدا فى وجه ابنتى وأثر دموع جافة فى عينيها . . فسألتها عما بها فلم تُجبنى بشىء وأحسست بأنها خائفة . . ولاحظت أن زوجتى ترقُبنا بتحفز فشككْت فى الأمر . . وظللْت قلقًا إلى أن استطعت الانفراد بابنتى ورحت أطمئنها حتى اعترفت لى بأن «ماما فلانة» قد لسعتها فى ذراعها بشوكة سخنتها على النار عقابًا لها على أنها فتحت الثلاجة بغير استئذانها ! وهددتها بأن تُكرر ذلك مرة أخرى إذا تحدَّثت لى عنه ! ولم أشعر بنفسى حين سمعت ذلك . . وبحثت عن أثر اللسع فى ذراعها تحت كُمِّها وسحبتها من يدها وتوجَّهت بها إلى حيث

تنام زوجتى بعد الغداء . . وأيقظتها وكشفت ذراع ابنتى وقلت لها وأنا أرتجف من الانفعال : أهذا عهد الله الذى تعاهدنا عليه ؟ . . أهذا عهد الله . . وقبل أن ترد أو تدافع عن نفسها ألقيت عليها يمين الطلاق وطالبتها بجمع أشيائها ومغادرة بيتى على الفور ! . . ولم يأت الليل حتى كانت قد غادرت البيت بعد فشل وساطة أهلها الذين استنجدت بهم . ونمت هذه الليلة وابنتى فى حضنى . . وطيف أمها الوديعة لا يفارقنى . . ودمعى ينساب من تحت جفونى وتدخل الوسطاء بيننا فى الأيام التالية ، فلم أستطع أبدًا أن أغفر لها ما فعلته وأعطيتها حقوقها كاملة . . وصمدت لمحاولاتها إقناعى بأنها كانت تُربيها . . وأنها تفعل نفس الشىء مع طفليها مع أن هذا غير صحيح . ونفضت يدى من الزواج بعد ذلك ، وعشْت راهبًا فى الحادية والأربعين من عمرى مع ابنتى وتفرغت لرعايتها وخدمتها ، فلم يمض عامان حتى أصبحت هى التى تخدمنى وترعى شئونى كأنما أضافت الآلام والأحزان إلى عمرها أضعافه ، فإذا اضطررت للسفر بضعة أيام استضافتها خالتها أو أبى أو شقيقى المتزوج . . وكل منهم يدعوها بإلحاح ويحبها لشخصها ولشىء أودعه الله فيها هو أنها تحب الناس جميعًا وتطلب لهم الخير ، وقد كانت المرة الوحيدة التى عنَّفتها فيها حين حاولت وهى فى سن الرابعة عشرة الإصلاح بينى وبين مطلقتى ، وعرفت فيما بعد أنها تتصل بابنتى تليفونيًا وتطالبها بالإصلاح بيننا ! وأن ابنتى تتصل بابنتها والصداقة مستمرة بينهما !

ومضت الأيام بنا ونحن صديقان حميمان نتصارح بكل شيء . . وتروى لى ابنتى عن كل ما يصادفها فى حياتها ، حتى محاولات البعض لنيْل إعجابها ، والتحقت بالجامعة وأصبحت شابة جميلة وبدأت أستقبل خُطَّابها وأعرضهم عليها ونتفق دائمًا فى الرأى فيهم ، ثم اعترفت لى ذات يوم بأن هناك «إنسانا» على وشك أن يتقدم لها وتريدنى أن أقبله وتريدنى وهو الأهم من ذلك أن أتزوج لكى تستطيع هى أن تتزوَّج ، لأنها لن تسعد بحياتها إذا تركتنى وحيداً . وسرحت حين سمعت ذلك وعرفت أن أوان الفراق بيننا قد حان وأكدت لها أنى سأسعد بسعادتها سواء تزوجت أم عشْت وحيداً .

وتقدم لى الشاب الذى تنتظره وشرح لى ظروفه فرحَّبت به دون النظر لأية ظروف مادية . . وعرضت عليه أن يُقيم معى فى شقتى إلى أن يحصل على شقته المنتظرة ، بل وعرضت عليه أن أترك لهما الشقة وأعيش مع أبى فى شقته القديمة إلى أن ينتقلا لمسكنهما ، لكن ابنتى رفضت بإصرار ، وتزوجت ابنتى فى مسكنى . . وبكيت يوم زفافها من الفرحة . . وتذكرت أمها رحمها الله .

وجعلت هدف حياتى بعد زواجها راحتها وراحة زوجها ، وتفرغت لإعداد الشقة التى تسلَّمها على المحارة لكى يتفرغ هو لعمله ولعروسه المشتاقة إلى السعادة والحنان ، وانتهيت من إعداد الشقة خلال شهور واشتريت ما اتفقنا على أن أشتريه من أثاث . وجاءت اللحظة التى تمنيتها وخشيتها فى الوقت نفسه وهى لحظة انتقال ابنتى إلى عشها الجديد . . وذهبت معهما إلى الشقة واطمأننت على كل

شيئ . . وهممت بالانصراف فبكت ابنتى . . وتضاحكت أنا ساخراً من دموعها ، وعدت إلى بيتى مُثْقل القلب لا أتصور حياتى بعيدًا عنها . وما كاد النهار يطلع حتى ذهبت إليها حاملاً الجرائد والخبز الساخن وبعض الجاتوه . . وصرخت ابنتى من الفرح حين فتحت لى الباب وقدمت لها ما أحمله على الباب . وجريت إلى عملى رافضًا الاستجابة لإلحاحها بالدخول ، وأصبحت أكرر ذلك من حين إلى آخر وأحيانًا كل يوم وأزورها فى المساء كثيراً . . ويمضيان معى يوم الجمعة . . وأشترى لها كل ما تحتاج إليه من اللحم والدجاج والخضار ، وأصلح لها الأجهزة إذا تعطلت وحملت فطُفْتُ بها على الأطباء ، وأصررت على أن أتحمل نفقات العلاج والولادة لأن زوجها شاب فى مقتبل حياته . وعادت إلى بيتها حاملة طفلاً جميلاً ، فانفجر فى قلبى ينبوع جديد من الحب لهذا الوليد الجديد ، وأضفت إلى مشاغلى شئونًا جديدة لذيذة تخص الطفل وملابسه وأمراضه ومواعيد تطعيمه الخ . .

وسعدت بذلك وشكرت ربى عليه كثيراً . . فإذا بزوج ابنتى الحبيبة يصدمنى بما لم أكن أتوقعه ولم يخطر لى ببال ذات يوم وهو الشكوى إلى أهله . . وإلى شقيقى من أننى أزور بيت ابنتى كثيراً . . وأتجاوز حدودى معه . . ولا أُشْعره بأنه رب البيت المسئول عنه ومن أن زوجته لا تعمل إلا بمشورتى فى كل شىء فى حياتها . . ولا تتصرف فى شىء إلا بعد أن تسألنى عنه ، ومن أنه لا يحس برجولته فى بيته بسببى ! وخفق قلبى بشدة وأحسسْت بحجر ثقيل يهبط على صدرى . . وتساءلت : وما المطلوب منِّى ؟ . . فعرفت أن المطلوب هو أن أُقلل

من زياراتى لابنتى إلى أقل حد ممكن ، وأن أدعهما لحالهما فلا أدعوها للغداء عندى كل أسبوع وأن أعوِّد ابنتى على ألا تستشيرنى فى شىء !

وقال لى شقيقى كل ذلك وهو محرج ومشفق علىّ . . فلم أتمالك نفسى من البكاء كالطفل ، وبعد أن جففت دمعى قلت له إنه يبدو أننى نسيت أنى رجل عجوز غير مرغوب فيه فى حياة شابين صغيرين . . وسأفعل ما يريد وأرجو أن يعيُننى الله عليه .

وبدأت أُقلل زياراتى لابنتى ثم امتنعت عن زيارتها لمدة أسبوعين يعلم الله كيف مرّاً علىّ . . وأحست هى بأن هناك شيئًا غير طبيعى وألحت علىَّ فى السؤال فلم أُفدْها بشىء ، فتحدثت مع زوجها وضيَّقت عليه الخناق ، فصارحها بما فَعل وتطاول عليها وخيَّرها بين أن تبقى علاقتها بى فى الحدود التى رسمها هو وبين الطلاق ! فلم تتردَّد وحملت طفلها وحقيبتها وجاءت إلى البيت ، وفزعت حين عرفت منها ما حدث وألححْتُ عليها فى العودة . فرفضت ، وذهبت لإحضاره لكى يستعيد زوجته وتوجَّهْت إلى بيت أسرته فوجدته هناك ، وقبل أن أنطق بشىء فوجئت به ينهال علىّ بالهجوم الظالم أمام والده ووالدته ويعاملنى بفظاظة ، ويتهمنى بأنى سأخرب بيت ابنتى وبأنى - سامحه الله - مريض نفسيًا وفى حاجة إلى العلاج لكى أتقبَّل الحقيقة ، وهى أن ابنتى قد تزوجته وفى حياتها رجل آخر غيره ! ومن حقه أن يكون له وحده السيادة عليها ! وانعقد لسانى من الذهول واحمرَّ وجهى وتصبَّب العرق منى ، فصرخ فيه أبوه وأقسم أن يصفعه إن عاد إلى جرحى مرة أخرى

وأحضرت لى أمه كوبًا من الماء وهى تتأسف لما حدث . . وتطالبنى بألا أحزن لكلام ابنها الطائش . وبعد أن تمالكت نفسى قلت لهم إنى قد جئت لاصطحابه لكى يعود بزوجته إلى بيته وإنى أسامحه فيما فعل وفيما قال بشرط ألا يسىء معاملة ابنتى لأنها ثمرة عمرى كله ، وإنى على استعداد لأن ألتزم بكل شروطه ولو كان فيها حرمانى من ابنتى الوحيدة حرصًا على سعادتها وسعادته . فتخاذل واعتذر لى بكلمات قصيرة . . ثم طلب منى أن أُعيد أنا ابنتى إلى بيته فنهض أبوه معى واصطحبنى إلى البيت وأقسمْتُ على ابنتى أن ترجع إلى بيتها فرجعت حزينة ، ومن ذلك اليوم قاطعنى زوج ابنتى نهائيًا حتى لا أزور بيته وعاملنى بجفاء فى أول زيارة فامتنعت عن الذهاب إلى ابنتى وأصبحت الأيام الطويلة تمضى وأنا وحيد فى شقتى لا يربطنى بابنتى سوى التليفون وفى غير وجود زوجها بالبيت ، كأنها تختلس المكالمات معى وتزورنى من حين لآخر مع طفلها وحدهما ، وحين ترجع لابد أن يتذرَّع زوجها بأى شىء ويفتعل معها مشاجرة وينكد عليها حتى طلبت منها ألا تزورنى تجنبا للمتاعب ، لكنها ترفض بل وتبدى لى استعدادها للطلاق من زوجها إذا كان هذا هو الحل الوحيد لاستمرار المودَّة بيننا . . مع أنها تحب زوجها وهو يحبها ، لكنها متألمة منه لأنه يحرمها منى ويحرمنى منها وأنا أبوها وأمها وكل من لها فى الحياة . . إننى أرفض بإصرار فكرة الطلاق حرصًا على سعادتها وعلى طفلها . . لكنى أتساءل حائراً لماذا يضيق بى زوج ابنتى إلى هذا الحد ، وأنا لم أقدم له منذ عرفته إلا كل الخير ولم تبدر منى إساءة واحدة إليه . وهل حبى لابنتى وحرصى على

راحتها وراحته جريمة أُعاقب عليها بحرمانى منها بل ومنه هو أيضًا وهو من اعتبرته ابنا لى منذ عرفته ؟

لقد تحمَّلت أقدارى صابرًا وراضيًا منذ وفاة زوجتى الأولى ، لكن حرمانى وأنا رجل وحيد فى الرابعة والخمسين من ابنتى الوحيدة وبلا سبب شيء يشق علىّ احتماله . . وقد توصلت ابنتى أخيرًا إلى قرار أو اختيار تضعنى أمامه بإصرار وهو إما أن أتزوج لكى تطمئن علىّ . . وترشح لى مطلقتى التى تزوَّج ابناها وتعيش وحيدة وما زالت ابنتى على صلة طيبة بها حتى الآن . . وإما أن تطلب هى الطلاق وتصر عليه وتعود للحياة معى حتى يستريح ضميرها من ناحيتى .

وأنا لا أريد هذا ولا ذاك يا سيدى وإنما أريد فقط أن تستمر علاقتى بابنتى طبيعية ، وأن أقدم لها حبى وحنانى وخدماتى وتقدم لى هى حبها وحنانها بلا مشاكل فما الصعب فى ذلك ؟ وكيف أستطيع أن أجعل إنسانًا يكرهنى بلا سبب يحبنى أو - على الأقل - يعاملنى بإحساس عادى بلا حب ولا كراهية . وأخيرًا هل أرجوك أن تكتب له كلمة تنبهه فيها إلى خطأ ما يفعل وإلى أن الله - سبحانه وتعالى - لا يغفر مثل هذا العمل ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

يا إلهى كأنما استنفد الإنسان كل آلام الحياة المعروفة فاستحدث بضيق أفقه آلامًا جديدة يضيفها إلى معاناته ومعاناة الآخرين وعذاباتهم ؟ إننا قد نفهم أن يشكو زوج من تقصير صهره فى حق ابنته أو من أنانيته وانشغاله بنفسه وأهوائه عنها ، لكن كيف نفهم أن يشكو زوج شاب من تفانى صهره فى حب ابنته وخدمتها وخدمته هو أيضًا ، ومن رغبته فى أن يكرِّس كل حياته لإسعادهما والتخفيف من عناء الحياة عليهما ؟ كيف تنقلب المفاهيم عند البعض إلى هذا الحد ؟ . . وأين الوفاء وأين العرفان لرجل مثلك استضاف زوج ابنته فى بيته شهورًا . . وعمل مقاولًا بلا أجر ليعد له مسكن الزوجية نيابة عنه ليهنأ بعروسه فيه . . ويكلِّف نفسه رهقًا فيحمل لابنته وزوجها الصحف والخبز الساخن والجاتوه فى الصباح الباكر ، ويشترى لهما احتياجاتهما ويحمل عنهما طفلهما إلى الأطباء ، ويتحمل تكاليف ولادة ابنته ، ويفعل كل ذلك حبًا وكرامة عن طيب خاطر . وعلى طريقة «لك ولمن تحبين» لشخصية سيدنى كارتن المضحية لمن أحب فى رواية قصة مدينتين لشارلز ديكنز ، فيكون «عقابه» على كل ذلك هو الضيق به والنفور منه والتطاول عليه وإيلامه وجرح

مشاعره واتهامه بالمرض النفسى ثم السعى للتفريق بينه وبين ابنته التى تمثل بالنسبة له ثمرة عمره ؟

حقًا . . ما أقسى بعض الشباب أحيانًا على مشاعر الكهول وأحاسيسهم . . وما أجهل البعض الآخر بما تفعله بعض كلماتهم الجارحة بالقلوب المثقلة بالأحزان !

قد تكون يا سيدى قد بالغت بعض الشىء فى اهتمامك بابنتك وفى زياراتك لها . . وفى ارتباطها بك بعد الزواج ، لكن لك من ظروفك المؤلمة السابقة ومن «ترهُبك» فى رعاية ابنتك طوال السنوات الماضية بعض العذر فى هذه المبالغة ، «والفهم» كفيل بتوضيح أسبابها والتجاوز عنها والاعتدال مطلوب دائمًا حتى فى المشاعر الإنسانية ، لكن زوج ابنتك لم «يفهم» للأسف . . ولم يعذر . . ولم يكن بعيد النظر فيعرف أن هذه المغالاة فى الاهتمام بزوجته سوف تتجه مع الأيام ومع حركة الحياة الهادرة ومتغيراتها المستمرة ومع الاعتياد على الواقع الجديد والتكيف معه إلى اتجاهها الضرورى إلى الاعتدال والطبيعية مع افتراض أن المبالغة فى حب أب لابنته والاهتمام بها وزوجها وطفلهما من «المكروهات» فى عرفه !

كذلك لم يسمح له ضيق أُفقه بأن يفرِّق بين حب الابنة لأبيها ، وهو حب غريزى مفهوم وبين حب الابنة لزوجها وهو حب من نوع آخر ولا تعارض بينهما ولا يُغنى أحدهما عن الآخر ، لأن كلا منهما احتياج عاطفى وإنسانى مختلف وقد بلغ «القمة» فى ضيق الأفق حين

وضع زوجته أمام هذا الاختيار الأحمق بين أبيها وبينه، وسمح لرغبته في الاستحواذ على زوجته بأن تتجاوز الحدود إلى الغيرة عليها من أبيها ومن ارتباطها الطبيعى به فى مثل ظروفه ووحدته . إنه يحب زوجته كما فهمت من رسالتك ، فكيف غاب عنه إذن أن الحب الصادق يمتد من المحبوب ليشمل كلَّ من يحبه وأولهم أنت يا سيدى؟ لقد اتهمك ظلمًا وعُدْوانًا بالحب المرضى لابنتك وبحاجتك إلى الشفاء منه . . والحق أن حبك لابنتك حب سوىّ لا غبار عليه حتى ولو كان زائدًا على الحد بعض الشيء . أما الحب المرضى الذى أشار إليه فتحكم صاحبه رغبة خفية فى الاستحواذ على من يحب والانفراد به دون الآخرين ، ولو أدى ذلك إلى تحطيم علاقاته الضرورية بهم وإلى حرمانه منهم على غير رغبته الشخصية، كما قد تفعل أحيانًا بعض الأمهات غير السويات اللاتى يتملكهن الحب الأنانى للابنة أو الابن فيحكْن المؤامرات لتنفير كل منهما من شريك حياته . لينفردن به ولو كان فى ذلك تعاسته الشخصية . أما أنت فكل تصرفاتك تقطع بأن حبك لابنتك حب رشيد يفرق بين حقك عليها وحق زوجها عليها . . ويحرص على استمرار زواجها ونجاحه وعلى سعادتها مع زوجها وعلى صالح طفلها ، ولو كان فى كل ذلك وحدته هو ومعاناته . وهذا هو الحب الأبوى الصادق بدليل انسحابك من حياتها بلا مقاومة حرصًا على إرضاء زوجها ، ولو كان غير ذلك لشجعت ابنتك على الانفصال عن زوجها ولما أعدتها إليه وسعيت إليه للإصلاح بينهما .

فأيكما إذاً يحتاج حقًا إلى العلاج النفسى ؟ إنه هو من يحتاج إليه وإن كان العلاج النفسى فى حد ذاته ليس عيبًا يُعيَّر به أحد . لكن مادام الأمر سجالاً فسأقول له إنه يحتاج فعلاً إلى العلاج النفسى لكى يعدِّل استجاباته للأشياء والمشاعر ؛ فتصبح استجابات طبيعية وليست شاذة فتكون استجابته السويَّة للحب الأبوى الذى تقدمه أنت له هى الحب وليست الكراهية ، وتكون استجابته للعطاء من جانبك هى الشكر والعرفان وليس الجحود والنكران ، وتكون استجاباته للضعف الإنسانى الذى تبديه تجاه ابنتك وتجاهه هى الفهم والتلبية وليس الاستنكار والاستهجان .

لقد تحدَّثت عن الناحية النفسية وعن ظروفك كأب ولم أتحدث بعد عن الناحية الدينية فى الموضوع ولا ينبغى أن أتحدث عنها لأنها بديهية ، لكن ما دمت تطالبنى بذلك فسوف أقول لزوج ابنتك إنه يرتكب إثمًا بشعًا بالحيلولة بينك وبين ابنتك ، فلقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حقًا وصدقًا : «من فرَّق بين والدة وولدها فرَّق الله بينه وبين أحبَّته يوم القيامة» ، وما ينطبق على الأم ينطبق على الأب أيضًا فى هذا الشأن .

أما آخر آية نزلت من القرآن الكريم . فقد كانت الآية التى تقول : ﴿واتقُوا يومًا تُرجعُون فيه إلى الله ثم تُوفَّى كلُّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يُظلمون﴾ .

﴿وهم لا يظلمون﴾ أيها الشاب المغتر بشبابه والمستأسد على أب مستضعف بحبه لابنته وحرصه على سعادتها وعلى صالح طفلها ، ويتحمل أذاك مرغمًا وصابرًا من أجل ذلك وحده ، ولولا هذه الاعتبارات لما كنت تساوى عنده قُلامة ظفر حتى يسعى وراءك أو يسترضيك . فلا تغتر باسترضائه لك وتتصور فى نفسك ماليس فيها ، فما أنت سوى شاب عادى لو نفرت من أحقر إنسان فى الشارع لما كان لك عنده إلا التجاهل والازدراء ، لكنه ضعف القلوب تجاه ثمرات القلوب وثمار العمر . وسوف تعرف كل ذلك وتشرب من نفس الكأس حتى الثُّمالة فى قادم الأيام إن لم ترجع الآن عن غيِّك . أما أنت يا سيدى فإنى أرجوك أن تستمع لنصيحة ابنتك المخلصة وتتزوج ، ليس فقط لكى يطمئن خاطرها عليك ويستريح ضميرها تجاهك ، وإنما أيضًا لكى تستعين على وحدتك وآلامك برفيقة عمر تخفف عنك معاناتك ، ولا بأس أن تكون مطلقتك السابقة بعد أن تغيرت الظروف وأصبح كل منكما وحيداً يحتاج إلى الآخر ، فافعل ذلك يا سيدى ولا تتردد وسوف تتحسن الأمور كثيرًا بزواجك . إنك لا تتردد فى الإقدام على أى شىء يسعد قلب ابنتك الوحيدة . . فلماذا لا تسعدها وتسعد نفسك بزواجك الآن وقبل أن يتقدم بك العمر أكثر من ذلك؟

أنا شـاب فى الخـامسـة والثـلاثين من عـمـرى ، أمـثل الابن الأوسط بين ثلاثة ذكـور لأبـويـن كـريمين وأسـرة طيبـة ترعـى حدود الله فى حياتها ومعـاملاتـها ، فنشأنـا والحمد لله على استقامة الطبع لا نعرف الخداع وعلى المثل العُليا والصراحة . وقد تـخرجنا جـميعًا متفوقين وشغلنا بفضل الله مراكـز جيدة تهيـىء لنا حياة فـاضـلة كريمـة . والتـحقـت أنا بالعمل بشـركة كبرى بمرتب كبير وتزوَّج شقيقاى الأكبر والأصغر فى حياة أبى ، بينما ترددت أنا طويلاً فى الزواج حتى مات - رحمه الله - بغيـر أن أحـقـق لـه أمنيتـه فى أن يشـهـد زواجى ويرى أبنائى كأخوىَّ . ومضت الأيام وأمى و«شقيقتاى» . أى زوجتى أخوَىَّ اللتين وجـدت فيهـمـا الشـقيقتين ، يُلْحِحْن علىّ فـى الـزواج دون جـدوى ، ومنذ عـام تقريبًا التقيت أثَناء تأديتى لمهمة خاصة بالعـمــل فى إحـدى الجـهـات بفـتـاة لفـتت نظرى من أول وهلة بجمالها الباهر وقوامها المشوق وشعرها الذهبى واهتمامها الزائد بمظهرها ، وأيضًا بنشاطها وخفتها ومرحها ولاحظت هـى اهتـمـامى بهـا ونظراتى إليهـا ، فـعـدت إلـى بيـتى وصـورتـهـا ورنـين صـوتـها فـى أذنـى لا يفارقنى ، ووجدت نفسى مدفوعًا بقوة غامضة أختلق الأسباب للعودة إلى جهة العمل التى تعمل بها والتحدث إليها ، وبعد عدة لقاءات قليلة معها فاتحتها فى الزواج . ففوجئت بـهـا تقول لـى ضاحكة بثبات وفى ثقة إنها كانت تنتظر منى هذه الخطوة منذ المرة الأولى التى رأتنى فيها !

4

وسعدت بترحيبها وعرَّفتنى بأسرتها أى بأبيها الموظف المحال إلى المعاش وأمها ، وعرفت منها أن لها أخا متزوجًا يعمل فى الخارج ، ولاحظت أن شخصية والدتها تختلف عن شخصية أمى من حيث إنها متفتحة وتتزين وتهتم بمظهرها اهتمامًا كبيرًا على غير المألوف فى أسرتى، كما لاحظت أيضًا أن مستوى الأسرة الاجتماعى ومستوى البيت أقل بكثير من المظهر الذى تحرص عليه ، ولم يغير ذلك شيئًا من حماسى الشديد للفوز بمن استحوذت على قلبى ومشاعرى من الوهلة الأولى. وفاتحت أمى وأخوىَّ فسعدوا بأنى قد وجدت أخيرًا بنت الحلال التى سأبنى معها عشى السعيد وأجمعوا حين رأوها على أنها جميلة كالقمر الساطع وأنى قد صبرت ونلت فوق ما أردت. وبدأنا نتفاهم فى أمور الزواج ، وكنت قد استعددت له منذ فترة بشراء شقة تمليك ، لكن والدة فتاتى اقترحت علىَّ أن أبيع هذه الشقة وأقيم معهم فى مسكنهم لأن الشقة واسعة ، وابنها المتزوج الغائب فى الخارج قد اشترى شقة سيعود إليها بأسرته حين ينتهى عمله هناك ، والعروس كما قالت لى أمها موظفة ، وسوف يسعدها بلا شك أن ترجع من عملها فتجد والدتها قد أعدَّت لها كل شىء ، كما أن الشقة ستكون لنا كلها ما عدا غرفة واحدة للأبوين بصفتهما «ضيفين» علينا على حد تعبير أم فتاتى. وشاركت فتاتى أمها هذا الرأى بحماس ولم أستطع الرفض أما أسلوبهما الساحر فى الحديث والإقناع ، فقبلت اقتراحهما رغم اعتراض أمى وأخوىَّ على ذلك .

وبعْتُ الشقة فعلاً ، وكان من الضرورى إجراء بعض التجديدات فى الشقَة التى ستصبح عش الزوجية لى ، فقمت بتغيير الحمام القديم وتركيب حمام ملون وتغيير المطبخ القديم بمطبخ آرو زان فاخر، وقمت بإعادة طلاء الشقة كلها وتغيير معظم أثاثها بأثاث جديد لائق ، وقدَّمت لفتاتى شبكة فاخرة وهدايا كثيرة ، وأنفقت فى سبيل ذلك راضيًا وسعيدًا كل ثمن الشقة التمليك التى بعتها خلال أسابيع معدودة ، وبدأنا الاستعداد للزفاف ففوجئت بحماتى قبله بأيام تطلب منى التوقيع على قائمة لزوجتى بالأثاث الجديد الذى اشتريته كله بحجة ضمان مستقبل ابنتها ، ولم أستطع الرفض أيضًا أمام نفس الأسلوب الساحر . . وأمام تشوقى إلى السعادة ورغبتى فى ألا يعرقل طريقنا إليها شىء . وتم الزفاف ونحن فى قمة الابتهاج وسافرنا لقضاء أجازة شهر العسل فى أحد فنادق مدينة ساحلية ونحن نطير على أجنحة الحب والبهجة .

وهناك لم تسمح لى زوجتى بإقامة علاقة زوجية كاملة معها بحجة الخوف وتفضيلها تأجيل ذلك إلى حين عودتنا إلى بيتنا، واستجبت لرغبتها محاذرًا أن يعكر صفونا شىء ، وعدنا بعد انتهاء الأجازة فلاحظت استمرار تهربها منى بأسباب مختلفة ، ولم أشأ أيضًا الضغط عليها أو إكراهها على شىء ، على أمل أن يذوب الخوف مع الأيام ، لكن معاملتها لى بدأت تتغير بعد أيام قليلة من عودتنا من أجازة العسل ، وبدأت ألاحظ كثرة اختلائها بأمها ، ثم جاءت أمى وشقيقاى للتهنئة فقابلتهم زوجتى بجفاء بحجة أننا «ضيوف» على بيت أسرتها ولا يحق لنا أن نستقبل ضيوفًا لنا فيه ! .

وبعـد انصـرافـهم نشب أول خـلاف بينى وبينهـا حـول هذا الأمـر ، ففوجئت بهـا تستخدم معى ألفاظًا وقحة ونابية لم أعهـدها من قبل ولم أتخيل أن تستطيع النطق بها ، وأمهـا تؤيدها فى كل كـبيرة وصغـيرة ، وتكررت الخلافـات الصغـيرة بيننا بعد ذلك فتطاولـت علىَّ فى أحـدها واتهـمتنى بأننى غير مكتمل الرجولة وبأنـهـا مستعـدة للفحص الطبى لإثبات ذلك رغم أنى كامل الرجولة وقادر على الإنجاب والحمد لله وهى التى تهربت منى . وفوجئت بهـا تطلب منى الطلاق وتتـمسك به ، وتوجَّهت أمها على الفور إلى بيت والدتى وقالت لها ما يسىء لى بصوت عال وألفاظ بذيئة لم تتردد من قبل تحت سقف بيتنا . ووجدت نفسى بعد ما حدث أمام موقف لا مفر فيه من الطلاق ، فطلقتها بعد شهر واحد من الزواج وعدت إلى بيت والدتى ، وقـد خسرت الزوجـة التى أحـببتهـا وتمنيتهـا منذ رأيتهـا والشقة التى بعـتهـا وأنفقت ثمنهـا فى تجديد شـقة العروس الغادرة وفى الأثاث الذى اشتريته لها . . وخسرت قبل كل ذلك ماهو أكثر منه وأفدح وهو الاعتبار بعد أن طعنتنى زوجتى الجميلة فى رجولتى بطريقة جارحة وظالمة .

وانطويت على أحزانى أسترجع هـذه التجربـة الغريبة وأفكر فيما جرى لى فيها ، فلم تمض أيام حتى سمعت أنها قد خطبت لابن خالتها الذى يحبها وتحبه منذ سنوات ، لكنه لم يكن قادراً من الناحية المادية على الوفـاء بمتطلبـات الزواج ! ولم تكد شهـور العدة تنتهى حتى تم الزفـاف الميمون ليستمتع الحبيب الغالى بالأثاث الذى اشتريته وغرفة النوم التى دفعت ثمنها والحمام الملون الذى اخترته والهدايا التى أهديتها لها والشقة التى جددتها وأعدت طلاءها من مالى ليسعد بها صاحب النصيب !

هل تتصور هذا ياسيدى . . لماذا فعلت بى ذلك . . وما قيمة الأثاث وتجديد الشقة مهما تكلف من مال حتى تخوض فتاة تجربة زواج بإنسان جاء إليها راغبًا فى الارتباط بها بإخلاص . . وهى عاقدة العزم على التخلص منه بعد قليل ؟

لقد فقدت ثقتى فى الناس والقيم والأصول والواجب وطويت صدرى على أحزانى ، ولم أستطع إخبار أصدقائى وزملائى بما جرى لى وإن كان الجميع قد لاحظوا علىّ حزنى ووجومى .

ثم مضت شهور على هذه التجربة فلم يتخفف إحساسى بالضيق وفقدان الثقة فى الآخرين ، وبدأت والدتى وشقيقتاى «أى زوجتى أخوى» فى الحديث معى عن ضرورة الزواج مرة أخرى ، وبدأن فى عرض فتيات من الجيران والأقارب علىّ وشرح مزاياهن دون أى تجاوب من ناحيتى . وأرادت أمى - جزاها الله عنا جميعًا كل خير - أن تعوضنى عن خسارتى المادية ؛ فباعت نصيبا لها فى بيت قديم موروث وقدمته لى فى حضور أخوى وبرضاهما عسى أن يشجعنى ذلك على الإقدام على الزواج ، لكنى رفضت قبوله تحرجًا من أن يكون ذلك غير جائز شرعًا ولأخوى مثل ما لى من حق فى هذا المال ، ولأننى أيضًا أحب أن أعوض خسارتى من كدى وعرقى وليس بالاستيلاء على نصيب أخوىَّ .

وفى أحد أيام الأجازات جاء شقيقى الأصغر وزوجته لزيارتى ففاتحتنى أختى الصغرى فى ضرورة نسيان تجربتى الأليمة ونسيان ما خسرته فيها من مال ، لأن «الأفعى» بطلتها لا تستحق منى الاستمرار فى المعاناة من أجلها على هذا النحو .

ورغم تقديرى لإخلاصها وحسن نيتها فإن خسارة المال لم تكن أهم ما أصابنى ، بل لاتقاس إلى جانب خيبة أملى فى أعز الناس لدىَّ وما أصابنى من مهانة وإهدار لكرامتى فى هذه التجربة الخاسرة، فضلاً عن إحساسى بأنى «مغفل» عجزت عن اكتشاف خدعة مرتبة بإحكام لاستغلالى فى تحقيق مأرب مادى حقير .

وخلال مناقشتى مع زوجة شقيقى قالت لى إننى المخطىء من البداية لأننى قد اخترت الجمال والشعر الأصفر والقوام الممشوق فقط دون النظر إلى الجوهر والأخلاق والأهل والأصل والتكافؤ والالتزام الدينى . كما أنه لم يكن يليق بشاب متدين يصلى ويصوم ويقرأ كتاب الله مثلى أن يتزوج ممن لا تعرف فروض دينها ولا ترعى الله فى ملبسها وزينتها واشتدت المناقشة بيننا ، لكنها لم تستسلم ولم تسكت وقالت لى إنه يجب أن يختار الإنسان العاقل شريكة حياته بعقله بحيث تكون قريبة منه فى المستوى الاجتماعى والعلمى والعقلى ثم بالعشرة الطيبة بين الطرفين والأخلاق الحميدة يتولد الحب بينهما بعد الزواج ، وتركتنى وهى تبكى وترجونى بإلحاح ألا أضيع فرص الزواج المعروضة علىّ لأن السنين تمر والعمر يجرى ولن يكون ذلك فى صالحى .

وانصرف شقيقى وزوجته ووجدتنى حائراً أفكر فما قالته لى ولا أستطيع اتخاذ قرار صائب فى مستقبلى . لقد تزوجت وخسرت كل شىء وفقدت قدرتى على الاختيار والحكم على الأمور ، ففقدت ثقتى فى أشياء كثيرة وفى كثيرين حتى فى أقرب أصدقائى ، ولم أعد قادراً

على اتخاذ قرار بشأن مستقبلى . إننى أحس بأنك أخ لى وصديق رغم أنى لا أعرفك إلا مما أقرؤه لك . . ولهذا فإنى أضع مشكلتى بين يديك وأسألك هل الصواب هو ما قالته شقيقتى الصغرى من أن العاقل حقًا هو من يختار بعقله وليس بقلبه ، وهل أنا مسئول حقًا عما حدث لى لأنى انقدت بلا تفكير وراء قلبى وحده فى زواجى السابق .

وهل الزواج مرة أخرى هو الحل الوحيد الذى سينسينى هذه التجربة المريرة ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

أنا مع «شقيقتك الصغرى» فى رأيها حول مسئوليتك الشخصية عما تعرضت له من تجربة مؤلمة باستسلامك لنداء القلب وحده بغير استشارة العقل فى اختيارك ، أو التمهل على الأقل لفترة مناسبة لدراسة شخصية من وقعت فى حبها من الوهلة الأولى ، واندفعت للزواج منها والاستجابة لكل رغباتها كأنك منوم بتأثير حبها الجارف عليك بلا مقاومة ولا مراجعة للنفس أو الاستماع لنصيحة الأهل. فحب النظرة الأولى هو «قرين الجنون» على حد تعبير أحد المفكرين، ذلك أن الحب ليس وليد نظرة واحدة ، وإنما هو وليد تفاعل تدريجى بطىء للمشاعر والأحاسيس الطيبة تجاه الطرف الآخر وهذا التفاعل لا يتم فى لحظة واحدة ، وإنما يحتاج إلى وقت لكى ينضج على نار هادئة . أما حب النظرة الأولى فليس سوى إعجاب أو انبهار قد يفتح الباب فيما بعد لهذا التفاعل البطىء . . وقد لا يوصل إليه وما جرى لك هو خروج على هذه القاعدة . . واستثناء وارد قد يبتلى به أى شخص كما قد يبتلى الإنسان بالمرض دون سابق إنذار ، فيندفع وراء مشاعره ويسبح ضد تيار العقل وعشرات الاعتبارات الأخرى ويصيبه ما يصيب من يسبح ضد التيار من جهد وبلاء . .

ويزيد من كارثته أنه يصادف غالبًا «عقلاً» متنبهًا لدى الطرف الآخر . . فيتحكم فيه ويوجهه لما يريد بلا مقاومة .

غير أنك يا صديقى من جهة أخرى سعيد الحظ لأنك قد فقدت بطلة هذه القصة العجيبة قبل أن يتمكن منك حبها إلى الأبد . وتصبح داءك المزمن الذى لا شفاء منه ولا راحة معه حتى نهاية العمر ، فالواضح أنها لم تحمل لك ذرة واحدة من هذا الحب الجارف الذى استولى عليك منذ رأيتها للمرة الأولى ، ولو حملت لك شيئًا منه لما ضحت بك وهدمت تجربة زواجها منك بعد ثلاثين يومًا فقط حتى ولو كان ما تدعيه عليك صحيحًا أو به بعض الصحة ، ذلك أن المرأة المحبة لا تضحى بمن أحبَّت بعد أيام من الزواج لمثل هذا السبب ، وإنما تسانده وتحاول مساعدته على تخطى متاعبه وتحيطه بحبها وحنانها إلى أن ينجح فى اجتياز أزمته ، فإذا فشلت كل الجهود واضطرت للاختيار بين نداء القلب ونداء الطبيعة كان الاختيار قاسيًا ومريراً عليها وربما استجابت له بعد طول عناء .

وفى إطار احترام المشاعر وحفظ الاعتبار وليس بالتشهير الرخيص ولا بالألفاظ النابية الجارحة . وسواء كانت فكرة «المؤامرة» المسبقة لاستدراجك للزواج وتجديد الشقة وشراء الأثاث لكى يستمتع به «الشخص الآخر» بعد حين صائبة تمامًا ، أو أن فتاتك قد تزوجتك بعقلها وحده راغبة فى تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب المادية من ورائك ثم واجه الزواج الظروف غير المواتية . . فتحولت إلى نمرة شرسة وأسرعت بهدم المعبد بأعصاب قاتل محترف لا يهتز له رمش وهو يقتل ضحيته ، راضية بالفوز بما أتيح لها من غنائم خلال هذا الوقت القصير . . فإن

النتيجة واحدة وهى أنك قد صادفت للأسف من لم تحبك ومن لم تكافىء حبك لها بما يستحقه من وفاء . . وبما تستحقه أنت من تقدير ، واعتبار أنها محنة ليست وقفًا عليك ولاتنقص من جدارتك واعتبارك ، فالمشكلة فى النهاية هى مشكلة سوء الاختيار والاندفاع وراء المشاعر وحدها إلى طريق لم نعرف دروبه ولم نتلمس مواطىء خُطانا فيه . فإن كنت قد خسرت فى هذه التجربة الكثير نفسيًا وإنسانيًا وماديًا ، فإن العناية الإلهية لم تتخل عنك رغم كل ذلك ، وكان من ألطافها الخفية بك أن كشفت لك حقيقة فتاتك قبل أن تنجب منها وتتضاعف الخسائر وتتعقد الأمور ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا تحس بالمهانة وفقد الاعتبار والثقة فى النفس وفى الناس والقيم والمُثل العُليا والأصدقاء لمجرد أنك قد صادفت من لم يكن يستحق ما حملته له من طوفان المشاعر الطيبة . ومن لم يلتزم معك بما تقتضيه آداب الخلاف عند الفضلاء أن الطرف الآخر هو الأحق بأن يشعر بالدونية وفقد الاعتبار لأنه اقترف معك كل ما يتعارض مع أخلاقيات أهل الشرف والوفاء ، إذ ليس عاراً لأحد أن يخدعه الآخرون أو يستغلوه استغلالاً دنيئًا لكنه عارهم ووصمة فى جبينهم هم دون غيرهم .

فاستعد ثقتك بنفسك وبالحياة وبالناس يا صديقى وادرس أسباب فشل تجربة زواجك الأول ، وواجهها بغير خداع للنفس ثم تخلص من آثار تجربتك عليك وعلى أفكارك وشخصيتك . . وبعد ذلك تزوج مرة أخرى لا لكى تنسى هذه التجربة الأليمة ، وإنما لكى تعيش حياة طبيعية كزوج وأب وشريك فى الحياة لإنسانة أخرى تستحقك وتحرمها الآن من

حقها العادل فيك ، فالزواج إنما يُطلب لذاته ولأسبابه الطبيعية وليس لنسيان تجربة أو للتخلص من مشكلة . . فإذا سألتنى بعد ذلك عن أسلوب الاختيار الأمثل لشريك الحياة أجبتك بأن أفضل الاختيارات هو ماصادف هوى القلب ولم يتعارض مع أحكام العقل . وأن ما يليه فى الأفضلية هو اختيار العقل الذى لا يرفضه القلب أو يحتج عليه فيكون تربة صالحة لبذر بذور الحب ورعايتها حتى تتفتح أزهارها ، أما أسوأ الاختيارات فهو اختيار العقل الذى يرفضه القلب وينفر منه نفوراً راسخًا لا أمل فى تغييره . ثم اختيار القلب الذى يرفضه العقل فيجعل من صاحبه ساحة للصراع بين نداءين متعارضين ، ويحسمه العقل لصالحه فى كثير من الأحيان بعد بعض السعادة وكثير من المعاناة .

فتقبَّل تجربتك يا صديقى وارض بأداء ثمنها لأن لكل تجربة خاطئة فى حياتنا ثمنًا لابد أن نتحمل ضريبته ونقبل به ، وإن كان ثمنًا باهظًا وظالمًا لشاب طيب القلب مستقيم الطبع مثلك يرفض بإباء قبول هبة أمه له تحرجًا من أن يغتصب حقًا لأخويه حتى ولو رضيا بذلك إيثارًا له وأملاً فى مساعدته على الخروج من محنته ، ولشاب متدين يرعى حدود ربه ويستحق بكل تأكيد أن تهبه الحياة شريكة أفضل كثيراً ممن اختارها فى لحظة من لحظات ذهول القلب والعقل التى قد تصادف أى إنسان لجمالها الباهر وحده دون النظر للاعتبارات الأخرى الأكثر فانطبق عليه قول القائل : إن من أكبر أخطاء الرجل أن يعجبه وجه امرأة أو قوامها فيتزوجها «كلها» ! .

أى فيتزَّوجها لجمالها دون أن ينتبه إلى أنه إنما يتزوج أيضًا شخصيتها وأخلاقها ومبادئها وأسرتها والقيم السائدة فى وسطها العائلى مهما تنافرت مع قيمه وأخلاقه.

إنه خطأ مشترك تقع فيه المرأة أيضًا، كما يقع فيه الرجل، لكنى أرجو ألا تفهم من ذلك أنى أنكر عليك أو على أحد حبًا شريفًا لمن يرغب فى أن تشاركه الحياة، وإنما الإنكار فقط لاختيار شريكة العمر على أساس الشكل وحده دون النظر للاعتبارات الأخرى، وأيضًا للاندفاع وراء العاطفة وحدها بغير استشارة العقل.

أما الحب الإنسانى النبيل فمن ذا الذى ينكره على بشر يحس ويتألم؟

فى قصة «فى ضوء القمر» للأديب الفرنسى جى دى موباسان، راقب رجل الدين الأب مارينيان ابنة أخته وخطيبها وهما يتمشيان صامتين فى ضوء القمر الساحر.. وكلاهما ينظر للآخر فى عطف وحب واهتمام فمسَّته شاعرية الموقف وقال:

– لو لم يكن الله يرضى عن الحب الشريف.. لما أحاطه بمثل هذا الإطار من الجلال!

– مع تمنياتى لك بحياة جديدة سعيدة تمسح عنك كل أحزانك إن شاء الله.

دفعنى إلى الكتابة إليك ما قرأته فى بريد الجمعة من رسالة لأم تعجلت هدم حياتها الزوجية . ولم تصبر صبراً كافيًا على متاعب حياتها مع زوجها ، فأصبحت ابنتها بعد أن كبرت تحسابها حسابًا عسيراً على أنها لم تحتمل من أجلها، لتوفر لها حياة الأسرة الطبيعية وتحفظ كرامتها أمام صديقاتها والمجتمع ، وقرأت ردك المؤثر على هذه الأم وكلماتك الناقدة لأى أم تتعجل الانفصال عند أول محنة بعد أن أنجبت من زوجها . . وعن محكمة الأبناء القاسية وحيثياتها التى تختلف كثيراً عن منطقنا نحن وحيثياتنا ، فأردت أن أروى لك قصتى لتشير علىَّ بالرأى الصائب فيها .

أنا سيدة فى السادسة والعشرين من عمرى ، تزوجت منذ خمس سنوات وخُطبت لزوجى قبل الزواج بأربع سنوات . وكنت فى السابعة عشرة من عمرى وكان هو فى الثلاثين من عمره ، وقد توحى لك فترة الخطبة الطويلة أننى كنت على تفاهم معه ، لكن هذا لم يتحقق للأسف لأنى لم أكن أراه طوالها إلا لفترات قصيرة جداً ، هى فترات عودته فى الإجازة من عمله بالخارج ، وحتى خلال هذه الفترات لم تكن خلافاتنا معا تتوقف فى الغالب ، كما كنت أحس دائمًا بأن هناك شيئًا ما يقيم حاجزاً بيننا ، ويكمن وراء هذه الخلافات لكننى لا أعرف كنهه . وقد تسألنى ولماذا إذن واصلت الطريق معه رغم بوادر عدم الاتفاق الواضحة بينكما فلا ؛ أجد تفسيراً لذلك الآن

سوى فيما أتصوره من صغر سنى وقتها ، وفارق العمر بينى وبينه الذى كان يتيح له إقناعى بسهولة بمبررات أى تصرف . . فأتقبل الأمر وأنسى ما غضبت له .

ثم تزوجنا وأنا فى السنة النهائية من دراستى الجامعية ، وبعد زواجى بثلاثة عشر يومًا فقط عرفت حقيقة هذا الشىء الغامض الذى يقف بيننا . فلقد صحوت قبل الفجر ذات ليلة فلم أجد زوجى إلى جوارى ، وغادرت غرفة النوم لأذهب إلى الحمام فإذا بى أراه جالسًا فى ركن من الشقة يتحدث فى التليفون بصوت هامس ، ويبث إنسانة مجهولة بكلمات الحب والهيام التى يبخل بها علىَّ وأحسست بجرح غائر فى قلبى ، لكنى تحاملت على نفسى وتظاهرت بأنى لم أسمع شيئًا وعدت إلى فراشى وتظاهرت بالنوم حتى الصباح . وتكرر همس زوجى فى الفجر فى التليفون خلال أيام شهر العسل ، وأنا أحاول تجاهل الأمر حفاظًا على كرامتى . . أو ضنًا عليه بأن أُشعره أننى أعانى من جحيم الغيرة عليه . . وخدعت نفسى بمحاولة تكذيب ظنونى إلى أن عجزت ذات يوم عن كبح جماح غيرتى . . فرحت أبحث بين أوراقه وأشيائه الخاصة عن شىء يقودنى إلى معرفة هذه الغريمة المجهولة التى لم تشأ أن تعفينى من عذاب الشك حتى فى شهر العسل ، فعثرت على رسالة منها مليئة بعبارات الحب وذكريات الأيام الجميلة ، وأحسست بحنق شديد عليها وعليه وصمَّمت على أن أسحقها وأهزمها . . وبدأت أتقصى شخصيتها ولم يطل بحثى طويلاً ، فقد لاحظت منذ الوهلة الأولى أن خط الرسالة ليس غريبًا عنى . . وتوصلت إلى معرفتها بقليل من

الاسترجاع ومحاولة الربط بين الأحداث . . وعرفت أنها إحدى قريباتى التى نبَّهتنى أم زوجى نفسها منذ فترة إلى ملاحظتها لاهتمام ابنها بها خلال فترات إجازاته فى مصر بأكثر من اهتمامه بى ، وتذكرت تحذير والدته لى منها ومطالبتها لى بأن أدافع عن زوجى وأحميه من نفسه ومن نزوات الآخرين ، وقررت الدفاع عن حياتى واختيارى الذى استهلك 4 سنوات من صباى وشبابى قبل الزواج ، وحاولت جاهدة أن أستعيده بحبى وارتباطى به . . لكنه كان مصممًا على الشرود ، وتأكدت من ذلك حين طلب منى عدم الإنجاب فى بداية حياتنا الزوجية ، ورغم شكوكى فى أسبابه . . فلقد وافقته على ذلك . . ووافقته على كل ما كان يطلبه منى . . ولم أدعه يسمع منى فى بداية حياتنا سوى كلمة حاضر وتعجبت من أن هذه الكلمة التى تريح الجميع . . كانت تستثيره فى بعض الأحيان فيثور علىّ ثورة هائلة ويتهمنى بالسلبية . . ومع ذلك فلقد احتملت وأصبحت أيام الإجازة التى يقضيها معى عذابًا من عذاب الجحيم ، وكنت أصبر عليها إلى أن تنتهى ويرجع عائدًا إلى مقر عمله . . وأغادر بيت الزوجية لأعيش مع أسرتى وأبى الذى يخفف عنى الكثير .

ومضت حياتى معه على هذا النحو . . فترات انتظار طويلة . . ثم إجازة قصيرة يعود فيها وأرجع إلى بيت الزوجية ، فلا تمضى أيام منها حتى تبدأ المعاناة وسوء المعاملة . . إلى أن ضقت بصبرى بعد فترة . . فقررت أن أتخلص من سلبيتى وأصبح إيجابية معه . . ففكرت طويلاً ثم طلبت منه الطلاق خلال وجوده فى إحدى إجازاته . . وفوجئت به يهتز أمام طلبى الذى لم يتوقعه . . ثم يصفعنى بعصبية كأننى شىء من «ممتلكاته» الخاصة لا يحق له أن يعترض على تصرفاته .

وصممت على طلبى . . خاصة بعد أن تأكدت أن علاقته بالأخرى مازالت قائمة رغم محاولاتى العديدة ، ولم أطق كتمان معاناتى أكثر من ذلك فرويت كل شىء لأبى ووافقنى على الطلاق ، وانتهت إجازة زوجى وسافر إلى عمله واعداً بأن يتم الانفصال بمجرد عودته من الإجازة التالية ، وبعد شهور رجع مبديا الندم على ما جرى بيننا وراغبًا فى استئناف حياتنا معاً على أساس جديد من الحب والتفاهم . . وكان برهانه على صدقه وعلى أنه أنهى علاقته بالأخرى ، هو إعلانه لى عن رغبته فى الإنجاب منى فى أسرع وقت . ووافقت على العودة إليه ، بل وأقنعت أبى بجهد كبير حتى قَبِلَ عودتى إليه رغم معارضته .

ورجعت إلى حياتى معه . . لكنى وأعترف لك بذلك عدت إليه وأنا خائفة منه ، مم كنت أخاف . . وماذا كان يتملكنى من وساوس؟ لا أعرف ؛ لكنى رغم ذلك كنت أنام إلى جواره فى الفراش ، وأنا أحس بأنه من المحتمل جدا أن يقتلنى ليتخلص منى !

وبسبب مخاوفى هذه . . ولرغبة مكتومة فى أعماقى فى الانتقام منه أردت أن ألقنه درسًا لأوهمه بأن الله سبحانه وتعالى يعاقبه على ما فعل بى بحرمانه من الإنجاب ، فرحت أتناول أقراص منع الحمل دون علمه . . ومضت الشهور بغير أن أحمل بالطبع . . فبدأ القلق يساوره وأنا أراقب قلقه بسرور خفى . . ثم بدأ يشك فى قدرتى على الإنجاب ويطالبنى بعرض نفسى على الطبيب . . فاستجبت لطلبه بترحيب ، وجاءت النتائج مؤكدة قدرتى الكاملة على الإنجاب ، وازداد قلقه وحزنه !

وسعدت أيضًا بذلك سعادة خفية ، ومضت شهور أحسست خلالها أن زوجى قد تغيرت معاملته لى إلى حد كبير ، فأصبح أكثر رقة وحبًا وحنانًا بى . وبعد أن كان يعارض فى عملى وجدته يسمح لى به ، فراجعت نفسى ووجدت من الحكمة أن تستمر الحياة معه . . فقررت الإنجاب منه وتوقفت عن تناول أقراص منع الحمل ، وأقبلت على حياتى معه بحب وحنان . لكن الشهور مضت ولم يتحقق الحمل أيضًا . . وانتقل القلق الذى أردت أن أصدِّره له فى السابق إلىَّ أنا هذه المرة . . وذات يوم كنت أرتب له بعض أوراقه فوجدت بينها تحاليل طبية خاصة به لا أعرف لماذا شعرت بأن بها شيئًا يجب أن أعرفه . . فأخذت هذه التحاليل وأرسلتها إلى الطبيب ليراجعها ، فأكد لى أن زوجى ضعيف الإنجاب . . وأنه قد يستطيع أن يُنجب ولكن بعد فترة علاج ضرورية . واهتز كيانى حين عرفت ذلك . . وندمت على الشهور التى تناولت فيها أقراص منع الحمل دون ضرورة . . وتذكرت قوله سبحانه وتعالى ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ وأحسست أن الله قد رد مكرى إلى صدرى وانتظرت بقلق بشائر الحمل شهرًا بعد شهر . . فلم تظهر ، واستبد بى القلق عامًا أو أكثر إلى أن أحسست ذات يوم بتعب مفاجىء وبشَّرنى الطبيب بأنها بوادر الحمل ، وسعدت به وانتظرت عودة زوجى فى الإجازة بلهفة لأزفَّ إليه الخبر ، وعاد وخُيل إلىَّ أنه قد سعد به كثيرًا ، لكنه لم تمض أيام من الإجازة حتى عاد لسابق عهده معى فى سوء المعاملة ، وتطورت الأمور بيننا ذات مرة فضربنى وأنا حامل ، وطالبنى بالتوقف عن العمل والبقاء فى البيت لانتظار القادم الجديد ، ثم رجع

لمقر عمله . . وجاءت لحظة الولادة وهو غائب عنى . . ولم يحضر ولادتى معى سوى شخص آخر هو أبى وليس زوجى .

وجاء ابنى ففرحت وشغلت به . . وأصبح رفيقى فى وحدتى الطويلة فى انتظار زوجى ، وبلغ ابنى من العمر الآن عامين مضيا بكثير من العناء وقليل من السعادة ، ثم صدمت بوفاة أبى منذ شهور فحزنت عليه حزنًا عميقًا ، وتوقفت لأراجع حياتى مع زوجى ، فاكتشف أننى أعيش وحيدة وليس إلى جوارى زوج يشاركنى شئون الحياة حلوها ومرها . . فزوجى لا يشاركنى فى أى أمر مهم من أمور الحياة . . فلقد أنجبت ابنى وهو غائب . . ومات أعز الناس لدىَّ «أبى» وهو غائب ، ولم يكن بجوارى ليخفف عنى افتقاد الرجل الوحيد الذى كنت أعتمد عليه فى حياتى ، والذى كان يفهمنى جيداً ويقوم بكل شئونى ولا ينسى أبداً عيد ميلادى ، ويُتْحفنى بنوع الطعام الذى أحبه من حين لآخر ، ويقدم لى حلوى المولد النبوى الشريف . . وكعك العيد . . وتورتة عيد الميلاد ، قد تكون أشياء صغيرة يتهمنى البعض من أجلها بالتفاهة ، ولكن وما الحياة فى مجموعها إلا هذه الاهتمامات الصغيرة والمجاملات الرقيقة التى تعكس اهتمام الإنسان بمن يحبه . . وزوجى فى كل ذلك كان غائبًا دائمًا ولا يهتم إلا بعمله فى الخارج .

إننى وحدى دائمًا ياسيدى فى كل المناسبات السعيدة . . والحزينة على السواء . . وأحضر وحدى المناسبات الاجتماعية ، وفى إحداها تعرضت لموقف أثار شجنى وجدَّد تأملاتى . . فلقد كنت أحضر فرحًا عائليًا . فرآنى أحد المدعوين وأبدى رغبته فى أن يتقدم لخطبتى ، وهو لا يتصور

أننى متزوجة ! ولا ذنب له في ذلك لأن زوجى كالشبح الذى لا يراه أو يتذكر أحد أنه رآه فى مجتمعنا العائلى .

لقد جددت وفاة أبى مخاوفى وهواجسى . . وافتقدت برحيله السند الوحيد لى فى الحياة ، وتفككت أسرتى بعد رحيله وظهر منها أسوأ ما كان فيها ، وما كان وجود أبى يحجبه ويمنعه من الظهور ، ولولا وجود أبى إلى جوارى طوال السنوات الماضية لما واصلت الحياة مع زوجى ، ثم رحل عن الحياة ، فظهرت الحقيقة صريحة أمام عينى وهى أننى لم أعد أحتمل الحياة مع زوج غائب على الدوام ولا أحتمل سوء طباعه معى . . ولا أحتمل رفضه السماح لى بالعودة للعمل مع أنى أقيم مع أسرتى فى بيت واحد وسأترك طفلى معها خلال عملى ، وأنا فى حيرة من أمرى هل أواصل الاحتمال . . أو أتوقف وأطلب الانفصال وأصر عليه . . وهل إذا فعلت ذلك سوف يتفهم ابنى الوحيد حين يكبر دوافعى للانفصال عن أبيه ، ويلتمس لى العذر أم أنه كما قلت فى ردِّك للأم كاتبة الرسالة السابقة ، سوف يحاكمنى على أنى قد حرمته من الحياة الطبيعية بين أبوين لأسباب تخصنى وحْدى ، وسيكون منطقه فى لومه لى وحيثيات حكمه علىّ مختلفين تمامًا عن منطقى وأسبابى . . ولا أمل فى أن يفهم الأبناء الأسباب المتعلقة بالمشاعر والعواطف .

إن زوجى يحب ابنه حبًّا شديدًا . . ومن حقه علىَّ أن أعترف له بذلك ، لكنه لا يهتم بى . . ولا يشاركنى فى شىء ولا يعنيه من الحياة أكثر من عمله فى الخارج وجمع النقود ، فهل توافقنى فى رغبتى فى الانفصال عنه ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

أنت يا سيدتى فى حالة ضعف نفسى شديد الآن بسبب حزنك على أبيك وافتقادك لكل ما كان يمثله فى حياتك من أمن وأمان وعطاء مخلص لك بلا حدود .

والإنسان فى حالة الحزن الشديد أو الأزمات النفسية الطارئة لايكون قادراً على التفكير العقلانى الهادىء ، الذى يتيح له اتخاذ القرارات الصائبة بشأن الأمور المصيرية فى حياته ، لهذا قيل بحق إن الحزن والغضب من أعداء التفكير السليم ، الأول لأنه يهوّن على الإنسان بعض ما يتهيبه أو يخشى تأثيره على حياته بدعوى أن أى شىء آخر فى الحياة مهما كان مراً لن يضارع فى قسوته ما فقده الإنسان وحزن عليه ، وهى حالة وجدانية مؤقتة لا تدوم ، وحين تنتهى كما ينتهى كل شىء فى الحياة فى وقته المعلوم يكتشف الإنسان أنه قد فرَّط متأثراً بحزنه فيما قد لا يفرط فيه بسهولة بعد هدوء الأحزان . والغضب أيضًا من أكبر أعداء التفكير السليم ، لأنه يشل العقل ويُرخى قبضته على الانفعالات العنيفة ويعمى البصيرة فيدفع الإنسان لاتخاذ ما يندم عليه من قرارات انفعالية حين يسترد صفاء تفكيره وهدوء نفسه فيما بعد ، لأن الغضب كما قال الأديب

الايرلندى العظيم برنارد شو «ريح هوجاء تطفىء شمعة العقل» . والحزن الشديد كذلك فى تقديرى . وفى الريح الهوجاء لايجوز لعاقل أن يفكر فى أمور حياته المصيرية ويتخذ بشأنها قرارات حاسمة متعجلة وإنما تطالبه الحكمة بأن يحتمى من الريح الهوجاء بأى ملجأ . . ثم ينتظر هدوء العاصفة . . ليفكر فى شأنه باتزان . . وهذا ما أنصحك به فى البداية . . وهو أن تؤجلى اتخاذ أى قرار يمس حياتك ومستقبل طفلك الوحيد إلى أن تتخلصى من آثار محنتك النفسية الحالية وتستردى سلامك واطمئنانك بعد حين . .

وحين تفعلين ذلك فقد يكون من المفيد أن أضع أمامك بعض النقاط التى تساعدك على التوصل إلى قرار صائب بشأن حياتك القادمة بإذن الله . فأما عن الزوج الغائب عن زوجته باستمرار فى كل شئون الحياة ، فهذا الوضع وإن كان خاطئًا إلا أنه لن يستمر إلى مالا نهاية لأن العمل فى الخارج رحلة قصيرة مهما طالت . ولابد أن يعود إليك زوجك ذات يوم قريب ويجتمع شملكما معا ، وتفرض عليه الحياة وخبرة السنين مشاركتك فى كل أمور الحياة أو معظمها . وإذا كنت أفضل دائمًا أن يجتمع شمل الأسرة فى الحل والترحال مالم تقف دون ذلك موانع أقوى من إرادة رب الأسرة ، فإن غياب زوجك عنك هو فى النهاية وضع مؤقت ، ولايجوز اتخاذ قرار مصيرى يمس حياة طفلك استنادًا إلى وضع لن يدوم ومن الميسور تغييره ، إما باللحاق به فى مقر عمله أو بالصبر عليه إلى أن تنتهى رحلة الغربة فى يوم ليس ببعيد .

وأما عن ابنك الذى تتخوفين من «محاكمته» لك فى المستقبل عن مسئوليتك عن حرمانه من الحياة المستقرة بين أبويه بسبب اعتبارات خاصة بك ، فإن هذا التخوف نفسه أكبر دليل على أنك من أصحاب الضمائر الحية الذين لايبيحون لأنفسهم أن يطلبوا سعادتهم الشخصية على حساب تعاسة أعزائهم . والضمير هو حارس الفضيلة دائمًا وكابح الرغبات والنزعات الفردية التى تتجاهل اعتبارات الآخرين ومصلحتهم. ومادام صوته حيًا داخلك فلا خوف على ابنك من التضحية بسعادته واستقراره لحساب اعتباراتك الخاصة ولا خوف عليك من محاكمته لك فى المستقبل باذن الله ، خاصة أنك تعرفين جيدًا أنك قد تحملت فى بداية حياتك الزوجية وقبل أن تنجبى طفلك ما كان يعطيك الحق فى طلب الانفصال عن زوجك بغير أن يلومك أحد وبغير أن يكون لانفصالك عنه ضحية صغيرة ، لكنك لم تفعلى وتجاوزت ما واجهك من مشاكل وأنجبت طفلاً بريئًا ليس من العدل أن يتحمَّل تبعات عودتك لزوجك حتى على غير إرادة أبيك وتبعات التوقف لمراجعة النفس وإعلان العجز عن مواصلة الاستمرار بعد المجىء به إلى الحياة . وإذا صح تقديرى فإنك لن تقدرى على التمسك بالانفصال عن زوجك إلى النهاية ، لكنك فيما أتصور بالإضافة إلى ظروفك النفسية بعد رحيل أبيك ، راغبة فى العودة للعمل وغاضبة لرفض زوجك السماح لك به . مع أن هذا الرفض نفسه قد يكشف عن جانب طيب فى شخصيته على عكس ما تتصورين ورغم إدانتى واعتراضى الشديد على كثير من تصرفاته معك خاصة فى بداية الزواج ، ذلك أنه لايطلب منك الامتناع عن العمل مؤقتًا لتتفرغى لرعايته

هو . . لأنه غير مقيم معك ، وإنما لكى تتفرغى لرعاية طفلك الذى يحتاج إليك بكل تأكيد فى بواكير عمره ، ومن السهل أن تصبرى عن رغبتك فى العمل إلى أن يشتد ساعده ثم تخرجين للعمل إذا رغبت بغير اعتراض من زوجك .

أما ما رويته لى عن خلافاتك مع خطيبك طوال سنوات الخطبة الأربع . . واستكمالك لمشروع الزواج معه رغم ذلك وعن ارتباط زوجك بك وهو مشغول القلب بأخرى ، وخيانته لك بعد أيام قليلة من شهر العسل ، فليس لى من تعليق عليه سوى أنى أكاد أشك أحيانًا أنه ليس بين الكائنات الحية جميعها من يصنع بحياته فى بعض الأحيان ما يفعله الإنسان بها من دمار وخراب . . ومعاناة ما كان أسهل عليه أن يتجنبها ويجنِّب الآخرين مقاساتها معه ، فهو فى حدود علمى الكائن الوحيد الذى يمضى أحيانًا فى طريق ليس راغبًا فى أعماقه فى المضى فيه للنهاية ، ومع ذلك فهو يسير فيه بإرادته وليس مدفوعًا بقوة لا حيلة له فيها ، كما أنه بالتأكيد الكائن الوحيد بين كل الكائنات الذى قد يهب قلبه لأنثى ثم يختار فى نفس الوقت أنثى أخرى ليسكن إليها ويقيم معها عشه ، وهو مالا تفعله للعجب الطيور بأنواعها ولا الحيوانات الكاسرة أو الأليفة ولا حتى الأسماك مع أن الله قد ميَّزه عن كل هذه الكائنات بالعقل . . والقدرة على استرجاع دروس التاريخ . . وبالإرادة الحرة التى غرسها فى روحه وأمره بأن يختار بها لنفسه ما فيه خيره وخير الآخرين ، أما ما حدثتنى عنه من انتقامك الخفى من زوجك بالامتناع عن الحمل منه ، رغم تلهفك فى البداية عليه ، ثم قلقك وخوفك من تأخره بعد أن

رغبت فيه ، فلقد ذكَّرني بعبارة موحية جاءت في رواية «سيلاس مارنر» للروائية الإنجليزية جورج إليوت على لسان أب أنكر طفلته الصغيرة في البداية وتجاهلها وتركها تنشأ في رعاية رجل غريب حتى لا يؤثر ذلك على وضعه الاجتماعي . ثم تزوج من زوجة لائقة به اجتماعيًا فحرمه ربه من الإنجاب منها وضاق بعد أن تقدم به العمر قليلاً بوحدته فأراد أن يسترد ابنته بعد أن أصبحت غادة يافعة ؛ فإذا بها هي من تُنكره هذه المرة وترفض العودة إليه فقال متعجبًا ومتأسيًا :

أردت أن أتظاهر بأني لم أنجب أطفالاً قبل زواجي حرصًا على وضعي العائلي ، فعاقبني ربي بالحرمان من الإنجاب حين تزوجت من الزوجة الراقية . . وبالحرمان حتى من ابنتي حين أردت استردادها !

فاشكري ربك يا سيدتي إن كانت تذكرته لك بأنه جلَّ شأنه «خير الماكرين» . . هينة وبسيطة ولم تتجاوز شوكة صغيرة وخزتك بالقلق والخوف عامًا وبعض عام فقط . . ثم منَّ عليك بطفلك الجميل وهدايا السماء غالية ثمينة دائمًا يا سيدتي ، وهي تستحق منا ألا نفكر في حياتنا بمعزل عن التفكير الصائب والعادل في حياتهم ومستقبلهم ، ومن يعرف ذلك ويقدره حق قدره يرشده ربه دائمًا إلى ما فيه خيره وصلاح أمره وخير أعزائه - هدية السماء له - وصلاح أمرهم في الحاضر والمستقبل بإذن الله .

أريد أن أروى لك قصة أسرتى الصغيرة وأستشيرك فى أمر مهم . لقد مات أبى - رحمه الله - وكان تاجرًا وترك وراءه زوجة فى الخامسة والأربعين من عمرها وابنا أكبر فى الحادية والعشرين من عمره وثلاث بنات كبراهن فى التاسعة عشرة وصغراهن فى العاشرة من عمرها . وأنا يا سيدى إحدى هؤلاء البنات الثلاث ، لكنى لن أقول لك من أنا قبل أن أكمل لك القصة . وكانت أمى ربة بيت طيبة عاشرت أبى بالمعروف وأحبته واحترمته دائمًا ، وحزنت عليه حين مات ، حتى هدَّها الحزن ثم تماسكت لكى تحمينا وتستكمل معنا رسالتها . .

أما شقيقنا فقد كان قد تخرج قبل شهور ويحلم بالسفر إلى أوروبا ليعمل هناك ويبنى مستقبله ، ووعده أبى بالموافقة على شرط أن يرجع فورًا ، ويتحمل مسئوليته عن أمه وأخواته البنات إذا جاء الأجل لأبى وهو فى الخارج . . وكان أبى فى الخامسة والخمسين من عمره ممتلئاً صحة وشباباً ، فوافق أخى على رغبته هذه مطمئناً إلى رجولته وإحساسه بالمسئولية ، وآملاً أن يزهد فى التجربة بعد شهور ، ويعود ليعمل معه . وبدأ أخى إجراءات السفر وحصل على التأشيرة وجواز السفر وأحضر له أبى الدولارات . . لكنه ظل لسبب أو لآخر يعطل سفر شقيقنا . . ويؤجله من شهر إلى آخر إلى أن فوجئنا بوفاته ، فكأنما كان يحس بدنو الأجل .

وتنازل أخى عن أحلامه على الفور ، وواجه مسئوليته الثقيلة عن أم و 3 شقيقات ، وأدار عمل أبى ففوجىء بتركة مثقلة بالديون والضرائب ، واكتشفنا جميعًا أننا لسنا أثرياء كما كنا نتوهم ونحن فى حماية أبى . . وإنما نحن من هؤلاء الناس الذين تحسبهم أغنياء من التعفف ، وهؤلاء حالهم أصعب كثيراً من حال بسطاء الناس من الفقراء ، فلا هم أغنياء فيقوون على مواجهة متطلبات مظهرهم وحياتهم ولا هم بسطاء فيتقبلون مساعدة الناس لهم بلا حرج، أو أزمات نفسية .

وكان هذا هو حالنا بعد وفاة أبى بعام واحد ، فقد جفَّت مواردنا التى استنزفتها الديون . . وقلَّ دخلنا كثيراً بسبب انكماش التجارة بعد الديون والضرائب . . وأصبح ما يأتى منها لايسد رمقنا إلا بصعوبة شديدة وأخى يصارع الحياة وحيداً بلا سند ولا معين . وأمى ونحن نبكى له وعليه . . وهو يواجه الدُّنيا القاسية ، وهو كما قالت أمى «عود أخضر» لم يكتمل نموه بعد ، وقد اشتدت عليه الضغوط حتى كان يبيت الليل مؤرقا تسح دموعه لأن عليه فى الصباح شيكا لابد من دفع قيمته وإلا قدِّم للنيابة . وقد عرف طريق النيابة والمحكمة للأسف ، وعشنا أيامًا سوداء كئيبة بعد أن كان بيتنا لا يعرف إلا البهجة والسرور .

وقد جرى كل ذلك ونحن نتكتم ظروفنا عن الأهل والأقارب والجيران . . وإن كانت «رائحة الضيق» لا يحبسها شىء وزاد من معاناة شقيقى أن كبرى الشقيقات الثلاث كانت مخطوبة قبل وفاة أبينا بشهور ، وخطبها خاطبها وهى ابنة تاجر مستور الحال ، ويجب أن تزف إليه

بما لا يجرح كرامتها أو يرخِّصها فى عين زوجها ، وأن الأخت الوسطى كانت فى إحدى الكليات العملية . . وتحتاج إلى مصاريف كبيرة للكتب والدروس الخصوصية وخلافه .

أما الأخت الصغرى فقد كانت دلوعة أبيها التى لا يرد لها طلبًا ، ومات أبوها وهى طفلة فحرص أخى على استثنائها بقدر الإمكان من التقشف الذى فرضته الأسرة على نفسها ، فنشأت جريئة تطلب ما تريد بغير حرج أو تقدير لأى ظروف . . وتغضب إذا لم يستجب لها أحد . . وفى هذا العناء عاش شقيقى سبع سنوات طويلة قاسية غيَّرت كل شىء فى شخصيته وحياته ، فبعد أن كان شابًا مرحًا أنيقًا يتفجر صحة وحيوية قبل وفاة أبيه ، استقرت الكآبة والهموم فى وجهه . . وسقط شعره وتحول العود الأخضر إلى عود جاف متجعد . . واكتسب عادة سرعة التأثر بأى شىء ، فكان لا يكاد يمضى يوم لا تَراه فيه أمى أو إحدى البنات خلسة ودموعه على خديه وهو مختل بنفسه فى غرفته . . كما بدأ يعانى من آلام شديدة فى معدته ويحس دائماً بالغثيان والرغبة فى التقيؤ ، وكثيراً ما صحونا فى الليل على صوته وهو يفرغ ما فى معدته فى الحمام .

وبعد إلحاح شديد من أمى عرض نفسه على الطبيب وعرف أنه قد أُصيب بقرحة فى المعدة . . وكان هذا هو الثمن الذى دفعه من صحته لإنجاحه فى تحمل المسئولية وتسديد الديون . . وتزويج الأخت الكبرى بأقصى ما يستطيع من إمكانيات مشرفة إلى جانب أدائه لكل تكاليف دراسة الأخت الوسطى . . وتعليم الأخت الصغرى التى رفضت دائماً التنازل عن أى مطلب من مطالبها ، وأصبحت تمثل له أصعب مشاكله

بعد أن بدأ يلتقط أنفاسه ويجنى ثمار تعبه . . ففى سن السابعة عشرة سمع أنها تلتقى بطالب جامعى مستهتر ومتعثر فى دراسته وسمعته سيئة . . وواجهها . . وصرخ فى وجهها وضربها للمرة الأولى فى حياته . . وبدأ يضيِّق عليها فى الخروج والدخول ويترك تجارته ليراقبها . . ويبكى من القهر حين يعرف أنها لم تلتزم بما وعدته . . وأصبح الاشتباك بينهما شبه يوم ، وهى لا ترتدع ولا تخاف . . ورسبت فى الثانوية العامة بعد أن كلَّفته فى الدروس الخصوصية الكثير ، وأحكم رقابته عليها فى العام التالى وجاءها بالمدرسين فى البيت حتى لا تخرج ، فنجحت بصعوبة والتحقت بمعهد عالٍ .

وبدأ يستريح قليلاً ففوجىء بها تجىء إليه بهذا الطالب ليخطبها دون أهله . ورفضه شقيقى وقال له بصراحة إننى لا أوافق عليك لسوء سمعتك ولأنك متعثر فى دراستك ، وأنا لا أرتاح إليك لكنى مستعد لأن أغيِّر رأيى فيك إذا أصبحت إنسانًا جادًا وأكملت دراستك . . وجئت مع أهلك لخطبة أختى . وهاجت الشقيقة الصغرى على شقيقها . . وأعلنت بكل وقاحة أنها سوف تتزوجه سواء أكمل دراسته أم لم يكملها . . وخيَّم النكد والشقاق على بيتنا ، وازدادت نوبات القىء والغثيان عند شقيقنا وأمى ترجوه أن يرحم نفسه وصحته ويدعها للأيام «تربيها» . . وهو يقول إنها أمانة فى رقبته لابد أن يحافظ عليها .

واستمر الصراع وطال حتى أننا لم نشعر بأى فرح حين خُطبت الشقيقة الوسطى وأصبح كل همِّنا هو أن نكتم عن خطيبها فضائحنا ،

واقترب شقيقى من الثلاثين ولم يخطب ولم يتزوج ، ويقول إنه لن يستريح إلا إذا زوَّج الأخت الصغرى - قبل الوسطى - لأنها مشكلة حياته . وبعد ذلك سوف يبحث عن نفسه ، وخلال ذلك فوجىء بالأخت الصغرى تعلن أنها ستقطع دراستها بالمعهد ، وتتزوج من فتاها الذى قطع دراسته بعد ثمانى سنوات وعمل فى إحدى دول الخليج بوظيفة صغيرة بواسطة خاله المقيم هناك . . وانفجرت المشاكل من جديد ، وبعد أن أعيت الأخ الأكبر الحيل معها أعلنها أنه موافق على زواجها منه ولا يطلب منها سوى إكمال دراستها التى لم يبق على انتهائها سوى عامين فقط ثم اللحاق بزوجها . . فأصرت على أن تؤجل الامتحان عامًا وتقطع الدراسة وتتزوج . . وبدلا من أن تتبين وجه الحكمة فى نصيحة شقيقها لها اتهمته أمام أمه وشقيقته بأنه يعرقل زواجها حتى لا تطالبه بجهاز وفساتين العروس . . الخ بل واتهمته - قطع الله لسانها - بأنه اغتال حقها فى ميراث أبيها وطالبته به لكى تتزوج وتسافر !

فما إن سمعت الأم والشقيقتان ذلك حتى صرخن فيها وبكين ونهضن إليها ليكتمن صوتها ، فوقفت كالنمرة الهائجة وهددت بأنها ستلقى بنفسها من النافذة إذا اقترب منها أحد . وانعقد لسان شقيقنا من التأثر ثم قال لها ذاهلاً بعد حين : افعلى بنفسك ما تريدين فإنى برىء منك إلى يوم الدين . . أما الميراث فقدرى نصيبك منه وسأعطيه لك . . وليفعل الله ما يريد .

وطلبت الشقيقة المتمردة مبلغاً محدداً لشراء ما تحتاج إليه من فساتين وملابس فأعطاها شقيقها أكثر مما طلبت ، لكنه للمرة الأولى فى حياتنا

طلب من أمى أن تستكتبها ورقة بتسلمها لهذا المبلغ ، وبأنها قد حصلت على نصيبها من الميراث ولم يعد لها فى ذمته شىء . وكتبت الورقة وشهدت عليها الأم والشقيقتان وتزوجت الشقيقة الدلوعة فتاها المحبوب بالتوكيل ، وسافرت إليه بفستان الزفاف الأبيض ومعها حقائبها محمَّلة بالملابس الفاخرة وتم كل ذلك فى جو كئيب . . وشقيقنا صامت لايتكلم . . وقد تحمَّل مسئوليته فى عقد زواجها وهو حزين . . وكلما اقترب موعد سفرها ازداد اكتئابًا وانطواء وزادت نوبات القىء والغثيان . . والأم والشقيقتان يلْححن على الفتاة المدللة أن تعتذر لشقيقها وتسترضيه قبل سفرها ، فلم يخرج منها سوى أن صافحته وهى مسافرة فى برود ولم تكلِّف خاطرها أن تسترضيه بكلمتين !

وبعد سفرها بأسبوعين دخل المستشفى لإجراء عملية القرحة وكتبت إليها شقيقتها لكى تكتب إليه خطابًا طويلاً تعتذر له فيه أو تتصل به تليفونيًا ، فلم يخرج من يدها إلا خطاب قصير من عدة سطور تقول له فيه سلامتك ! ! فانسد قلبه تجاهها بعد صبر طويل ولم يرد عليها . وأصبح يتجنب رفع سماعة التليفون حين تتصل بالأسرة .

وبعد عام من سفرها تزوجت الشقيقة الوسطى فى هدوء ولم تحضر الصغرى فرحها لأن ظروف زوجها المادية لم تسمح ، وتزوج شقيقنا من إحدى قريباتنا بعد قليل بلا فرح ولا احتفال ، كأنما كُتب عليه ألا يفرح بشىء منذ وفاة أبيه ، وخاصة بعد خروج شقيقته الصغيرة على طاعته وإيلامها له ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت الشقيقة الصغرى مرة أخرى مشكلة الأسرة كما كانت منذ بلغت سن الصبا . . فقد بدأت أفلام

المغارك لا تتوقف بينها وبين زوجها المحبوب ، بما فيها من ضرب وكسر وجرح وبهدلة فى الشرطة هناك ولجوء إلى بيوت الأصدقاء . . ورجوع إلى مصر ببيع ذهبها أو على نفقة خال الزوج حيث ترفض العودة لبيت الأسرة خوفًا من مواجهة شقيقها ، وتنزل ضيفة عند شقيقتها الكبرى بالأسابيع ثم يعود يصالحها زوجها بالتليفون ، فترجع إليه كأن شيئًا لم يكن . . ويتكرر الفيلم بنفس تفاصيله بعد عام وكل مرة تعود فيه تخلع حذاءها أمام شقيقتها وتضرب به نفسها فوق رأسها لأنها لم تسمع نصيحة شقيقها - وتقول لماذا لم تمنعونى بضرب الحذاء مما فعلت !

وشقيقنا يسمع بذلك فلا يتكلم ولا يعلّق ، ويتألم جداً كلما جاءت لمصر ورفضت المجىء إلى البيت ، ويقول فى حسرة إن الدم لا يتحول إلى ماء إلا عند أولاد الحرام . . ونحن لسنا كذلك فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد زاد الطين بلَّة أنها أنجبت من زوجها طفلاً ، وأنه لم يتخل عن استهتاره فى الغربة . . ففُصل من عمله أكثر من مرة بسبب إهماله وعدم التزامه بالمواعيد ، وفى فَترات تعطله تنشب بينهما المعارك على ذهبها ومصوغاتها ، ويستولى على ما يشاء بالقوة ويتظاهر أمام أهله بأنه ناجح فى عمله ، فيرسل لأبيه مثلاً هدية وهو متعطل وبنقود من ثمن ذهبها حتى يوهمه أنه يعمل ، مع أن خاله يقيم فى نفس المدينة ، وقد ساعده على الالتحاق بأكثر من عمل . ويحرص على مظهره أمام من يعرفهم هناك ويشترى لنفسه الملابس وزوجته وطفله لا يجدان ما يسدّ الرمق ، وقد بلغ بها الحال أن عانت الحرمان والجوع هى وطفلها أكثر

من مرة لولا مساعدات خاله له ، وهو لا يريد أن يستقيم ويحرص على لقمة عيشه ، وإنما يسهر حتى الصباح فى بيوت أصدقائه ويتأخر عن عمله فيفصل إلى جانب أنها تعيش معه فى سكن شعبى لا يختلف عن سكنى القرى ، وقد أنذره خاله فى المرة الأخيرة بأنه لن يتدخل لإنقاذه إذا فقد عمله الحالى الذى لا يوفر له إلا الكفاف . . وسوف يفقده عاجلاً أو أجلاً لأنه مستهتر ، وقد استولى زوجها أيضاً على معظم مصاغها بالضرب والبهدلة فى فترات التعطل ، ولم يبق منه إلا شىء قليل تخفيه لدى أسرة صديقة لكى تستطيع شراء تذكرة الطائرة إذا ساءت الأحوال أكثر ، وهى رغم مرور 5 سنوات لا تزال مقيدة بالمعهد بعد أن قدمت اعتذارًا عن عدم دخول الامتحان أكثر من مرة ، ودخلته خلال وجودها بمصر مرة ونجحت والعام القادم هو فرصتها الأخيرة لدخوله . وقد يئست تمامًا من انصلاح أحوال زوجها لكنها تقاوم - بكل ما تملك من قوة - العودة خائبة بطفلها ومواجهة شقيقها ، وتريد العودة لدخول الامتحان وللبحث عن حل لمشكلتها وزوجها لا يمانع فى ذلك بل إنه يطالبها بالعودة لمصر حتى يتخلص من تكاليفها . . ويسكن فى غرفة مشتركة مع صديق له . . ويوفر إيجار السكن العائلى الذى لا يحتمله مرتبه . .

وهى تريد ألا تعود إلى بيت الأسرة خوفًا من شقيقها . . وزوجها لا يضمن لها أن تستريح فى بيت أبيه، بل إنه لا يضمن لها أن يقبل إقامتها عنده وقد تزوجها وقطع دراسته من أجلها على غير رغبة أبويه ، وسوف يغلقان غالباً بابهما دونها . . وحتى لو قبلاها فمن أين ستعيش

وهـى لا تضـمن أن يفى زوجهـا بالتزاماته ويرسـل لها المبلغ الشهرى الذى وعـد به . . وأنت فى النهـاية ياسـيـدى تريد أن تعـرف من أنا مـن هؤلاء الشقـيقـات الثلاث وقد كـرهت بالتأكـيد خـلال قـراءتك لرسالتى تلك الأخت الصـغرى الجاحدة التى تنكَّرت لشقـيقـهـا بعدما عـانى من أجل أسـرتـه ، وتتمنى ألا تـكون قارئتك هى هـذه الأخـت الجاحدة لكنها أنا بعينها للأسف ، وقد علَّمتنى الأيام ما لم أكن أعلم . . وعرَّفتنى حكمة شقيقى وبعد نظره وأريد أن يصفو الجو بينى وبينه . . وألا يتخلى عـنى مهما كنت قد فعلت معه ، وأريد أن يعود أبـًا وأخـًا كما كـان ، ولكـن دون شماتة ودون ذل أو تذلل لأنى قد شبعت ذلاً وإذلالاً ومهانة خلال 5 سنوات من الزواج والغـربة ، رأيت فـيـهـا مـا لـم أكن أتخـيل وجـوده فى الدُّنيا ، وأريدك أن تنصـحنى ماذا أفعل فى حياتى مع زوجى . . وكيف أعـود إلى رعـاية أخى لى كـمـا أريدك أن تتوسط بينى وبينه وتقـول له إننى قـد تعلمت الدرس . . وأريده أن ينسى كل مـا كـان بيننا وأن أعـود أختـًا صغرى له فهل تفعل ذلك أو بماذا تنصـحنى أن أفعل ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

إفعلى يا سيدتى ما ينبغى لك تفعليه وهو أن تواجهى نفسك بغير خداع أو مكابرة وتقررى على ضوء الواقع الصريح والتجربة ، هل هناك أى احتمال لانصلاح أحوال زوجك واستقرار الحياة معه من أجل طفلك ومن أجل حب الصبا الأهوج الذى جرَّ عليك وعلى أسرتك كل هذه الأهوال ؟ . . أم أن الزواج قد فشل وولد ميتا منذ زمن طويل ، لكنه مستمر بالقصور الذاتى أو العجز عن إيجاد البديل . . والخوف من مواجهة الفشل وشماتة الأهل الذين لم تسمعى لنداء الحكمة فى صوتهم ؟

وإذا كان الاحتمال الأول هو الأرجح فواصلى المقاومة حتى آخر نفس لكيلا تصبح تجربتك فى النهاية تجربة عبثية بعد كل ما تكبدت من أجلها من عناء وما تحملت من تبعات .

وإذا كان الاحتمال الثانى هو الأرجح فاتخذى قرارك بنفسك وتوصلى إليه باقتناعك الحر الكامل ، كما توصلت من قبل إلى اقتناعك الأول باختيار الحب ضد نداء العقل والأهل والحكمة ، حتى إذا اهتديت

إلى القرار رضيت بتبعاته بغير أن تلومى أحداً كما فعلت، حين تساءلت مرة لماذا لم يمنعك أحد من الزواج وقطع الدراسة . . ولو - عفواً- بضرب الحذاء ؟

إنه قرارك وحدك وأنت قادرة والحمد لله على اتخاذ القرارات وتحدى الإرادات المحيطة بك حتى النهاية . . فلماذا تضعفين عن القرار الآن ، إن كان من أجل طفلك فهذا ضعف حميد يستحق التأييد ، أما إذا كان لغيره فدعينى أحدثك بصراحة فأقول لك إنك لا ترغبين فى الانفصال عن زوجك رغم ما قاسيت منه ، لكنك تريدين أن تعودى إلى حماية شقيقك فى مواجهته ومواجهة ظروف حياتك القاسية ، ولا بأس حتى بالدوافع «المصلحية» أحياناً ما دامت تقودنا إلى تصحيح وضع خاطىء ورفع الإثم والحرج عنا . فلقد كان الإمام أحمد بن حنبل لا يرى بأساً فى إجازة بعض الأحاديث الضعيفة ما دامت تحض على فضائل الأعمال .

والوضع بينك وبين شقيقك الآن وضع آثم لأن فيه قطعاً للرحم بينكما وتنكراً منك له وجحوداً لفضله وحقه عليك كأخ وأب لك . وهو يضيق بهذا الإثم أكثر مما تضيقين به ، مع فارق مهم هو أن رفع هذا الإثم عنه سوف يضيف إلى كاهله عبئاً جديداً هو مسئوليتك ورعايتك وحمايتك ، فى حين أن رفعه عنك سوف يخفف عنك بعض متاعبك ومعاناتك مع زوجك ومع الحياة .

فإذا كان الأمر كذلك فكيف تستكثرين أن تعترفى لشقيقك بخطئك فى حقه وتعتذرى له اعتذاراً صريحاً عنه ؟ وكيف تعتبرين ذلك «ذلا»

و«إذلالا» ، وترغبين فى العودة إليه بغير اعتذار ولا لوم من جانبه إن لامك أو عاتبك .

الحق أننى لا أفهم هذا النوع العجيب من الحساسية الذى يسمح للإنسان بأن يخطىء فى حق الآخرين ويتمادى فى خطئه ثم يرفض الاعتذار عنه ويكره لومه عليه . . لأن اللوم سوف «يجرح» مشاعره وأحاسيسه ؟ إن الحساسية الإيجابية هى التى تنأى بصاحبها عن الخطأ حتى لا يضع نفسه موضع اللوم من الآخرين ، أما حساسية ارتكاب الخطأ وعدم احتمال اللوم عنه . . فهذا مالا أفهمه ولا أستسيغه .

فلكل شىء فى الحياة ثمن يا سيدتى . . وأهون ثمن للخطأ هو أن نتحمل عتاب من أخطأنا فى حقهم أو من جافيناهم وتنكرنا لهم وآذينا مشاعرهم طويلاً بلا ذنب جنوه سوى رغبتهم فى حمايتنا . والإنسان الفاضل حقًا هو من إذا أخطأ اعتذر ، وإذا عوتب على خطئه تقبل العتاب راضيًا .

لقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم اقترض من أعرابى بعيراً ، فلما جاء الأعرابى فى موعد أداء الدين يطلب دينه أغلظ على الرسول فى الطلب ، فاستاء الصحابة حتى همُّوا بالرجل لإساءته الأدب مع رسول الله فقال لهم عليه الصلاة والسلام : دعوه . . إن لصاحب الحق مقالاً أى منطقاً ومبرراً لأن يطلب حقه بما يراه مناسبًا له ، ثم أمر برد دينه إليه بأفضل مما أخذ .

وواجب المدين دائمًا هو أن يؤدى دينه للدائن ولو اشتد عليه فى الطلب . . ومن يرفق بمدينه كان أفضل وأقرب إلى الخلق الكريم .

وأنت قد «اقترضت» يا سيدتى من شقيقك الكثير والكثير من سعادته وصحته وراحته الشخصية وراحة قلبه وأعصابه منذ صباك . . وواجبك الدينى والأخلاقى هو أن تردى عليه دينه حتى ولو اشتد عليك فى اللوم والعتاب .

أما تحسسك من الاعتذار له ومن عتابه لك فلا ينطبق عليه إلا قول الكاتب الأمريكى ريتشارد هاردنج «إن سوء فعلك لا يفوقه إلا رفضك الاعتذار عنه» . وفى الحديث الشريف أن «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» وشقيقك لا يطلب منك شكراً ولا عرفانًا وإن كان من حقه . . وإنما يطلب منك فقط ترضية بسيطة لنفسه وربما اعتذاراً عن خطئك فى حق نفسك وأسرتك قبل خطئك فى حقه ، وهو لن يشتد عليك فى اللوم والعتاب وهيهات أن يفعل من كان من أهل العطاء وإنكار الذات مثله ، وقد فات أوان اللوم والعتاب ، وإنما من حقه عليك وعلى نفسك ألا تطلبى منه دينًا جديداً بغير سداد ديونك القديمة له . . وما أسهل السداد . . وما أهون الأداء حين يتوقف على كلمات ترضى النفس وتمسح الجراح ، وتفتح الأبواب التى أغلقها الجحود والنكران فى وجوهنا ، أما الشماتة . . فلا محل لها . . بين الأشقاء . . وهل يشمت المرء فى يده إذا اعتلّت وهو من يعانى أوجاعها ؟

ياسيدتى ارفعى عن نفسك أنت قبل غيرك إثم تنكرك لشقيقك وجحودك له وقطعك لرحمه . . باعتذار صريح لا لبس فيه منك فالأسوياء فقط لا يكابرون ولا يجادلون فيما لا يحتمل الجدال . . ثم عودى لاستكمال دراستك وأقيمى فى بيت أبيك وأخيك واجعلى

من شهور الدراسة في مصر فرصة اختبار أخيرة لزوجك ، فإما استقام واهتدى وتعامل مع الحياة بجدية أب مسئول عن زوجته وطفله، وإما أغلقت بمساعدة شقيقك هذه الصفحة من حياتك نهائياً ، وبدأت حياة جديدة بعد استكمال دراستك ، وأول مؤشرات التغير الإيجابي في شخصيته هو حرصه على عمله ومورد رزقه ، وجديته في الالتزام بمسئوليته المادية عنك وعن طفله ، وتفكيره في بدء مشروع شراء أو استئجار شقة في مصر لتكون بيتًا مستقرا لك ، فإذا لمست منه هذه المؤشرات الإيجابية فبها ونعمت ، وإن لم يتغير فلا مفر مما لا مفر منه ، وفي كل الأحوال فلابد لك من أن تصححي الوضع الخاطيء بينك وبين شقيقك وأن تستكملي دراستك مزوَّدة بسلاح جديد ضد استهتار زوجك المحبوب هو رعاية شقيقك لك وصفحه عنك ، وشهادة دراسية تفتح لك أبواب العمل .

فلماذا تحرمين نفسك من مساندة أخيك لك في الحياة لمجرد كراهيتك للاعتذار له ، وتهيبك لعتابه ولومه أو حتى جفائه لك لفترة قصيرة إلى أن تصفو نفسه تجاهك ، وهل اللوم والعتاب والجفاء إذا حدث - ولن يحدث بإذن الله - أشد إيذاء لك من الضرب والكسر والنطح والبهدلة في الغربة ؟

أنا الطبيب الشاب بمستشفى إيتاى البارود الذى كتب إليك منذ أكثر من عام رسالة نشرتها بعنوان «فاتورة الألم» عن الفتاة «ابتسام» نزيلة مستشفى إيتاى البارود التى فقدت فى حادث قطار مؤلم ذراعًا وكف الذراع الأخرى وساقًا ، ولم يتبق لها من أطرافها سوى ساق وحيدة مع عجز تام عن الحركة ، وقد كتبت لك وقتها عن قوة إيمان هذه الفتاة ذات السبعة عشر ربيعاً ورضائها بما جرى لها وابتسامتها التى لا تفارق شفتيها رغم هول الإصابة والألم. وبعد النشر فى بريد الجمعة حدث ما تعرفه وما ذهلت له أنا وزملائى بالمستشفى حين تعاملنا مع هذا النبع من الخير الكامن فى نفوس المصريين ينتظر الإشارة لكى يتدفق كالنهر ، إذ مازلت أذكر بعد أكثر من عام أنه فى اليوم التالى للنشر مباشرة فوجئنا بزيارة عشرات من القراء والأصدقاء المجهولين من كل مكان جاءوا لزيارة ابتسام والتخفيف عنها. ومازلت أذكر أول زائر وصل إلى المستشفى وكان محاسباً جاء من الإسكندرية قاطعاً هذه المسافة الطويلة فى شهر رمضان يزورها ويخفف عنها.

وهزنى بشدة ذلك المهندس الكيميائى الذى كان قد أجرى عملية جراحية بالعمود الفقرى قبل وقت قصير وغادر مستشفى المواساة بالإسكندرية حيث أجريت له الجراحة. . متوجهًا منه إلى مستشفى إيتاى البارود راقدًا على ظهره فى عربة إسعاف طوال هذه المسافة الطويلة فى رمضان ، كما مازلت أذكر عشرات الزوار من أطباء مستشفى رأس التين العام ومن المصلين

بمسجد بكرى بالإسكندرية وزيارات السيدات الفضليات من القاهرة، ومنهن السيدة العظيمة التى تعرفها والتى شملت ابتسام برعايتها طوال العام الماضى خلال فترة إقامتها بالقاهرة للعلاج الطبيعى ، وزيارات الشباب والطلبة الجامعيين ، والرسائل التى كانت تصل إليها كل يوم على المستشفى من مصر والدول العربية ومن شاب مصرى يعمل بهولندا ، كما مازلنا نعجب لرسائل ذلك المجهول الذى كان يرسل لابتسام كل يوم بانتظام قصيدة شعر يحدثها فيها عن الأمل والإيمان وجمال الحياة رغم كل شىء. وأذكر أن كل من زاروا ابتسام قد تألموا كثيراً لصعوبة حالتها، لكن إعجابهم بقوة إيمانها وابتسامتها الدائمة ورضائها بقضائها وقدرها كان أكبر وأعظم. وقد دفع كل هؤلاء الزوار فاتورة «الأمل» لها بكرم وحب ووفاء

لقد عشنا أياماً حافلة فى مستشفى إيتاى البارود وكانت تجربة عظيمة لنا عرفنا منها أن نهر الحياة يتدفق دائمًا ويجرف أمامه جميع الآلام فلا يبقى بعد ذلك إلا صفاء النهر . . وها أنذا أكتب لك هذه الرسالة لأبلغك أنه بعد عام طويل من العلاج الطبيعى ، استطاعت ابتسام منذ أيام فقط وبمساعدة الأطراف التعويضية التى تكفلت بها وزارة التعليم أن تسير على قدميها وأن تستخدم إحدى يديها للمرة الأولى منذ وقع لها الحادث ، ولم يبق والحمد لله إلا البحث عن مركز تأهيلى متقدم يناسب حالتها لاستكمال العلاج فيه .

وأخيراً فإنى بلسان ابتسام أشكركم جميعًا وأشكر بريد الجمعة وقراءه وهذا الشعب العظيم الذى ليس صامتًا ولا سلبياً كما يقولون عنه، لكنه فقط يريد هدفًا يلتف حوله لكى يصنع المعجزات والسلام.

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

هذا خبر عظيم سيسعد له قراء هذا الباب الذين مازالوا يذكرون قصة هذه الفتاة الشجاعة الصابرة كما سعدت له حين قرأته . إن الإيمان بالله وبالحياة والبشر وبالخير الكامن فى النفوس هو خير زاد يعين الإنسان على تحمل المصاعب .

والتطلع دائماً بقلب يخفق بالأمل فى رحمة الله إلى غد أفضل تزول فيه الآلام هو الطريق ولا طريق غيره لمواصلة الحياة والتكيف معها . ولقد أوتيت هذه الفتاة قوة روحية كبيرة أعانتها على تحمل أقدارها بنفس راضية وابتسامة دائمة . . فجرفت الحياة آلامها ، وصفا - ونرجو أن يصفو لها دائمًا - نهر حياتها من كل الأوشاب بإذن الله .

إننى أعرف الكثير مما رويت لى عما فعل قراء بريد الجمعة الأفاضل مع هذه الفتاة . . وأعرف أيضًا عن قرب ما قدمته تلك السيدة العظيمة بحق من رعاية لها خلال فترة العلاج الطبيعى التى حملت خلالها عن بريد الجمعة مسئولية متابعة هذا العلاج بمراحله المختلفة ، لكنى لم أكن أعرف قصة هذا المهندس الكيميائى الذى غادر مستشفاه بالإسكندرية راقدًا على ظهر فى عربة إسعاف إلى مستشفاكم ليزور فتاة صابرة

لا يعرفها ، ولعله قرأ قصتها وهو فى فراش المرض ، فوعد نفسه بأن يزورها حين يأذن الله له بمغادرة المستشفى . يا إلهى إننى أؤمن دائمًا بالبشر والخير الكامن فى أعماقهم ، وأردد لنفسى دائمًا كلمة الكاتب الأمريكى ديفيد لوث «قد تكون معلومات بعض البشر خاطئة وقد يكون تفكير بعضهم سيئًا - لكن مشاعر الأغلبية العظمى منهم سليمة وطيبة» وأرى من صور ذلك فى تعاملى مع حالات بريد الجمعة الإنسانية الكثير، لكنى لم أتأثر منذ فترة بمثل ما تأثرت لهذه اللفتة الإنسانية الكريمة من هذا الكيميائى الفاضل .

نعم . . نعم . . يا صديقى إن هذا الشعب عظيم حقًا . . ونبع الخير فى أعماقه لا ينضب وهيهات أن ينضب أو يجف رغم جفاف الحياة حول الكثيرين من أبنائه . . ولعلك تعرف بعض الجوانب الأخرى من مبادرات هذا الشعب العظيم للتخفيف عن أسرة ابتسام المكافحة فى محنتها التى تمت عن طريق بريد الأهرام مباشرة .

فهنيئًا لابتسام استعادتها لقدرتها على الحركة وسعادة الكثيرين بذلك. وهنيئًا لكم ولقراء بريد الجمعة الأفاضل بما فعلوا وبما أعادوا غرســه من بذور الأمل فى طريق هذه الفتاة المؤمنة . ويبقى أن يرشدنا أحد من أهل الاختصاص إلى مثل هذا المركز التأهيلى المتقدم لكى نواصل معكم المشوار إلى نهايته باذن الله . . وشكراً لك .

هذه رسالة من الرسائل القليلة التى أحس بضرورة التمهيد لها بكلمة قصيرة توضح قصة الرسالة . . أو قصة القصة كما يقول نقاد الأدب .

وقبل أن أفعل . . أقول فى البداية إننى أصدق كل حرف فيها . . ليس فقط لنبرة الصدق الإنسانى العالية فيها . . وإنما أيضًا لأنى قد اكتشفت حين قرأت توقيع صاحبها وعنوانه فى نهاية الرسالة أنه صديق من أصدقاء بريد الأهرام اليومى ، يكتب لى من مدينته من حين إلى آخر رسالة حول القضايا العامة . . وتتسم رسائله دائمًا بالصدق والموضوعية ، وبعد ذلك أقول إننى قد نشرت منذ أكثر من عام رسالة بعنوان «فاتورة الألم» كتبها طبيب شاب ، وروى لى فيها قصة الفتاة الصابرة المؤمنة ابتسام التى فقدت فى حادث قطار بإيتاى البارود ساقا وذراعا كاملة وكف الذراع الأخرى ، وتواجه أقدارها برضا وابتسامة لا تفارق وجهها ، وقد أحاطها قراء بريد الجمعة عقب النشر بمشاركتهم وتوافدوا لزيارتها فى مستشفى إيتاى البارود وخففوا بعض آلامها . . وقد روى لى كل ذلك فى رسالة ثانية بعنوان فاتورة الأمل ، حكى فيها ما قدمه أصدقاء بريد الجمعة من عطاء إنسانى ومادى لابتسام . ومنذ أسابيع كتب لى رسالة جديدة نشرتها بعنوان «صفاء النهر» بعد مضى عام على حادث الفتاة الصابرة ليزف إلىَّ خبر استعادتها لقدرتها على الحركة بعد تركيب الأجهزة التعويضية لها ويتذكر ما أحاطها به أحباء بريد

الجمعة من مشاركة صادقة خفَّفت عنها الكثير من معاناتها ، وكيف جاء كثيرون لزيارتها من القاهرة والإسكندرية وطنطا والمحلة الكبرى . . إلخ وكيف كتب لها العشرات من الشباب والفتيات خطابات المشاركة والتعاطف الصادق ، وكان من بين هؤلاء كيميائى فاضل أصر على أن يزورها قادما إليها من الإسكندرية فى عربة إسعاف راقداً على ظهره طوال الطريق بعد جراحة صعبة أجراها فى العمود الفقرى ، فتوقفت فى تعليق الرسالة أمام زيارة هذا الكيميائى الفاضل بالذات ، وقلت إنها قد مسَّت قلبى واعتبرتها نموذجًا فريداً للتعاطف الإنسانى النبيل بين البشر فى مواجهة آلام الحياة واختباراتها القاسية .

ومنذ أيام تلقيت فى بريدى هذه الرسالة :

«سأقدم لك نفسى مباشرة فأقول لك إننى ذلك الكيميائى الذى أشار إليه الأخ الكريم الطبيب الشاب فى رسالته إليك بعنوان «صفاء النهر» والذى تناوله قلمك بتعليق كريم وكلمات رقيقة هزت مشاعرى بعنف حان ، وارتفعت بها حالتى النفسية والمعنوية ، ودعوت الله صادقًا أن يحقِّق فينا حسن ظن الناس بنا ويوفقنا جميعًا إلى الخير .

ولقد أعادت هذه الكلمات الطيبة إلى ذاكرتى قصة زيارتى لابتسام بمستشفى إيتاى البارود فى رمضان قبل الماضى ، وهى زيارة تجلَّت فيها رحمة رب العباد بعباده الضعفاء . . وسوف أشرح لك بعد قليل تفاصيل هذه الرحمة الإلهية .

فقد شاءت إرادة الله أن تجرى لى جراحة بالفقرات القطنية من العمود الفقرى بمستشفى المواساة بالإسكندرية بعد رحلة معاناة طويلة مع

الألم . . ثم جاءت تجربة الجراحة بمشاعرها المختلفة قبل دخول غرفة العمليات وبعدها . . وفى مثل هذه الحالات يكون الإنسان صادقاً مع ربه ومع نفسه ، ويصبح أكثر إحساسًا بآلام الآخرين ومشاعرهم ، خاصة وقد تدفق علىَّ طوال فترة إقامتى بالمستشفى نهر من الحب والعطاء من أهلى وأصدقائى وزملائى وأحبائى ينبع من المحلة الكبرى حيث مقر إقامتى وعملى . . ويصب فى غرفتى بمستشفى المواساة بالإسكندرية . . وفى هذا الجو الإنسانى الصادق قرأت رسالة الطبيب الشاب الأولى لك «فاتورة الألم» ، وعرفت قصة ابتسام مع محنتها فانفعلت بقصتها وإيمانها وابتسامتها الدائمة رغم قسوة الاختبار ، وقررت فى نفسى أنه عند خروجى من المستشفى وعودتى إلى بلدتى المحلة الكبرى سوف أمر على إيتاى البارود لأزورها فى المستشفى ، وأخفف عنها بعض آلامها كما خفف الأحباب والأصدقاء عنى فى مرضى . وأفضيت برغبتى لزوجتى الوفية التى تلازمنى فى المستشفى ووافقتنى عليها ، وجاء يوم خروجى من المستشفى ، وجاءت عربة الإسعاف لتنقلنى واستلقيت على السرير الموجود بها لأن حالتى الصحية بعد الجراحة لم تكن تسمح لى بالحركة كثيراً ، وبدأنا الرحلة ومعى داخل عربة الإسعاف بعض المرافقين واقتربت السيارة من مدينة إيتاى البارود فسمعت همهمة بينهم فهمت منها أنهم لا يريدون دخول المدينة خوفًا على ظهرى من مطبات الشوارع الداخلية ومشقة مغادرة السيارة وصعود سلم المستشفى ، فأكدت لهم تصميمى على القيام بالزيارة .

ووصلت السيارة إلى مدينة إيتاى البارود ، فكان اليوم هو يوم السوق والطريق شبه مغلق بالزحام والعربات والباعة . فحاولوا مرة أخرى

إثنائى عن إتمام المشوار إشفاقا على حالتى الصحية ، فصممت من جديد على رغبتى . . حتى ولو أدى الأمر لنزولى من السيارة والذهاب إلى المستشفى سائرًا على قدمى ، بالرغم من أننى لا أكاد أقوى على المشى ، واستسلم المرافقون فى النهاية لما أردت ، فأطلق سائق سيارة الإسعاف سرينتها ليفسح له الباعة والمارة ثغرة فى الزحام يمر منها، ووصلنا إلى المستشفى ونزلت من سريرى متكئاً على كتف أحد المرافقين وقابلت الطبيب الشاب ثم قابلت ابتسام الباسمة ، ورأيت فيها الصبر والأمل وقضيت معها بعض الوقت أشدُّ من أزْرها وأخفف عنها بعض ابتلائها ثم ودَّعتها وعدت إلى سريرى بعربة الإسعاف مصحوبا بالدعوات الطيبة وأحس براحة نفسية كبيرة وسعادة غامرة عجيبة .

وواصلت سيارة الإسعاف طريقها إلى المحلة الكبرى . . حتى بلغت منزلى حيث ينتظرنى أبنائى الذين تركتهم عشرين يوما فى رعاية خالتهم الكريمة ، فما إن دخلت إلى البيت حتى عرفت سبب تصميمى الداخلى على زيارة ابتسام فى مستشفاها رغم حالتى الصحية وفهمت أيضاً سر رحمة ربى ولطفه بى .

فلقد اندفع أبنائى إلى فإذا بى أجد ابنى الأكبر الذى يبلغ من العمر 18 عاماً والطالب بالثانوية العامة والابن الوحيد لى على بنات مبتور الساق اليمنى ، فاحتضنته وفقدت الوعى لفترة لا أعرف مداها .

وحين أفقْت عرفت ما أخفاه عنى الجميع طوال إقامتى بالمستشفى . . لقد صمَّم ابنى فى اليوم التالى لإجراء الجراحة لى على أن يسافر وحده

إلى الإسكندرية ليزورنى ويطمئن عليَّ وعندما همَّ بركوب القطار انزلقت قدمه فسقط تحت عجلات القطار ، وشاءت إرادة الله أن يسقط جسمه بعيداً عن العجلات . . فلم يدهم القطار إلا ساقه اليمنى . . وحمله أهل الخير إلى المستشفى حيث تم بترها فيه وغادره يمشى على عكازين . وتعجبت لمفارقات الحياة التى لا تفسير لها إلا أنها من مشيئة الله ، ففى الوقت الذى كنت أسعى فيه لزيارة ابتسام على غير معرفة بيننا سوى الرابطة الإنسانية بين كل البشر لأشاركها مشاعرها وآلامها ومحنتها دون أن أدرى شيئاً عن ابتلائى الخاص الذى ينتظرنى فى بيتى ، كان أهل الخير وما أكثرهم من الجيران والأهل والأصدقاء والأحباب - جزاهم الله عنا كل خير - يحيطون ابنى ليل نهار برعايتهم وحبهم وعطفهم ، ويخففون عنه آلامه ويعوِّضونه غياب الأب فى جراحته ومرضه وغياب الأم المرافقة لزوجها فى مستشفاه ، وكانوا جميعًا حريصين على ألا أعلم بما جرى به القضاء على ابنى الوحيد ونجحوا فى ذلك وكانوا رائعين حقًا فى عطائهم ومواقفهم الخيِّرة الكثيرة معه .

لقد أفقت من إغمائى فتولَّانى الجزع والقلق واستسلمت للحزن والهواجس . . ابنى الوحيد مبتور الساق . . كيف سيتحمل حياته . . ماذا سيصنع بمستقبله . . كيف سنتحمل معه هذا الابتلاء . . وعششت الأفكار السوداء فى صدرى بعض الوقت ، فإذا بى أسمع هاتفًا داخلياً يقول لى : لماذا أرسلناك إذن لزيارة ابتسام التى فقدت فى حادث قطار مشابه ساقًا وذراعاً كاملةً وكف الذراع الأخرى . . وفيم كان إلهامنا لك

أن تصمم على إتمام الزيارة . رغم كل المعوّقات والمحاولات من جانب مرافقيك . . كف يا رجل عن الجزع . . وارض بقضاء ربك . . وقم فصلِّ صلاة شكر له ، فلقد كان بابنك لطيفا . . وبك رحيما . . وهداك لأن تزور تلك الفتاة الصابرة وتلمس عن قرب عظم ابتلائها وقوة إيمانها وارتفاع معنوياتها رغم ما أصابها . . أفأنت أقل منها إيمانًا واحتساباً . . فانتفضت واقفًا وصليت لربى وحمدت الله أن كان بنا لطيــفا رحيماً . . إذ ماذا يكون ابتلائى فى ابنى إذا قارنته بابتلاء ابتسام الصابرة الباسمة التى رأيتها منذ ساعة . بل ماذا كان سيصبح عليه حالي لو فوجئت بابنى الوحيد مبتور الساق قبل أن أرى مَن بلاؤها أشد من بلائى وبلاء ابنى . . وألمس عن قرب صبرها ورضاها بأقدارها . لقد استعدت سلام نفسى بعد فترة قصيرة من الهواجس وصبرت واحتسبت وعوّضنى الله عن بلائى خيراً كثيراً ، لقد تم تركيب الجهاز التعويضى لابنى وتخلص من العكازين ، وعاد يسير على قدميه كأى شاب آخر . . وكان بلاؤه هذا من بين العوامل التى ساعدته على النجاح فى الثانوية العامة فى العام الماضى . . فقد أحاطه الجميع بعطفهم ورعايتهم ومساعدتهم له قبل الامتحان وأثناءه بل وكان ابتلاؤه أيضًا سببًا فى دخوله جامعة طنطا ضمن نسبة المعاقين وما كان مجموعه ليؤهله لدخول الجامعة . . وهو يعيش حياته الآن راضيًا بقضاء ربه وقدره ويحدوه الأمل فى غد سعيد بإذن الله . . فماذا أريد من ربى - جلّت قدرته - أكثر من ذلك . . وكيف أشكره على لطفه به وبنا وعلى إرادته الإلهية فى التمهيد لى برؤية ابتسام الباسمة الراضية بأقدارها لكى أصبر على ما خفى عنى من بلاء وأتماسك أمامه .

إنه ما من شوكة تصيب الإنسان إلا رفع الله بها درجاته أو غفر له بها من ذنوبه ، كما جاء في مضمون الحديث الشريف . . والحق يا أخي أن الإنسان في هذا الزمان في حاجة لأن تصيبه «الشوكة» من حين لآخر ، لكي يتوقف بعض الوقت عن لهاثه الدائم وراء الدُّنيا وصراعاتها ، ويراجع نفسه ويطهِّر روحه من صدأ ماديات الحياة التي تُلهيه عن أشياء كثيرة تستحق منه الاهتمام . ولقد توقفت وراجعت وخرجت من مراجعتي بشكر الله وحمده على كل شيء والسلام عليكم ورحمة الله .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

«لله الحكمة . . ولنا الألم» هكذا قال دواد النبى متحدثًا إلى لقمان الحكيم . وهكذا ينبغى أن نقول كلما واجهنا ما يُخفى علينا وجه الحكمة الإلهية فيه من اختبارات الحياة القاسية . . ومفارقاتها .

ذلك أن كثيراً من آلام الإنسان إنما يرجع إلى عجزه عن فهم أسرار الحكمة الإلهية وراء بعض تصاريف القدر . . ولو فهمناها أو تلمّسْنا السبل إلى فهمها ، لسلّمنا بما حدث دائمًا وتقبلنا كل ما تأتى به الحياة بنفس راضية . . وتواءمنا مع حياتنا وظروفنا الجديدة ، وتعلقنا دائماً بالأمل فى رحمة الله أن يخفف عنا ما نعانى منه ، ولقلنا مع الشاعر الإنجليزى «إذا كان الشتاء القاسى قد جاء . . فليس الربيع ببعيد» إذن فلنتحمل صقيع الشتاء واكفهرار الحياة فيه ، فهو لن يدوم إلى الأبد ، ولن يطول بل سيأتى بعده ربيع يداوى الجراح ويمسح الأحزان . أو هذا على الأقل ما ينبغى أن نتمسك بالأمل فيه حتى النهاية ولا نستسلم لليأس والإحباط والهواجس السوداء بلا طائل .

وأنت يا سيدى قد أُتيح لك أن تتفهم بعض أسرار الحكمة الإلهية وراء تصرف صغير هو إصرارك على زيارة تلك الفتاة الصابرة عقب خروجك

من المستشفى رغم ظروفك الصحية والاعتراضات ، فلقد أراد الله لك أن يُخفف عنك وقع بلائك المنتظر . . وأن يقدم لك دليلاً بشريًا حيًا على أن ما جرت به المقادير على ابنك العزيز لن يكون نهاية الحياة بالنسبة له . . ولن يحرمه من مواصلة حياته وتحقيق أهدافه وأحلامه فيها ، فكأنما قد أراد لك ربك أن تزور هذه الفتاة المؤمنة لكى تُخفف هى فيما بعد عنك بأكثر مما خففت أنت عنها . وهذه هى أهمية المشاركة الإنسانية لآلام الآخرين وهمومهم . إننا قد نفيد الآخرين بمشاركتنا لهم آلامهم ومحاولاتنا للتخفيف عنهم ، لكننا قد نستفيد أيضًا منهم بأعمق مما أفدناهم نحن وأبعد . وأول ما نجنيه من ذلك هو راحة الضمير التى يحسها صاحب الفعل الأخلاقى ، وآخره هو بما يعيننا اقترابنا من مآسيهم . . على الصبر على آلامنا وعدم المغالاة فى تقديرها . والرسول الكريم يقول لنا : «لا تُحقرن من المعروف شيئاً» لأن كل فعل أخلاقى مهما بدا لنا ضئيلاً له قيمته ودوره الإيجابى فى تجميل الحياة وإعلاء مثلها العُليا ، وله أيضًا «جوازيه» عند خالق الكون وعند الفضلاء من الناس . ويعجبنى فى هذا الصدد تعريف الفيلسوف الألمانى كانط للخير حين يقول لنا : إن الخير هو مطابقة الإرادة للقانون الأخلاقى ، وبالتالى فإن الفعل الأخلاقى خير بالضرورة . وهذا صحيح تمامًا ولو لم تكن تصاريف القدر قد ادخرت لك ما كان ينتظرك من ابتلاء عند عودتك لبيتك من رحلة المرض ، لكانت جائزتك على الفعل الأخلاقى الذى صنعته بزيارة تلك الفتاة هو فقط ما أحسست به عقب الزيارة من راحة نفسية وسعادة غامرة ، لكن إرادة الله شاءت غير ذلك ولا رادَّ لمشيئته ،

فأصبحت تلك الزيارة دعماً قدرياً لإيمانك وصبرك لكى تقوى على مواجهة ما كان ينتظرك من اختبار. إننا يا سيدى مدينون للحياة بقدر ما هى مدينة لنا ، ومن واجبنا أن نتقبَّل اختباراتها القاسية صابرين .. كما نرحب بمباهجها وأفراحها مهللين . ولاشك أن قد تقبَّلت أقدارك بنفس راضية مؤمنة . . وعرفت أن «شتاء» الابن العزيز لم يطل كثيًرا بل سرعان ما تفتحت زهور الربيع فى قلبه وعقله بعد قليل . حفظه الله لك وحفظك له ولأسرتك وكل محبيك وشكراً لك على رسالتك القيِّمة هذه التى علمتنا درسًا جديداً فريداً من دروس الحياة التى لا حدَّ ولا نهاية لغرائبها . . وعجائبها .

قررت أن أكتب لك قصتي لعلَّ فيها ما يفيد غيري .

فمنذ عشرين سنة كنت طالبة في بداية مرحلة الجامعة على قدر من التفوق وعلى قدر آخر من الجمال ، وكانت تربطني بزميلاتي وزملائي علاقة تسودها الثقة والاحترام ، وفي أحد الأيام تقدم مني أحد زملائي ، وقال لي إنه يحمل لي مشاعر خاصة وإني فتاة أحلامه التي يتمنى أن يرتبط بها للأبد ، وبالرغم من أني سعدت فعلاً بما سمعته منه ؛ إذ كانت المرة الأولى في حياتي التي يعبر لي فيها شاب عن مثل هذه المشاعر ، إلا أنني اعتذرت عن عدم الارتباط به ، لأننا في سن صغيرة لا تسمح لنا بالحكم الصائب على المشاعر التي قد تتغير من مرحلة إلى مرحلة من العمر ، ولأنني أيضًا كنت شهدت بدايات قصص ارتباط بين زملاء وزميلات فلم تطل ولم تخلِّف لصاحباتها سوى الألم . . والسمعة ! . .

وتوالت الأيام . . ونسيت هذا الزميل تمامًا . . ثم تعرَّضت لقصة غريبة مع زميل آخر نجح في استثارة تعاطفي معه بقصة مؤلمة عن يُتْمه وكفاحه لإعالة إخوته خاصة شقيقته التي ناشدتني في رسالة تسلمتها بالبريد في الكلية ألا أتخلى عنه حتى لا يزداد انهياراً وتضيع أسرة بأكملها يعولها من عمله الليلي ، وتعاطفت معه فعلاً ثم فوجئت بالزميل الأول ينصحني بالابتعاد عنه لأنه شاب عابث يشيع بين أصدقائه أنه مرتبط بي ، فضلاً عن أنه ليس يتيم الأب، فوالده على قيد الحياة وهو الذي يعول

الأسرة وليس هذا الزميل الذى لا يعمل عملاً ليلياً كما يزعم ، وإنما يصادق بعض أصحاب السوء وله مغامرات وعلاقات كثيرة ، وإلى جانب ذلك فليست له أخت صغيرة أو كبيرة وقد زيَّف الرسالة التى تلقيتها لاستدراجي للارتباط به . وذُهلْت مما سمعت وأصابنى مايشبه الانهيار ، وعدت إلى بيتى فرميت شرائط الأغانى العاطفية وروايات الحب فى صندوق القمامة ، وقطعت صلتى به ولم أعد أطيق مجرد رؤيته عن بعد واقتنعت تمامًا بأن الحب وهم كبير ، وأن الرومانسية خزعبلات يتحايل بها بعض الشبان على الفتيات لتحقيق ما يهدفون إليه، وقررت ألا أتزوج إلا زواج العقل وحده ، ومضت السنوات الدراسية وفى العام الأخير جاءتنى زميلة لى وأبلغتنى أن الزميل الأول وهو قريبها مازال متمسكًا بى ، وقد اشترى دبلة ذهبية وحفر داخلها اسمى وتاريخ اليوم ويرتديها فى إصبع يده اليمنى . . ويسألنى أن أنتظره حتى يتخرج ويعمل ويتقدم لى . فثُرْتُ فى وجه زميلتى هذه وأكدت لها أنى لا أريد الارتباط بأى إنسان ، وواجهت هذا الزميل بقسوة وأبلغته أننى لن أرتبط بأحد ونصحته بأن يوجه اهتمامه لدراسته بدلاً من مثل هذه الخزعبلات ، ولم أكتف بذلك وإنما سخرت من «دبلته» التى يرتديها ، بطريقة قاسية فلم يزد على أن أحنى رأسه ، ثم انصرف صامتا وهو فى قمة الخجل.

وتخرجت فى كليتى وابتعدت عن مجتمع الكلية اللهم إلا بعض الزميلات اللاتى استمرت صداقتى بهن . . وفى إحدى الحفلات العائلية رآنى شاب من أقارب أمى ، وأعجب بى ووافق عليه أهلى لأنه ميسور الحال ووافقت عليه بناء على موافقتهم .

وتزوَّجنا وأنا لا أحس تجاهه سوى بمشاعر القبول العادية آملة أن يحدث التقارب بيننا بعد الزواج ، فمضت ثلاث سنوات دون أن أنجب وبدأ القلق يسيطر على أسرته ، وينعكس على حياتنا ، وبدأت أمه تحثُّنا على إجراء الفحوص الطبية وأجريناها فازداد القلق فقد أثبتت قدرته الكاملة على الإنجاب فى حين كشفت الفحوص عن ضعف قدرتى عليه ، ومضت السنوات ونحن نطوف على الأطباء حتى مللت كل شىء بالرغم من لهفتى على الأمومة ، وازداد تدخل أسرته فى حياتنا بسبب هذا الأمر . . وبدأ زوجى يطلب منى السماح له بالزواج من أخرى لكى ينجب ، وشيئًا فشيئاً تحول إلى شخص آخر يسب ويلعن اليوم المشئوم الذى رآنى فيه ، وكثرت المشاحنات وفترات الخصام بيننا . . وفى إحدى هذه النوبات طلبت منه الطلاق لكى يتزوج غيرى ويستريح ، فوافق بشرط التنازل عن مؤخر الصداق ، وطلقنى فعلاً بعد 10 سنوات كاملة من الزواج ووجدت نفسى فى سن الثالثة والثلاثين مطلقة ، وعرفت مدى بشاعة كلمة المطلقة فى مجتمعنا . . وكنت منذ تخرجى بالكلية لم أعمل فوجدت نفسى غير قادرة على احتمال الحياة بلا زوج . . ولا أطفال . . ولا عمل . . فبحثت عن عمل مناسب وعملت به وركزت فيه كل همِّى ، وبدأت أتشاغل به عن أحزانى .

وذات يوم زارتنى الزميلة قريبة الزميل القديم صاحب الدبلة الذهبية وتطرق الحديث إلى زملاء زمان ، فألمحت لى أن قريبها قد عاد من الخارج بعد رحلة عمل طويلة حقق خلالها نجاحه ، وبدأ مشروعا فى مدينتنا ، وسعدت بنجاحه واستقرار حياته .

وبعد شهور أجريت لى عملية الزائدة الدودية . . فزارتنى صديقتى هذه وزوجها . . وفوجئت بالزميل القديم معهما . . وتأثرت بوفائه وحرصه على مجاملتى فى مرضى .

ثم خرجت من المستشفى . . وبعدها بأيام أبلغتنى صديقتى بأن زميل الجامعة القديم يريد أن يتقدم لى من جديد ! واختلطت الدهشة بالفرحة وسألتها متعجبة : بعد كل هذه السنوات . . وأنا مطلقة . . ؟ وهل يعرف حكاية الإنجاب؟ ؛ ودهشت حين قالت لى إنه يعرف عنى كل شىء منذ زواجى طوال السنوات الماضيـــة ، وأنه لم يرتبط للآن ولم يتزوج . . بل ولم يقرر الاستقرار فى مدينتنا وبدء مشروعه فيها إلا بعد أن علم بطلاقى !

ووجدت دموع التأثر تطفر من عينى ولم أعرف ماذا أقول . . وتعجبت من الدُّنيا ومما تفعله بنا ، وطلبت مهلة قصيرة للتفكير فلم يمض يومان إلا ووجدته فى بيتنا على غير موعد ، يطلب يدى . . بل ويهددنى بأنه لن يغادر بيتنا هذه المرة إلا وأنا فى عصمته ، فإذا بينبوع من المشاعر يتفجر داخلى ويغرقنى ويحول مشاعر الزمالة إلى مشاعر من نوع آخر .

وبدأنا نستعد للزواج وأصر الزميل القديم على أن يقيم لى فرحًا كبيراً فى أحد الفنادق كأننى فتاة بكر لم تتزوج من قبل ، وتزوجت مرة أخرى وأنا فى الخامسة والثلاثين من عمرى ، وقضينا شهر العسل فى أحد المصايف ، وأدركت خلاله كم كنت غبية حين حرمت نفسى من هذا الإنسان الطيب المتدين رقيق المشاعر . . دافىء القلب ، ولم تمض أسابيع حتى كان قد أقنعنى برقة وبلا ضغط بارتداء الحجاب والانتظام فى

الصلاة ، وبعد عام من زواجنا اصطحبنى إلى الرحلة المباركة لأداء فريضة الحج معًا ، وبعد عام آخر فاجأنى باصطحابى معه فى رحلة صيف إلى انجلترا بدعوى السياحة والاستمتاع بنعمة الله علينا . . وهناك اصطحبنى لزيارة طبيب كبير بناء على حجز مسبق لديه منذ شهر ، وأخبرنا الطبيب أن الأمل ضعيف لكنه قائم . . فلم أُصدم لأنى كنت قد سلَّمت أمرى لله فى هذا الأمر منذ زمن بعيد . . لكنى أشفقت عليه هو من أن يخيب أمله ، وواظبت على العلاج والمتابعة فى مصر وبعد ستة شهور عدنا إلى نفس الطبيب وأجريت لى جراحة أخرى ، ورجعت لمصر وتابعت العلاج تحت إشراف طبيب هنا ، فإذا بى أشعر وأنا فى التاسعة والثلاثين بشىء غريب ومثير يتحرك فى أحشائى ، وإذ بمن قال للشىء كن فيكون يأذن لى بأن ألد مولودى الجميل وأنا فى الأربعين من عمرى ، فسبحانك ربى تُعز من تشاء وتذل من تشاء وأنت على كل شىء قدير .

ولقد عاهدت نفسى منذ ولادتى من شهرين أن أكتب لك قصتى لأشكر ربى على عطيته ونعمته ، ولأؤكد لقرائك ما تقوله أنت لهم كثيراً من أن الحياة قد تدخر أحيانًا للإنسان ما يحلم به من سعادة ثم تعطيه جوائزها حين يشتد ضيقه وكربه ، ولا يرى فى حياته سوى الحزن والدموع وهذا هو جزاء الصابرين الشاكرين ، إننى يا سيدى أسمع الآن كثيراً آيات الذكر الحكيم فيخفق قلبى حين أسمع قوله تعالى : **﴿وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً﴾** وقوله تعالى : **﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾** وقد عرفت من فيض معانيهما الآن لماذا لم يرد لى الله

سبحانه وتعالى أن أنجب من زوجى الأول خلال عشر سنوات .
وأدركت أن ما شقيت به حينذاك إنما كان لحكمة خفية هى أن يتحقق أملى فى الأمومة وفى الحياة مع الإنسان الذى ملك علىَّ حياتى ، والذى ضللت الطريق إليه فى بداية الشباب .

أما ما أريد أن أقوله لك فى النهاية فهو أنى قد عدت منذ 5 سنوات للاستماع أيضًا إلى شرائط الأغانى العاطفية . . وتوقفت تمامًا عن إنكار الحب والرومانسية ، إذ كيف يجوز لى ذلك . . ودبلة زوجى القديمة التى اشتراها ونحن طالبان فى الجامعة مازالت موجودة للآن محفوراً بداخلها اسمى وتاريخ الشراء القديم منذ 19 عامًا ؟ ثم كيف «أكفر» بهما وقد حوَّلا حياتى من الشقاء . . إلى السعادة والحمد لله كثيراً على نعمته وعلى كل شىء .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

﴿وما تشاءون إلا أن يشاء اللَّه﴾ صدق الله العظيم ، هذا هو مغزى قصتك الجميلة هذه وأهم دروسها إلى جانب دلالات الآيتين الكريمتين اللتين تتفكرين فى معانيهما كثيراً الآن ، إن قصتك ياسيدتى مثال جديد على «سعى الحياة الدائم لتصحيح أخطائها» كما كان يقول شاعر الهند العظيم طاغور ، وما أكثر الأخطاء . . وما أكثر من يتمنون لو اتسعت لهم فسحة العمر ليشهدوا تصحيحها . . أو ينالوا جوائزهم وفى القلب بقية من استعداد للاستمتاع بالحياة .

وبالرغم من كل ذلك فإن الإنسان يستطيع أن يستعين على ما يُشْقيه بالتعلق دائمًا بالأمل فى رحمة الله وبألا يشتد جزعه حين تحرمه الحياة من بعض ما يصبو إليه ، انتظاراً لدوره فى تصحيح الأخطاء وجوائز الحياة للصابرين الراضين بأقدارهم .

وهناك حكمة هندية تقول : «كل ما تأتى به الحياة خير ، وكل شىء مكروه سيصبح مألوفاً بعد حين» وبمفهوم هذه الحكمة فإن علينا أن نتقبل أقدارنا بغير سخط . . ثم نسعى بقدر الجهد لتغيير ما نستطيع

تغييره من أوضاع تسبب لنا الشقاء . . ونصادق ونألف ما لا نستطيع تغييره منها .

ويبدو أن هذا هو ما فعله زوجك الحكيم يا سيدتى فلقد تقبَّل أقدراه بلا ولولة ولا بكاء على الأطلال ، ثم تمسَّك بحلمه شبه المستحيل إلى أن ساعدته دورة الأيام على تهيئة الظروف الملائمة لتحويله إلى حقيقة ، وكل شىء يأتى لمن صبر كما يقولون .

والحق أن كثيرين يسيئون فهم الرومانسية ويتصورون أنها لاتعنى سوى الحب الحالم الذى يتناقض مع أحكام العقل ، أو تعنى العاطفة الهوجاء بلا مرشد من عقل أو حكمة ، فى حين أن المفهوم الصحيح لها يختلف كثيراً عن ذلك .

إن الرومانسية فى الأصل تعبير استُخْدم لوصف نزعة فى الأدب والفن ، تتسم بتغليب الأحاسيس والمشاعر والعاطفة على مقتضيات العقل والمنطق فى العمل الفنى أو الأدبى ، أما فى الحياة فهى لا تعنى انقياد الإنسان لعاطفته ومشاعره بلا ضوابط ولا روابط ، وإنما تعنى أساساً عدم إغفال اعتبارات القلب والمشاعر والعاطفة الإنسانية فى اختيارات الإنسان وقراراته وتصرفاته ، وتعنى أيضًا تقدير الإنسان للاعتبارات غير الحسية وقدرته على تذوقها والاستمتاع بها كما يتمتع بالمتع الحسية وربما أكثر ، ونقيض الرومانسية فى الحياة هو المادية والحسية ومعناهما ألا يُحرك الإنسان فى كل اختياراته وأعماله وتصرفاته شىء إلا الاعتبارات المادية . . أو الغرائز وحدها !

وبهذا المفهوم الصحيح فإن «الرومانسية» التى تعنى لُغويًا الخيال أو الخيالية . . إنما تعنى عمليا الحب . . والإنسانية . . والمثل العُليا . . واحترام المشاعر الإنسانية والفضيلة . . وحب الخير والرحمة والحلم بحياة أكثر خيرية وأقل شروراً ، والقدرة على تذوق جمال الطبيعة والجمال غير الحسى وتذوق الفن الراقى والأدب الرفيع والاستمتاع بهما ، والاهتمام بكل ما يرقّق المشاعر ويقترب بالحياة من مثلها الأعلى .

وبعبارة الكاتب والشاعر الأمريكى هنرى ثورو فإنها تعنى ألا يكون الإنسان «ابن عم أشجار الصنوبر وأحجار الصخور» ولولاها لازدادت الحياة قسوة . . ولما تزوج شاب ممن يحبها . . مفضِّلاً إياها على من هى أكثر منها جمالاً وأعز مالاً أو مكانة اجتماعية ولما فعلت فتاة أيضًا نفس الشىء . . ولولاها لما حركت الإنسان إلا مصالحه المادية وغرائزه فقط ولأصبحت الحياة غابة لا يسكنها إلا الوحوش .

وبهذا المفهوم فإنها ليست ضد العقل والمنطق كما يتصور كثيرون ولا تخاصمهما . . وإنما تطالب الإنسان فقط بألا يغفل الاعتبارات العاطفية والإنسانية فى اختياراته وتصرفاته . . وبألا يتخلى عن الحلم بحياة أفضل له وللآخرين . . حتى ولو بدا له الواقع غير مبشِّر بتحقيق الأحلام . . وهذه كلها كما ترين من صفات كل «المصلحين» فالمصلحون على مر التاريخ وفى كل المجالات أشخاص رومانسيون لم تحركهم الاعتبارات المادية ولا غرائزهم . . وإنما حرّكتهم الدوافع الإنسانية

والعاطفية لتحقيق مثُلهم العُليا ولو على حساب مصالحهم المادية وراحتهم الشخصية وتضحياتهم ، فهل يحق لنا بعد ذلك أن نخجل من الرومانسية . . أو ننكرها ؟

على أية حال مبروك عليك عودة الرومانسية والسعادة والاستقرار إلى حياتك ، ودعاء لك بأن يحفظ الله عليك كل أسباب سعادتك وأن يوسِّع من ساحة الرومانسية فى حياة الجميع . . إذ ما أحوجنا إليها لتواجه طغيان المادية والبهيمية على تفكير وتصرفات أبناء عم أشجار الصنوبر .

شجَّعتنى على الكتابة إليك رسالة «التاريخ القديم» للسيدة التى رفضت فى بداية حياتها الشاب المبتدىء الذى يحبها بصدق، لأنها لم تكن تؤمن بالحب وتسخر من زميلاتها اللاتى يتحدثن عنه ، ثم تزوجت من العريس الميسور القادر على أن يحقق لها أحلامها فى الحياة اللامعة ، فشقيت معه وطلقت منه بعد مشاكل مريرة . وانتهت إلى الإيمان بما لم تكن تؤمن به ، وتحققت سعادتها الحقيقية مع فتاها القديم الذى رفضته فى البداية . فمنذ 18 عاماً كنت طالبة أعيش فى بلدة صغيرة يعرف معظم أهلها بعضهم البعض، من أسرة معروفة بها . . وعلى قدر لا بأس به من الجمال أذهب إلى مدرستى كل صباح وقلبى مُفْعم بالأمل فى السعادة والحياة ، ويجمع الطريق بينى وبين شاب يكبرنى بعام أو عامين ، وتلتقى نظراتنا الصامتة معبِّرة عما تحمله القلوب الغضَّة من مشاعر بريئة ، واستمر هذا التفاهم الصامت بيننا عدة سنوات ، ولم يزد ارتباطنا عن لقاء العيون اليومى ، واختلاس الكلمات من حين لآخر وانتظار موعد اللقاء قبل الذهاب للمدرسة أو بعد العودة منها ، واستمر الحال هكذا حتى بلغنا مرحلة الدراسة الجامعية ، وكالعادة تقدم العريس الميسور الذى لا أعرفه وتحمَّس أهلى للضغط علىَّ وإقناعى بقبوله ، لأن الرغبة فى زواج الابنة الكبرى والفرح بها قوية . والحبيب الذى ارتبطت به نفسيًا وعاطفيًا عدة سنوات مازال فى منتصف الطريق ، وليس قادراً على المنافسة أو إقناع الأهل بجدارته وانتظاره سنوات طويلة ، وبعد محاولات يائسة

من جانبه سلَّمنا معا بأننا الجانب الأضعف وأن قضيتنا خاسرة رغم ما يُكنه كلٌّ منا للآخر من حب برىء ، وخُطبت لمن تقدم لى فبدأت الخلافات بينى وبينه منذ اليوم الأول . ولم تسعفنى خبرة سن العشرين فى إدراك أن مؤشرات هذه الخلافات ليست مما يعد بحياة هادئة ومستقرة بعد الزواج . ولم تنصفنى أيضًا خبرة الأهل فتدرك ما فات إدراكه علىَّ وتحمينى منه ، وإنما تجاهلوا هذه الخلافات الصريحة فى فترة الخطبة الجميلة وأسموها بفترة الاختبار ، وبشَّرونى بأنها كلها ستنتهى تمامًا حين يجمعنا بيت واحد . وجهَّزنى أبى للزواج جهازاً مشرفاً يترجم أول فرحة للأسرة بإحدى بناتها ، ورفض كعادة الأسر الطيبة أن يطلب من زوجى قائمة بجهازى أو بأى شىء يخصنى فى بيت الزوجية ، وقال لمن نبهه إلى ذلك : إننى أعطيه ابنتى وديعة عنده وأئتمنه عليها فكيف لا أئتمنه على بعض المتاع والمصاغ ؟ . وتزوجت فإذا بالخلافات والمشاكل تبدأ أيضاً منذ أول يوم للزواج ، وبدأ تدخل الأهل والوسطاء بيننا لفض المشاكل وتصفية الخلافات ، واستمر ذلك عامين طويلين ثم ظهرت فى حياتى مشكلة أكبر هى مشكلة الإنجاب فبدأنا رحلة أخرى من العذاب النفسى والطواف على الأطباء ومعامل التحاليل ، وهربت من مشكلتى الأولى فى التعاسة الزوجية إلى المشكلة الثانية ، وهى الإنجاب على أمل أن يكون سبباً فى إصلاح ما بيننا أو على الأقل فى تكيفنا مع حياتنا ومع الأمر الواقع ، وبعد رحلة عذاب طويلة اكتشفنا أو تأكدنا من عدم قدرتنا عليه ، وفى هذه الفترة توفى أبى رحمه الله ، ومضت حياتنا معاً من خلافات إلى خلافات ومن ترك للبيت والعودة لأهلى إلى مفاوضات للصلح والعودة له بلا أى تغيير فى حياتنا . وزوجى لا يساعدنى على

تجنب الخلافات ولا طموح له فى الحياة إلا المال والظهور بمظهر اجتماعى يليق به من زوجة من عائلة طيبة إلى بيت فخم ولا شىء يهم بعد ذلك . ومضت سبع سنوات من حياتنا لم يكن الإنجاب خلالها هو مشكلتنا الأساسية ، وإنما كان الشماعة التى نعلق عليها خلافاتنا ومشاكلنا وضاعت أحلى سنوات عمرى فى الشقاق . . واجترار الأحزان . . والمشاكل .

ثم فجأة مللت كل شىء وظهرت علىَّ أعراض الإرهاق النفسى والجسدى ، وكرهت البيت والحياة وكل ما أفعله حتى وظيفتى ، وأصبحت أكره موعد عودته للبيت ، وأكره أيام الأجازات التى تجمعنا معًا فيه ، وأحس بالملل بمجرد عودتى من عملى أو من زيارة أهلى ، وفقدت الاهتمام بكل شىء فى الحياة مهما كان ثمينا ، وزاد من مشاكلى أن زوجى ضعيف الشخصية ومنقاد لأهله إلى حدٍّ غريب ، فأصبحت أعيش معه فى وضع من التحفز الدائم وعدم الأمان ، فاليوم قد يكون زوجى معى . . وغداً سيكون ضدى وفقًا لما يتأثر به من فحيح الأهل . ثم حدثت بيننا مشكلة من مشاكلنا العادية فتركت على أثرها البيت وعدت إلى بيت أهلى ، ولم يكن ذلك أمراً غير مألوف فى حياتنا كما لم تكن تلك المشكلة أكبر مشاكلنا بل لعلها كانت أقلها حجمًا .

لكن غير المألوف هو أننى وجدتنى فجأة أرفض العودة إلى زوجى هذه المرة بإصرار غريب ، وأتمسك بذلك لكى أنقذ البقية الباقية من كرامتى وأعصابى وعمرى . وبدأت الوساطات هذه المرة بيننا فتمسكْت برفضى للعودة ولمس زوجى إصرارى الشديد هذه المرة ، فراح يقدم الترضيات والتنازلات العديدة التى ربما لايقدر عليها بشر لكى أعود إليه وأصررت

على الرفض ، فإذا به يتحول إلى شخص آخر تماماً غير الشخص الذى كان يرجو ويتنازل ويقدم الترضيات العديدة ، وأصر على أن يجرِّدنى من كل شيء لى عنده . . ومن كل حقوقى مقابل الطلاق ووافقت صاغرة على كل ما أراد فجرَّدنى بالفعل من مالى وأثاثى وذهبى ، وساومنى فى كل شيء وماطلنى فى كل شيء ولم أحصل منه سوى على ما خرجت به . وخرجت من تجربة زواج تعس لمدة 9 سنوات صفْرَ اليدين إلا من وظيفتى ومن لقب المطلقة البغيض فكانت فترة من أقسَى فترات حياتى ، وبدأت أحاول استعادة نفسى من جديد والتكيف مع حياتى كمطلقة ذات تجربة مريرة . . ففوجئت بالحبيب القديم الذى كان ينتظرنى على ناصية شارع المدرسة فى أجمل سنوات العمر يظهر فجأة بعد اختفاء طويل ، وعرفت أنه عائد لمصر فى أجازة من بعثة للدكتوراه فى إحدى دول أوروبا ، قد عرف من الأقارب والجيران بما لقيته من سوء حظ فى زواجى فجاء ليلتقى بى ، وعرفت منه أنه بعد «هزيمته» فى المعركة قرر أن يثبت لنفسه هو قبل كل شيء أنه كان جديراً بى . فقرر استكمال تعليمه بعد تخرجه وحصل على الماجستير من خلال قصة كفاح مجيدة ، ثم سافر لإعداد الدكتوراه منذ عامين وسوف يحصل عليها خلال عامين آخرين أو ثلاثة ، وكان ظهوره مرة أخرى مفاجأة كاملة لى لأنى لم أكن أعرف عنه أى شيء طوال سنوات زواجى ، وبلغت المفاجأة قمَّتها حين طلب منى الزواج . وأجبته بأنه لم يعد لدىَّ ما أستطيع أن أقدمه له ، لأن الحب قد مات فى قلبى بعد عذاب السنين الماضية . لكنه لم يأبه لهذا الجواب ، وقال لى إنه قد انسحب من «الملعب» فى المرة الأولى لأنه لم يكن قادراً على المنافسة مع الغريم المنافس ، أما الآن فهو قادر على اللعب ولن يتراجع مهما كانت الأسباب ، ووقف إلى جانبى إلى أن

بدأت أسترد بعض الثقة فى نفسى . . وحدثته عن مشوارى الطويل مع محاولة الإنجاب فلم يهتم بما أقول ، وتعجَّلنى لإتمام الزواج قبل موعد انتهاء أجازته ، لأننا كما قال نريد أن نتزوج لكى يرتبط كل منا بالآخر ثم فليفعل الله بنا ما يشاء بعد ذلك . . وتزوجته على بركة الله وسافرت معه إلى مقر دراسته لأبدأ حياتى معه من الصفر مرة أخرى بعد أن فقدت كل شىء فى زواجى الأول ، وأحسست معه منذ اللحظة الأولى التى احتوانا فيها بيت واحد بالأمان وبكل معانى الحب والاستقرار والرجولة التى لم أحس بها من قبل ، ومضى على زواجنا شهر واحد ففوجئت بأعراض الحمل تظهر علىَّ وكذَّبت نفسى فى البداية ورفضت أن أصدق أننى حامل حتى أكد الأطباء لى ذلك ، وأنجبت طفلتى قبل أن يمر عام على زواجنا . . وأنهى زوجى رسالة الدكتوراه بتوفيق من الله ، وعمل عملاً مؤقتًا لمدة شهور بأحد مراكز الأبحاث ليستطيع تدبير تكاليف حياتنا وتحسنت أحوالنا المادية بعض الشىء ورزقنا بطفلة أخرى ملأت مع شقيقتها حياتنا صخباً وضجيجًا ، ونحن الآن نستعد للعودة لكى يعمل زوجى بإحدى الجامعات ، ونبدأ فى بناء حياتنا بكفاحنا ومن عائد عملنا نحن الاثنين ، وأنا أعرف جيدًا أن رحلة الحياة لن تكون سهلة ميسورة ، لكنى أعرف أيضًا أننى قد كسبت بزواجى من فتاى القديم أشياء لا تقدر بمال ــ الغنى القادر هو وحده العريس المناسب ، فهناك فى الحياة أشياء لا تستطيع كنوز العالم شراءها أو تحقيقها لمن لا يجدن السعادة مع أزواجهن . وفى الختام أشكرك على ما بشَّرتنى به وأنا فى قمة معاناتى من سعادة مؤجلة . . كدت أيأس من تحققها فتحققت والحمد لله . . الحمد لله على ذلك وأدعو الله أن يحققها برحمته وكرمه لكل قرائك وقارئاتك من المهمومين .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

رسالتك تقول الكثير مما لا نتعلمه ولا نقتنع به غالبًا إلا بدروس الألم. فمنذ قديم الزمان وأهل الحكمة يقولون لنا إن السعادة لاتشترى بكنوز الدُّنيا بأسرها إن لم تتآلف القلوب والأرواح أو على الأقل إذا لم تتنافر منذ البداية كما حدث لك منذ اليوم الأول ، ومع ذلك فلسوف يطلع النهار كل يوم على بعض من يتوهمون أن الماديات وحدها قد تكفى لتحقيق السعادة وتعويض نقص الوفاق والائتلاف . ويقولون لنا إن الوفاق هو سياج الزواج الأول الذى يحميه من التصدع والانهيار وإن الخلافات المستمرة بين طرفى أى مشروع للزواج تنبىء بعدم توافق الميول، وتنذر بتفاقم المشاكل واتساع الفجوة بين الطرفين بعد الزواج ، ورغم ذلك فمازال هناك من يخدعون أنفسهم ويتعامون عن النار التى تسرى تحت الرماد ، ويمضون فى المشروع المحكوم عليه بالفشل منذ البداية ولا يقتنعون بفشله إلا بعد أن يدفعوا ضريبة الشقاء ، وقد يدفعها أطفال أبرياء لاذنب لهم فى سوء اختيار الأبوين لحياتهما ولا فى تجاهل الأهل لنذر الشقاء القادم والواضح لكل ذى بصيرة .

ويقولون لنا إن الخطبة ليست سوى مشروع للارتباط يحتمل الفشل كما يحتمل النجاح وإنه من الأفضل إذا تيقَّنا من غلبة احتمالات الفشل

فيه على احتمالات النجاح أن نبادر بالاعتذار عن عدم المضى فيه من باب الأمانة مع النفس ومع الآخرين وبلا لوم على أحد ولا عار لأحد . ومع ذلك فإن كثيرين يمضون فى مراسم مشروع محكوم عليه بالفشل كأنما يوقِّعون بذلك على وثيقة استسلام لعدو منتصر لا يملكون مقاومته أو الفكاك منه ، مع أنه من حقائق الحياة البديهية أن من لا يناسبنا قد يكون هو نفسه ضالة غيرنا الذى لن يسعد إلا معه ، لأن النفوس تتنافر وتتآلف بلا قانون واضح، وتنافر شخصين لايعيب أحدهما ولا ينقص من قدره ولا من جدارته بالسعادة مع الرفيق الملائم له .

إن الاختلاف بين الشركاء من طبيعة البشر ، وليست هناك علاقة سويَّة تجمع بين طرفين لا تعتريها بعض الاختلافات العابرة حول أمور الحياة المتشابكة ، وأفضل خلق الله أجمعين الذى قال «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى» قد غاضب زوجاته وغاضبته زوجاته فى بعض الأحيان ، لأن الخلاف طبيعة بشرية . ولو وُجد على سطح الأرض شخصان تعاشرا وتشاركا فى حياة طويلة متصلة ولم يختلفا مرة واحدة حول أمر هين ذات يوم لوجب عرضهما على الطبيب النفسى وربما طبيب الأمراض العقلية أيضًا ، لأن البشر ليسوا متماثلين فى كل شىء كقوالب الطوب ، لكن الفارق بين الحياة السعيدة والحياة الشقية هو ألا يكون الخلاف هو الأصل وهو طابع الحياة الذى يغلب عليها ويكون الوفاق هو الاستثناء النادر . وحين تغلب الخلافات على الحياة فإن ذلك لابد أن ينبه المتغافلين إلى أنهم ليسوا الأشخاص الملائمين كل منهم

للآخر ، ولابد أن يدفع ذلك كلا منهم للبحث عمن يلائمه إذا لم يكن فى حياته من يدفعونه لتغليب سعادتهم على سعادته الشخصية وهم أبناؤه. فالأبناء هم المبرر الشريف الوحيد لاحتمال حياة لا تحقق للإنسان احتياجاته الإنسانية من السعادة والوفاق والإشباع النفسى والعاطفى ، وهم أيضًا الحافز الوحيد المقبول لأن يجاهد كل طرف لإصلاح الطرف الآخر والتواؤم معه . . فإذا خلت الحياة الزوجية منهم يصبح تصحيح هذه العلاقة الخاطئة والعدول عنها أمراً واجبًا لكلا الطرفين ، وإلا كان استمرارها لدوافع أخرى كالحاجة المادية . . أو كالخوف من مواجهة الواقع أو المجتمع أو كالرغبة بالاستئثار بمميزات يوفرها هذا الزواج الخاطىء ، وكلها كما ترين دوافع أنانية لاتضع فى الاعتبار سعادة المرء ولا سعادة الطرف الآخر ، والأقدار الرحيمة قد ترفق بنا أحيانًا فتتولى عنا تصحيح ما أخطأنا نحن بسوء اختيارنا ، وتجمعنا بمن فرَّقت بيننا وبينهم ظروف الحياة وقصر نظر بعض الأهل ، وهذا ما صنعته معك حين لم يقدِّر الله لك الإنجاب من زوجك الأول . . وهذه ظاهرة أخرى كثيرة فى قصص عديدة مشابهة لقصتك ، هى أن تحرم فتاة من الزواج بمن أحبت وتتزوج راغمة بمن لا تريده فتفشل فى الإنجاب منه رغم كل المحاولات ، ثم تجمعها الأقدار فى ظروف غريبة بمن أحبت وتتزوجه ، فإذا بمسامها المغلقة تتفتح من جديد ويتحرك جنين الحب فى أحشائها على غير انتظار .

على أية حال لقد أحسنت بنفسك حين أقدمت على تصحيح علاقة زواج خاطئة لم يكن لها ما يبرر استمرارها من أبناء ، وضَّحيْت فى

سبيل ذلك بما لا قيمة له عند العقلاء من ماديات هى رخيصة مهما غلا ثمنها إذا قورنت براحة المرء وسلامة النفس . فعسى أن تقرأ الأمهات والآباء رسالتك ويتفكروا في معانيها ، وعسى أن يحفظ الله عليك سعادتك ويحقق لك كل ما تأملين فيه لنفسك بكفاحك الشريف مع من سكن القلب إليه واستراح ، وشكراً لك على أمنياتك الطيبة لكل التعساء والمهمومين .

أنـا سـيدة أرمـلة فـى الثانية والثلاثين من عمرى ، وأريد أن أعترف لك بأننى قد قتلت زوجى !

نعم أريد أن أعترف لك لأستريح . . وليهدأ ضميرى الذى يؤرقنى الآن ليل نهار . . لقد قتـلت زوجـى فعلاً ، ولكنى لم أقـتلـه بسـاطور ولا بالبلطة ، وإنما قـتلتـه بغـبائى وكـبريائى وعنادى وتكبرى واستعلائى عليه ، وبكثرة طلباتى منه .

فلقد تزوجـته منـذ ثمانـى سنوات وهـو يعـمل موظـفًا وأنا مـوظفـة بإحـدى الهـيئات الحكومـيـة ، ومنذ اليـوم الأول لخطبتى له اشتـرطت عليـه لقبـوله ألا أعمل بعـد الزواج ، وأن يهيىء لى مستوى الحياة الذى أعيش فيه فى بيت أهلى ، ونفس المستوى الذى تعيشه زوجات إخوتى ، رغم الفارق الهائل بين دخولهم ودخله . وقَبلَ ذلك راضيًا ، وتزوجنا وتركت العمل وقبـعت فى البـيت أطَالبه كل يوم بالوفاء بوعـده ، واستـجاب والتحق بعمل إضافى مرهق لا علاقة له بطبيعة عمله الحكومى ، فكان يخرج كل يوم فى السابعة صباحاً ويعمل بوظيفته حتى الساعة الثانية بعد الظهر ، ثم يجرى ليـلحق بعمله الإضافـى بلا غـداء فيـعمل به من الثالثة إلى الثـانيـة عشـرة مسـاء كل يوم . . واستمر على ذلـك منذ الشهر الأول من زواجنا ، وكلما أحس بالإرهاق وهمَّ بـأن يناقـشنى فى مسألة العـودة للعـمل لأساعده، خاصـة حين كـان الرجـوع عن الاستقالـة ممكنا ، ثُـرت علـيه وعيَّرته بفقـره وقـلـة إمكانـاتـه وصحْتُ فيه :

لماذا تزوجتنى وأنت غير قادر على نفقات حياتى . . ولعنت اليوم الأسود الذى تزوجته فيه ، فيسكت صابراً ويواصل العمل من الصباح حتى منتصف الليل ، وليتنى بعد ذلك قدرت له كفاحه من أجلى أو محاولاته لإرضائى وإسعادى ، إذ لست أذكر - للأسف- أنى قلت له مرة كلمة شكر أو كلمة حب تهوّن عليه شقاءه . . أو حتى كلمة تعاطف أو عطف وهو يعود منهكاً فى آخر الليل . . أو حين يقدم لى شيئاً طلبته . . إذ كان أقصى ما أتكرم به عليه هو ألا ألومه أو ألا أنتقده أو ألا أبخس قيمة الأشياء التى جاءنى بها ، وفى مثل هذه الحالات النادرة كان يسعد كثيراً ، حتى كانت سعادته فى بعض الأحيان تغيظنى فأكاد أفسدها عليه بكلمة قارصة من الكلام الذى تعوّدت أن أوجهه له. ومضت 8 سنوات على زواجنا وزوجى يكرس حياته لإرضائى ولا يجرحنى بكلمة ، إلى أن صحوت ذات ليلة على صوته وهو يصرخ من شدة الألم . . وأسرعت بنقله للمستشفى وهناك ذهلت حين عرفت أنه مريض بمرض خطير منذ فترة طويلة ، وأنه كان يتحامل على نفسه ويهمل العلاج خوفاً من نفقاته الباهظة ، وتعجبت من أنه لم يشر إلى مرضه معى من قبل ، كأنه كان يشفق علىّ حتى من أن يشغلنى بأمره . . وهو من لم يكن له شاغل سواى .

ولم يطُلْ بقاؤه فى المستشفى ، فلقد تدهورت حالته سريعًا وفارق الحياة ، وهو يمسك بيدى ويشكرنى على «السعادة» التى منحتها له خلال السنوات التى عاشها معى . . وبكيت بحرقة عليه وأنا أتساءل فى مرارة وحسرة لا يعرف عمقها غيرى . . وأين هى هذه السعادة التى

منحتها لـه . . لقد قتلته بالإرهاق . . وبالتدريج . . وظل يموت قطعة قطعة طوال السنوات الأخيرة ، وأنا لا أحس بـه ولا أدرى ولا أشفق عليـه ولا أرحمـه ولا أرى إلا مطالبى وطلباتى ومقارناتى مع زوجات إخوتى ، والآن أبكى عليه بالدمع السخين بالساعات كل يوم . . أبكى الرجل الذى أحبَّنى بكل ذرة فى كيانه فكرهته وعذَّبته وأنكرته ، ومات قبل أن يسمع منى كلمة حب واحدة . . إن الندم يقتلنى الآن ولكن بماذا يفيد الندم ياسيدى ، لقد قررت أن أكتب إليك لتعرف كل زوجة تفعل مثلما فعلت بزوجى الطيب . . أنها ستشرب من نفس الكأس التى أشرب منها الآن ، وسينبذها الجميع بعد رحيل زوجها حين يتذكر لها الجميع ما صنعت وما فعلت ، فلا أحد فى البيت يتكلم معى حتى إخوتى الذين يتهربون الآن منى ، ويوصون زوجاتهم بعدم الاختلاط بى حتى لاتصيبهن «العدوى» منى .

وآه يا سيدى مما أحسه حين أتذكر صورته . . وابتسامته المحرجة حين كنت أقسو عليه . . وأحس أنى سألحق به قريبًا . . لكن بأى وجه ألقاه بعد أن فعلت به ما فعلت . . وهل يغفر الله لى حقاً ذلك . . إننى أستغفره كثيراً وأبكى ندمًا طويلاً . . فهل يغفر الله لى ما صنعت؟ . .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لأحد الصالحين قولٌ حكيمٌ يقول فيه : «ليس البكاء بتعصير العيون، وإنما بأن تترك الأمر الذى تبكى عليه» ! لهذا فإنى أرجو أن يكون بكاؤك على زوجك ندمًا صادقاً على ما فعلت به ، وبداية لتغيير نظرتك كلها إلى الحياة وإلى العلاقة الزوجية فى مستقبل الأيام . . فلقد فاتك الكثير حقًا خلال رحلة حياتك الماضية مع زوجك الراحل ، وآن لك أن تعرفي أنه من حسن الإيمان ألا يبخس المرء أقدار الآخرين ، وألا يسفِّه جهودهم وكفاحهم الشريف من أجله ، وألا يتعالى عليهم ويعيِّرهم بضعفهم وقلة حيلتهم وضيق أرزاقهم ، وألا يكتم الشكر لهم حين يستحقون الشكر ، والمديح حين ينبغى أن يمدحهم ، وألا ينكص عن تشجيعهم حين يلتمسون منه التشجيع والعطف . . فكتمان الشكر جحود ، وإنكار الفضل إثم . . أما البخل بالعطف على من يحتاجون إليه فهو ليس قسوة غير إنسانية فقط ، وإنما أيضاً جهل بطبيعة الإنسان الذى يحتاج دائماً إلى العطف النبيل . لقد قال عالم النفس الأمريكى آرثر جيتس : إن الجنس البشرى كله يتلهف على عطف الآخرين منذ فجر التاريخ ، والزوج الذى يشقى لإسعاد زوجته . . والزوجة التى تناضل

لإسعاد زوجها وأسرتها من أحق الناس بعطف كلٍّ منهما على الآخر لكى يهون عليهما معا عناء الحياة . . فلماذا تقسو القلوب أحيانًا على من لا يحملون لها إلا أصدق الحب ؟

ولماذا لا نعرف لهم أقدارهم دائمًا ولا ندرك قيمة نبع الحب العميق ، الذى نهلنا منه بلا حساب إلا بعد أن يفارقونا . ونتلفّت حولنا فلا نجد لأنفسنا أية قيمة إلا لدى من كانوا يتلهفون على كلمة حب أو عرفان واحدة منا فلا يسمعونها . إن زوجك الراحل لم يمت بسيف المرض والإرهاق وحدهما ، وإنما مات أيضًا بسيف النكد والنقد العقيم المستمر الذى لايفيد ولا يغير من الأمر شيئاً ، وسيف التكبر عليه وخنجر افتقاد التقدير ممن تفانى فى حبها ، وكلها أسلحة فاتكة تقصف العمر وتسرع بالهلاك ، وما شكره لك عند الرحيل إلا استمراراً لإنكار نفسه ورغبة منه فى أن يجنبك عذاب الضمير وقبولاً منه لأقل القليل والرضا به . . فأى حب عظيم كان يحمله لك وأى خسارة فادحة قد خسرتها بافتقاد هذا الحب الطاغى الفريد ؟

لقد حذرنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من أن نحاسب البشر عما لا حيلة لهم فيه ، وهو رزقهم فقال ما معناه إنه سوف يأتى على الدُّنيا زمان يكون فيه هلاك المرء على يد زوجته وولده ، يعيرونه بالفقر ويطالبونه بما لا طاقة له به ، فيدخل المداخل التى يفقد فيها دينه وخلقه فيهلك . . فاذكرى ذلك جيداً يا سيدتى ، واجعلى من ندمك على ما فعلت رجوعًا عن كل أفكارك الخاطئة وتطهرا من كل ما فعلت . . ولتكن رسالتك نوعاً من الشفاعة لك عند ربك . . والله يغفر لمن يشاء ويقدر والسلام . .

قرأت رسالة «السيف البتَّار» للسيدة التى تعترف لك بأنها قتلت زوجها بمطالبها المتواصلة لكى يوفر لها متطلبات الحياة التى تليق بها كأخواتها وزوجات إخوتها ، وبالتعالى والتكبر عليه ، حتى مات بالإرهاق والحسرة بغير أن يسمع منها كلمة طيبة واحدة رغم حبه الجارف لها .

وقد قررت أن أكتب لك قصتى لترى فيها هذه السيدة الجانب الآخر من الحياة . . فأنا سيدة عمرى 30 سنة نشأت فى أسرة متوسطة أو أقل من المتوسطة ، وأبى موظف بالمعاش ويداوم على الصلاة ، وأمى سيدة عظيمة ، ولم أرهما أنا وأخواتى يختلفان أو يتشاجران أمامنا أبدًا ، وكنت الابنة الكبرى ، وتوقفت عن التعليم عند الإعدادية رغم إلحاح أبى علىَّ لإكمال تعليمى ، واكتفيت بالالتحاق بمعهد لتعليم التفصيل . . لأنى لم أتخيل نفسى إلا أن أكون زوجة وأماً وربة بيت . . وفى السادسة عشرة من عمرى تقدم لى موظف فى الثلاثين من عمره، وتزوجته بعد فترة خطبة قصيرة ، وكان عش الزوجية الذى وفره لى هو غرفة واحدة ، وكان علىّ إذا أردت غسل الملابس بها بالغسالة أن أفك السرير ، وأكوِّم كل ما فيها من أثاث فى جانب منها لأؤدى هذا العمل ، أما المطبخ فلقد حلَّ زوجى مشكلته بأن وضع لى البوتاجاز فى شرفة الحجرة وقال لى هذا مطبخك! ناهيك عن الوقوف فى طابور طويل أمام الحمام، ومع كل ذلك فلقد كنت على استعداد لأن أتحمل

كل شىء حتى تتحسن الظروف ، لو كان زوجى قد أحسن معاملتى ، لكنه للأسف لم يُحْسن عشْرتى وبدأ يضربنى بعنف بعد أيام من الزواج كلما نشب بيننا خلاف. وَكسر لى إصبعى فى إحدى المرات ، فخرجت من عيادة الطبيب ، وأنا أحس بأنه لم تعد لى حياة معه ، ورجعت لأبى وطلبت الطلاق ، وتنازلت عن كل حقوقى وانتهى هذا الزواج الفاشل. وبعد فترة قصيرة ظهر فى حياتى شاب آخر تربطنا به صلة نسب ويعمل نجارًا مسلحًا ، وكان قد سمع بقصتى ورآنى زوجة مناسبة له ، فكان كل المطلوب منه هو إحضار الشقة ليتم الزواج لأن أثاثى جاهز ، وأنا مطلقة حزينة وسأقنع بالقليل وتزوجته بعد انتهاء عدة الطلاق بشهر ، وانتقلت إلى «عشى» الجديد فكان بالمقارنة بالأول «قصرًا» فاخراً ، فقد كان شقة مستقلة من غرفة وصالة وإن كانت بلا نافذة ولا شرفة !

وقررت أن أبذل كل جهدى لكى ينجح زواجى وأتجنب الفشل للمرة الثانية . . فإذا بى أكتشف أن زوجى هارب من الخدمة العسكرية وأنه تزوجنى ببطاقة شخصية مزوَّرة ، لأنه بلا أوراق ويخشى الاقتراب من أى قسم للشرطة ، ولا يستطيع حتى أن ينتقل من محافظة إلى محافظة لخوفه من القبض عليه ، وازدادت مشاكلنا حين غسلت من باب الخطأ بطاقته المزورة فى ملابسه فتلفت ، ثم تعرَّف زوجى على بعض أصدقاء السوء وتغيرت معاملته لى ، وبدأ هو الآخر يضربنى بعنف كلما حدث بيننا شىء . ثم انتقلت أسرتى من مسكنها القريب إلى بيت بسيط بناه أبى بتحويشة العمر ، وخشيت أن ينفرد بى زوجى ويزداد فى ضربى وإيذائى فطلبت من أبى أن يؤجر لنا شقة فى بيته لأكون فى حمايته ، وأعطانى أبى

شقة من غرفتين وصالة «وشرفة» ، وانتقلنا إليها وقلَّت مرات الضرب والإهانة قليلاً عن ذى قبل ، ثم فوجئنا بالشرطة ذات ليلة تدخل بيت أبى للبحث عن زوجى الذى لم يكن موجوداً وانزعجت أسرتى بشدة ، وفى اليوم التالى بحثت عن زوجى حتى وجدته فى بيت شقيقه الأصغر . . وللمرة الأولى منذ تزوجته ثُرْتُ فى وجهه وخيرته بين أن يُسلم نفسه للجيش ويتحمَّل مصيره ثم نعيش بعد ذلك فى أمان ، وبين أن يطلقنى ويسرحنى لأعيش حياتى بلا خوف . وفوجئت به يوافق على تسليم نفسه ويطلب منى أن أقف بجواره إلى أن تزول هذه المحنة ، ووعدته بإخلاص بأن أقف معه وألا أتخلى عنه ، وأن أتحمل كل شىء فى سبيل تصحيح وضعه ، وعاد معى لبيت أبى ليعتذر له عما سبَّبه له من إزعاج وتركته على باب الشقة ، ودخلت لأبلغ أبى بأن زوجى على الباب ويريد أن يعتذر ويبدأ صفحة جديدة فى حياته ، فهاج أبى ورفض السماح له بدخول البيت ، واتجه للباب ثائراً وأغلق الباب بعنف فى وجه زوجى الذى وقف محرجًا وفى غاية الألم . ولم أغضب من أبى وعذرته فيما فعل بسبب غضبه من دخول الشرطة بيته ، لكنى فكرت فى وعدى لزوجى بأن أقف بجواره فى محنته مهما حدث ، وقررت أن أخرج إليه واستأذنت أبى فى اللحاق بزوجى ، فغضب منى بشدة وطلب منى تركه لمصيره فاعتذرت ، وأصررت على ألا أترك زوجى فى شدته ، وخرجت وأبى غاضب وناديت زوجى على السلم أن ينتظرنى فوقف ينظر إلىَّ والدموع فى عينيه وهو سعيد وأمضينا الليلة فى بيت أحد أشقائه .

وفى اليوم التالى سلَّم نفسه إلى منطقة التجنيد ، وحُوكم وحكم عليه بالسجن لمدة عامين ، وانتهى جهادى الأصغر فى احتمال ضرب زوجى وخلافاته ، وبدأ جهادى الأكبر فى الوقوف إلى جانبه فى هذه الشدَّة ، وسألت نفسى كيف سأساعده وأنا لا مورد لى . . وقررت العمل ، وعملت عاملة تغليف فى مصنع للحلويات من 8 صباحاً إلى 6 مساء ، وتعلَّمت عملى وتقدمت فيه بسرعة غريبة حتى زاد إنتاجى من 30 كيلو جراماً فى الأيام الأولى إلى مائة كيلو جرام فى اليوم ، وبدأت أزور زوجى كل 15 يومًا وأحمل له الطعام والفواكه ، وأُلبى مطالبه من النقود التى يحتاج إليها لتدبير معيشته فى السجن . . وواصلت العمل الشاق والصعود حين يتعطل المصعد من الدور الأرضى إلى الدور الخامس ، وأنا أحمل ٥٠ كيلو جراماً من الحلوى والعودة فى المساء فى ليالى الشتاء الباردة بكل كلل . . ولا شىء يشغلنى إلا انتظار موعد الزيارة وإعداد طلبات زوجى . وكلما احتاج زوجى إلى مبلغ إضافى ليسهل عليه حياته فى السجن ، فعلت المستحيل لكى أدبِّره له ، وأخيراً زفَّ إلىَّ زوجى فى إحدى الزيارات بُشْرى قرب الإفراج عنه قبل مضى المدة فى ذكرى 6 أكتوبر ، وكدت أطير من الفرح لهذا الخبر السعيد وبدأت أستعد لخروجه بشراء ملابس مدنية له ، وفى زيارتى التالية له أبلغنى محرجًا أنه يحتاج إلى خمسين جنيهاً حتى يتم إخلاء سبيله فى نفس اليوم المحدد للإفراج، ولا تتعطل الإجراءات بضعة أيام، فوعدته بإحضار المبلغ له فى الزيارة التالية ، وأنا لا أعرف من أين أحصل عليه . . ومضت الأيام وأنا لا أجد مصدراً للنقود ولا أستطيع مطالبة أبى بالمبلغ وهو الذى

توقف عن تقاضى الإيجار منا منذ سجن زوجى ، والمصنع لن يُقرضنى مبلغاً كهذا وأنا عاملة باليومية ، وعدت من عملى فى اليوم السابق للزيارة وأنا أحس بالضيق يكتم أنفاسى ، وأدعو ربى أن «يفك ضيقتى» ويسترنى أمام زوجى الذى احتملت كل شىء من أجله . . وسبحانك ربى تجيب دعوة الداعى إذا دعاك . . فلقد عُدْتُ للبيت فوجدت خطاباً لى من عمى الذى يعمل بالخارج ، فوجدت فيه كارتًا موسيقياً بمناسبة عيد ميلادى وفى داخل الكارت 320 دولارًا هدية عيد الميلاد لى ، ولم أحتمل «المفاجأة» فصرخت وبكيت وصلَّيت ركعتين وشكرت ربى كثيراً، ودفعت له المبلغ المطلوب فى آخر زيارة ثم تركت العمل بالمصنع لأستعد لخروج زوجى وأجهز بيتى لاستقباله كأننى عروس جديدة.
ووصل زوجى إلى بيته وامتلأ البيت بالأهل والأصدقاء . . وكنت قد أعددت طعامًا طيباً وملأت ثلاجتى بحيث لا يحتاج زوجى لشىء خلال فترة الراحة . . فعشنا معًا أسبوعين من أجمل أيام العمر ، ثم خرج ليعد لنفسه أوراقًا سليمة ويعيش فى «النور» للمرة الأولى منذ عشر سنوات . .
وبدأ يعمل من جديد واستخرج لنفسه جواز سفر وجاءته بعد شهرين فرصة للعمل فى الخارج ، وبعد سفره بدأت أنظر لنفسى بعد 8 سنوات من الزواج وأهتم بموضوع الإنجاب الذى أهملته خلال السنوات الماضية ، وبدأت علاجاً منتظمًا للمرة الأولى وأبلغنى الطبيب بحاجتى لعمل منظار ، فأبلغت زوجى فانزعج لذلك كثيراً وجاء فى أجازة ليطمئن علىّ ويقف بجوارى خلاله ، وأمضى معى شهراً سعيداً وعاد لعمله ، ثم جاء ظرف حرب الخليج وانكمشت أعمال شركته فعاد لمصر واهتم بعلاجى

وأنفق مبلغاً كبيراً عليه ، ثم جاءته فرصة جديدة فى دولة أخرى فسافر ، وسمع هناك عن مستشفى خاص لعلاج العقم فأرسل يستدعينى وسافرت إليه ، وفى اليوم التالى لوصولى اصطحبنى للمستشفى وخضعت للعلاج وأجريت جراحة تكلفت الكثير وللأسف نزل الجنين بعد شهر ونصف الشهر ولم يكتمل الحمل ، وأشفقت على زوجى من النفقات التى تكبَّدها من أجلى ، ورأيت أحواله فى العمل قد اضطربت لأنه أمضى معى فى المستشفى 4 أيام وتغيب عن العمل بضعة أيام أخرى من أجلى لكيلا يتركنى وحدى حتى كاد يفصل من عمله . فقررت العودة لمصر .

ورفض فى البداية قائلاً : كفانا فراقًا لكنى أصررت حتى اضطر للموافقة بعد فترة ورجع معى فى أجازة لمدة 45 يومًا مرت سريعة كالأحلام ورجع لعمله ، وهو يعدنى بأن يصطحبنى فى المرة القادمة لمركز لأطفال الأنابيب بشرط أن تكون هذه هى آخر محاولة وبعدها ننسى معاً هذا الموضوع نهائياً ونرضى بما كتبه الله لنا ويكفينا أن كلاً منا قد وجد الآخر ووجد عنده كل ما يريده من حب وإخلاص وتضحية ، وكنت قد سمعت أن زوجى قد ثار ثورة عارمة على بعض من نصحوه بأن يتزوج مرة أخرى لينجب ، وأنه قال لهم . . إن زوجتى قد اشترتنى وتحملتنى ووقفت إلى جانبى فى فقرى ومحنتى حين تخلى عنى الآخرون . . ولن أفرط فيها أو أوذى مشاعرها إلى نهاية العمر ، فبكيت فرحاً وشكرت الله تعالى وعرفت أن ربى قد هدانى لأن أصبر على زوجى وأحتمل ما عانيته منه فى البداية ، لتكون «جائزتى»

التى تتحدث عنها فى ردودك هى الراحة بعد التعب ، والحمد لله الذى هدانا لذلك ، فزوجى طيب وأصيل وشهم ولم يكن ينقصه فقط إلا أن يرشده أحد إلى الطريق الصحيح بدليل أنه حين هرب من الخدمة العسكرية لم يُبصِّره أحد بعواقب ذلك وخطورته ، ولم يرغمه أحد على العودة وتصحيح وضعه .

إلى أن هيأنى الله له ، وهيأه لى . والحمد لله على ما أعطى ومنح ، ولقد كتبت هذه الرسالة لأقول للزوجة التى قتلت زوجها «بالمعايرة بالفقر» والتكبر والتعالى عليه إن الزوج المحب الطيب الذى يخلص لزوجته ويعمل على إسعادها هو «نعمة» كبيرة من عند الله يؤتيها من يشاء ، وإن التنكر له والتكبر عليه ومعايرته بالفقر تبطُّر على هذه النعمة يعاقبنا الله عليها بزوالها ، وأرجو أن تتعلم هذا الدرس وتستفيد به فى حياتها كما تعلمت واستفدت . . وأخيراً فقد كتبت هذه الرسالة أيضًا لأقول لك إننى بعد زواج 13 عاماً مازلت أطمع فى أن يرزقنى الله بطفل ، لأنه لا توجد امرأة على وجه الأرض لاتتمنى شرف الأمومة ، لهذا فإنى أحملك «أمانة» هى أن تدعو لى الله أنت وقراؤك بأن يرزقنى بالخلف الصالح ، ليكون هدية السماء لى بعد صبرى وشكراً لك ولهم والسلام .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

قد يُعاشر المرء الآخرين سنوات طويلةً بغير أن «يكتشفهم» ويعرف حقيقة جوهرهم ، إلى أن يواجه محّنة عاصرة فتكون كوهج النار الذى يُذيب الصدأ عن معادن البشر فتظهر له على حقيقتها إما نفيسة وإما رخيصة وفى هذا المعنى قال الشاعر العربى :

جزى الله الشدائدَ كلَّ خيرٍ

عَرِفْتُ بها عدوِّى مِنْ صديقى

وأنت يا سيدتى قد «اكتشفك» زوجك للمرة الأولى بعد سنوات من الزواج واضطراب العشرة فى اللحظة التى فتحت فيها الباب المغلق فى وجهه حين جاء لأبيك معتذراً ، وخرجت إليه لتؤدى واجب الزوجة المخلصة فى مساندة زوجها وإعانته على ما يواجهه من محن ، بعد أن أدت قبلها أحسن الأداء واجبها تجاهه ، حين أخلصت له النصح بأن يُسلم نفسه ويتحمل عواقب خطئه ليبدأ بعد ذلك حياة آمنة سليمة .

ولم تكن نصيحتك هذه له مجرد نصيحة زوجة رشيدة ، وإنما كنت تمارسين بها «واجباً دينياً» يبدو أن كثيرين قد نسوه فى زحام الحياة . .

وفي غمار انكفاء كل إنسان على نفسه - هو واجب النصيحة للمنحرف بالعودة للطريق القويم «فالدين النصيحة» وأنصح الناس لك كما قال أحد العارفين من خاف الله فيك . . أى لم ينصحك إلا بما فيه خيرك وصلاح أمرك فى الدنيا والآخرة . وأنت قد أديت هذين الواجبين فاكتشفك زوجك واكتشفته أنت أيضًا حين أنضجته نار التجربة ، وليس كالمحن نار تنضج الإنسان وترده إلى نفسه وتعينه على فهم حقائق الحياة التى كانت غائبة عنه . لهذا عرفت فى زواجك بعد المحنة شخصًا آخر غير الذى عاشرته سنوات طوالاً قبلها ، وهذه هى أهمية ألا يغلق الإنسان باب الأمل فى إمكان إصلاح من يهمه أمرهم وأهمية - ألا يسرع بالتسليم باليأس منهم قبل أن يجاهد معهم جهاد الأبطال ، ويستنفد معهم كل الوسائل لتغييرهم للأفضل ، فالإنسان - وفقا لقانون التغير الذى يقول إن كل شىء فى الحياة يتغير إلا قانون التغير - لايثبت على أفكاره وسلوكه أبداً من الميلاد حتى الممات ، وإنما يتغير بتغير مراحل العمر وتغير الظروف والأشخاص من حوله . . والعقبى دائماً للصابرين ، فلماذا نسارع دائماً ومن أول جولة برفع الراية البيضاء يائسين من تغيير من لو بذلنا بعض الجهد معهم لأمكن إلى حد كبير إصلاح بعض أمرهم ؟

إنك لو كنت قد سلمت بهذا المنطق العاجز من البداية . . لما صبرت على زوجك فى سنوات طيشه ، ولما حاولت تغييره ، ولما عرفت هذا «الإنسان الجديد» الذى تتمتعين الآن بحبه وإخلاصه وشهامته . وشريك الحياة المحب المخلص - رجلاً كان أو امرأة - ثروة لا تقدر بمال ، ويستحق أن نكافح لاستعادته إلى الطريق القويم إذا شرد

عنه ، بل ويستحق أيضاً أن نقول له مع «بوذا» : «ليت لى أربع عيون لكى أعطيك اثنتين منها» . والتبطر على شريك الحياة المخلص إثم يسرع بزواله عن صاحبه كما تزول النعم عمن لا يحفظونها بالشكر عليها .

ولا شك أن الجائزة عادلة تماماً لكل منكما . فكلاكما يستحق صاحبه وينبغى أن يحرص عليه إلى النهاية . . والدعاء لك بلا حدود بأن يحقق الله لك أمانيك الطيبة . . لكن النصيحة الأخيرة هى أن تعملى بما أشار عليك به زوجك إذا ما ثبت لكما فى النهاية وبالدليل القاطع أن الله قد اختار لكل منكما ألا يشاركه فى الآخر وليد ، وأن تقبلا هذا الاختيار وترضيا به عن اقتناع وصبر . . فبالرضا أيضًا تدوم النعم . وبغيره تتعلق النفس الراغبة أبدًا فى المزيد «بالمفقود» ، وتنسى الموجود . . ويتعكر صفو الحياة عسى الله أن يحقق لك كل آمالك ويهيىء لك من أمرك رشدًا ، وشكراً لك على رسالتك المفيدة .

هذه رسالتي الثانية إليك ، وكلي أمل أن تلقى منك اهتمامًا أكثر من رسالتي الأولى ، فمنذ عام تقريبًا كتبت إليك ورددت عليّ في باب الردود الخاصة برد موجز ، قمت من جانبي بالعمل بما جاء فيه من نصيحة وإن كنت لم أستطع تطبيقها كاملة لظروف واعتبارات خاصة ، ومع ذلك فلقد خضعت لرأيك ونفذت منه ما استطعت بقدر الإمكان .

إلى أن قرأت في بابك الحبيب منذ فترة قصيرة رسالة «اللقاء الصامت» عن المحبين اللذين فرّقت بينهما الأيام في بداية الشباب ، ثم جمعت بينهما الحياة بعد الشقاء والمرارة، فأهاجت خواطري ودفعتني للكتابة لك من جديد، لقد رويت لك من قبل أنني كنت وفتاتي نعيش في مدينة صغيرة بالأقاليم يملأ الحب قلوبنا ، ونتنفس معا عبير الأحلام الوردية والآمال العريضة في غد جميل يجمع بيننا في بيت سعيد صغير ، وكنا بالمرحلة الثانوية وأكبُرها بعامين وتعاهدنا على الوفاء والانتظار ، وكانت فتاتي جميلة وهدفًا لخطاب كثيرين ، فكانت كلما تقدم لأهلها خاطب ووافقوا عليه انتهزت أول فرصة للانفراد به وصارحته بقصتنا وبارتباطها عاطفيًا بي بل وأخبرته باسمي وعنواني ليتأكد من صدقها ، فكان أول خطابها كريمًا ونبيلاً فانسحب على الفور ، وجاءني مهنئًا ومشجعاً ومتمنياً لي حياة سعيدة معها ، وجاءني الثاني مساومًا ومستغلاً فقري وضعف موقفي كطالب لا يملك شيئا ، فلم يلبث أن انصرف عنها وعني يائسا

حين لم يجد أذنى استجابة له ، وبعد الخاطب الثانى أحسست بالخطر فتقدمت لأهلها مضطرا لأن ظروفى كطالب على أبواب المرحلة الجامعية ليست مناسبة فضلا عن ظروفى الاجتماعية غير المشجعة ، وقابلت شقيقها الأكبر رحمه الله وسامحه فيما فعل ، إذْ لم أنس حتى الآن رغم مرور السنين ما دار بينى وبينه فقد تقمَّص دور الواعظ ونصحنى بالالتفات لمستقبلى ، لأن المشوار طويل أمامى ولست أملك شيئا يعيننى على الزواج ، ورجوته أن نقرأ معاً الفاتحة فقط ، وتوسَّلت إليه أن يكون هناك أى نوع من الارتباط ولو بكلمة أو وعد إلى أن أشق طريقى ، وخاصة أن فتاتى صغيرة السن ولن يُضيرها انتظارى عدة سنوات وسوف أتخرج فى الجامعة وأعمل . . و . . فقاطعنى بأننى حتى لو حصلت على أعلى الشهادات فلن يغير ذلك من الواقع المادى لى شيئاً ، وبالتالى فلا أمل فى هذا الزواج . وغادرت بيتهم وقد استوعبت الدرس الذى ألقاه علىَّ وعرفت عدوى الحقيقى وهو الفقر ، فأقدمت على خطوة جريئة وهجرت الدراسة الجامعية قبل أن تبدأ بأيام وسافرت إلى بلد عربى مجاور لأعمل وأكسب مالاً يساعدنى على تحقيق حلمى ، وودَّعتنى فتاتى وهى تقسم لى بدموعها إنها سوف تنتظرنى إلى نهاية العمر . وبدأت فى الغربة معركتى لتغيير الواقع المادى الذى فُرض علىّ ، يلهبنى خيال فتاتى وصوت شقيقها سامحه الله وهو يقول لى أعلى الشهادات لن تغير من حالى شيئا ، وتحملت الكثير فى بداية غربتى وهمْتُ جائعا فى فترات كثيرة ، وقبلت أعمالاً حقيرة فى فترات أخرى وأحسست بفقدان آدميتى فى بعض الأحيان ، وبكيت فى وحدتى مراراً إحساسًا بهوانى

على الدُّنيا وعلى الناس ، وبعد سفرى تقدم لفتاتى الخاطب الثالث وكان أغربهم شأنا ، فقد صارحته فى أول لقاء بقصتها معى وحبها لى كما فعلت مع السابقين، فتجاهل الموضوع برمته وقال لها فى هدوء إن كل فتاة قبل الزواج لها نفس الحكاية ونفس الوهم وأن الأمر كله لا يعنيه فى شىء ، ومضى فى إتمام خطوات الزواج مع أهلها بكل هدوء معتمداً على مركزه المرموق ويسار حاله ، وقاومت فتاتى ورفضت طويلاً فكان نصيبها الزجر والضرب ، ثم هادنها أهلها ودفعوا نساء الأسرة لإقناعها بقبول الخطبة فقط إلى أن تهدأ الأمور عسى أن تغير رأيها بعد حين فإن لم تتغير أمكن فسخها فى أى وقت، وقبلت هى ذلك على مضض تخلُّصا من ضغط الأهل وإهانتهم . وفى يوم الخطبة كانت فى حجرتها بين صديقاتها . . وهم فى غرفة أخرى يعقدون قرانها بغير رأيها أو موافقتها. ورغم أن الزواج لا يجوز شرعاً بغير رضا الابنة فقد مضت خطواته إلى نهايتها وبدأت فتاتى حياتها معه راغمةً ، وكنت خلال ذلك فى غربتى أخوض معركتى ضد الفقر فعلمت بما جرى . وتصورت أنها قد خانت العهود وضعفت أمام ضغط الأهل أو الإغراء ، إلى أن عرفت بالمصادفة ومن أقرب الناس لها أنها قد تزوجت بالحيلة والغدر وليس بالقبول والإيجاب ، وظلت عاما كاملاً بعد الزواج ترفض الاعتراف به إلى أن استسلمت للأمر الواقع فى النهاية . فأحسست بنصل السكين يشق كبدى وكرهت الفقر الذى يحطم آمال المحبين من أعماقى ، وواصلت كفاحى فى الغربة بلا سعادة ولا ابتهاج بأى شىء ، وحين وضعت أقدامى على الطريق وحققت نجاحى وأصبح لى رصيد كبير فى البنك ، لم أسعد به

لحظة وإنما سألت نفسي في مرارة وما قيمة النقود حين تأتي بعد أن تنتفي الحاجة الملحة إليها ويضيع الحلم الذي تمنيتها لتحقيقه ثم استسلمت أنا أيضًا للأمر الواقع بعد سنوات وتزوجت وأنجبت ، فكان من قدري أن تزوَّجت من سيدة سليطة اللسان نكدية دائمة الشجار والعبوس ، ناقمة دائما ومتمردة على كل شيء وتوزع كلماتها البذيئة على أولادي كل يوم ولا همَّ لها إلا رصيدنا في البنك ، وأن تكون كل الممتلكات باسمها لأن الرجال ليس لهم أمان كما تقول دائمًا ، ويتمزق كبدي مرارا عندما أرى أولادي يتكوَّمون في ركن من الغرفة خائفين حين تنجح زوجتي في استفزازي فأثور رداً على سبابها البذيء ويتعالى صياحنا أمامهم ، وإني لأقسم لك غير حانث إني لم أكن يوما البادىء بالشجار ولا مثيرا للمشاكل ، فأنا باعتراف أهلها وزميلاتها زوج مثالي ، ليس لي أصدقاء يشغلونني عن بيتي ووقتي كله بعد العمل لبيتي وأولادي، والضحكة لا تفارقني رغم تعاستي ، وقد كتبت كل ما امتلكته من شقاء الغربة من أرض وعقار باسمها ، كما أني مستقيم في حياتي الخاصة ولا أترك فرصة أو إجازة لإسعاد أسرتي برحلة أو استجمام إلا وانتهزتها ، لكن معظم أو كل مشاكلنا تبدأ بصياحها وألفاظها البذيئة فأرجوها أن تخفِّض من صوتها حتى لا يسمع الأطفال نقاشنا ، وأن تهذب من ألفاظها حرصًا على حيائهم وأكظم غيظي ما استطعت مُلبيا لها مطالبها إذا كان سبب الشجار مطلبًا لها ، أو معتذرًا لها عن خطأ لم أرتكبه إذا كان سبب الشجار اتهامًا ظالمًا لي وكان هذا فيما يبدو هو سبب تماديها في المكابرة وسلاطة اللسان لأنها ترى خوفي وحرصي

على أولادى ، فتحوّلت التضحية من أجلهم إلى نوع من الابتزاز المستمر من جانبها ، أما حبى القديم فلقد انقطعت الأسباب نهائيا بينى وبينه ، فلم أعد أسمع عنها ولم تعد تسمع عنى ومضت 14 عامًا طويلة على هذه الحال . ثم قررت أنا وزوجتى أن نتخذ لنا سكنا فى القاهرة نعود إليه فى الأجازات ونستقر فيه بعد العودة النهائية ، واختارت زوجتى المسكن الجديد فى أحد أحياء القاهرة الراقية وعُدنا للإقامة فيه فى أول أجازة ، فإذا بى أراها أمامى وجهاً لوجه! نعم هى نفسها فتاتى القديمة التى حال الفقر والضعف بينى وبينها وقد أصبحت الآن زوجة وأمًا ، يقف أكبر أبنائها على مشارف الدراسة الجامعية ، وتقيم للمصادفة العجيبة فى نفس الحى بل وعلى بعد أمتار من المسكن الذى اختارته زوجتى لنا بعد بحث عميق فى طول القاهرة وعرضها ! والتقينا فى مصادفة كمصادفات الأفلام وتحدثنا طويلاً وروت لى عن حياتها ورويت لها عن حياتى ، وسلمنا بلا مقاومة ومن اللحظة الأولى بأنه لا مهرب لكل منا من الآخر وأن الحب الكامن فى الصدور قد انتفض من غفوته عملاقًا كما كان فى سن الصبا والأحلام . ولم يمض يوم خلال تلك الأجازة لم ألتق بها فيه أو لم نتحادث معًا بشكل أو بآخر ، وعدت إلى مقر عملى وتواصلت الرسائل والاتصالات التليفونية بيننا ، وبدأ أولادى بعد سبعة عشر عاما من الغربة يتمرّدون على الحياة بعيداً عن مصر ويضيقون بالحياة فى وسط غريب عنهم بلا عم ولا خال ، ويضغطون علىّ للعودة النهائية والاستقرار فى مصر بعد طول اغتراب ، وبلغت معاناتى قمتها فى العام الماضى فكتبت إليك أستشيرك فى ذلك بناء على طلب فتاتى القديمة ،

وأقول لك إننى أخاف العودة لأنى إن عدت واستقررت فى مصر فلن أستطيع أن أمنع نفسى من لقاء فتاة أحلامى القديمة مع ما يترتب على ذلك من إحساس بالإثم وتأنيب الضمير وعصيان لما أمرنا به الله بالرغم من طهارة لقاءاتنا . كما أننى لن أستطيع أن أقاوم طويلا رغبتى ورغبتها فى تحقيق حلمنا القديم فى الزواج مهما كانت العقبات ، فطلبت منى فى ردك أن أؤجل عودتى لمصر لأطول فترة ممكنة وحذَّرتنى من هدم المعبد فوق رؤوس أولادى وأولادها ، وقد عملت بشطر نصيحتك الأول وهو تأجيل العودة فأجَّلتها عامًا . واستسلمت أنا وهى لرأيك ، لكننا بقينا على اتصال هاتفى شبه يومى ورسائل أسبوعية نتشاكى فيها همومنا ، وأنصحها بالتماسك وتنصحنى بالصبر ، ونتساءل ما ذنبنا فى هذا الشقاء الذى فُرضَ علينا وماذا يجبرنا على قبول «الظلم» الذى تعرضنا له فى البداية حِين كنا ضِعافًا فدفعنا الثمن فادحًا من شبابنا وسعادتنا .

لقد جمعت الأقدار بيننا بغير أى سعى من جانبنا إلى اللقاء ؛ فتفتحت عيوننا من جديد على سعادة ومشاعر جميلة كنا نظن أنها لم يعد لها وجود فى الحياة ، وإنى لأكتب لك الآن لأسألك سؤالاً محدداً هو : هل الإنسان السوىُّ هو فقط من يُضحى بنفسه وسعادته من أجل أولاده ؟ أو ليس من الممكن أن يوفق الإنسان بين سعادته الشخصية ومصلحته وبين سعادة أولاده ومصلحتهم ؟

ثم إننى أرى أن أى تضحية يقدمها الإنسان هى نوع من أنواع البطولة ، فهل كل إنسان مطالب دائمًا بأن يكون بطلاً . . وهل يملك كل إنسان مؤهلات البطولة ؟

إننى أعلم من متابعتى لردودك مدى حرصك على الحفاظ على كيان الأسرة ، ولو تطلب ذلك تضحية الأبوين باعتبارات السعادة الشخصية فى بعض الأحيان طلبًا لسعادة الأبناء وحرصًا عليهم ، لكنى أتساءل إذا كان استمرار الحياة فى أسرة لا وجود لأى نوع من التفاهم أو التآلف بين الأب والأم فيها نوعاً من الانتحار البطىء فهل توافق على الانتحار حرصًا على سعادة أولادى ؟

وإذا افترضنا أننى أملك مقومات البطولة التى تسمح لى بالتضحية ، أليس من المفترض أن يكون لهذه التضحية عائد على أولادى فى سعادتهم واستقرارهم . . وماذا يكون الحال إذا لم يكونوا سعداء ولا مستقرين فى ظل أبوين لا تفاهم بينهما ؟

إننى لا أطلب منك فتوى بتحليل حرام أو تحريم حلال ، لكنى أريد أن تنصفنى فقط ولو على الورق وتجيبنى بحكمتك وعدلك ، أليس من حقى ومن الصالح العام أن أنهى هذا الوضع الخاطىء ، خاصة إذا كان فى مقدورى ألا أقصر فى حق أولادى وألا أجور على أمهم ، وماذا يمنع من أن أعيش الحياة التى تمنيتها وقد عشت أربعين عاماً حياةً مفروضةً علىَّ فرضًا لا أحبها ولا أريدها ابتداءً من محنة الفقر فى البداية إلى محنة الغربة إلى محنة الحرمان من الحب إلى الزواج التعيس إلى هذه المحنة الجديدة ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لست أفرض رأيى على أحد ولا أُلزم أحدًا بتضحية ، لأن التضحية عمل اختيارى لابد أن ينبع من أعماق الإنسان ولا يجوز لأحد أن يفرضها عليه ، غير أنى أومن بأن الحياة رسالة ينبغى أن نؤديها بأمانة وإن شقينا أحياناً فيها وواجب إنسانى عام يتسع لأهداف أخرى جليلة إلى جانب سعى الإنسان إلى سعادته الشخصية ، ومن أهم هذه الأهداف بل ومن أنبلها إسعاد من جئْنا بهم إلى الحياة بغير أن نستشيرهم فى إنجابهم أو نستشيرهم فى اختيارنا لمن شاركناهم الحياة ، والسعادة الحقيقية ياصديقى هى السعادة التى لا يعقُبها ألم للنفس أو الضمير أو للغير ، وهذا هو جوهر الفلسفة الأخلاقية ، أما تقييم الأمور بمعيار واحد هو ما تحققه لنا نحن وحْدنا من لذة ومتعة بغض النظر عما يترتب عليها من إيلام للآخرين أو إجحاف بحقوقهم فليس مما تستقيم به الحياة أو تترقى ، والأبناء هدف سامٍ من أهداف الحياة يستحق أن نتحمل من أجله العناء والشقاء إلى أن يشتد عودهم وتتحدد شخصياتهم وتزداد مناعتهم ضد آثار انفصال الأبوين وتمزقهم بينهم فى الصغر ، فإذا ما بلغوا ذلك ربما كان من حق الإنسان ، إذا لم يشأ أن يتلطف

بأبنائه أن يتخلص منشرة «من لا يوافقه ولا يفارقه» وأن يطلب سعادته مع من يحب ويرغب ، أما قبل ذلك فإن كان سعى الأب للزواج ممن يحب مما لا يحرمه الله فهو أيضا مما لا يمنح عنه الجوائز . ذلك أن الأوسمة دائما للمضحين بأنفسهم من أجل أبنائهم ومن أجل أهداف الحياة الشريفة الأخرى .

ورغم ذلك فلا أحد ينكر الضعف البشرى أو يرفض الاعتراف به ، فالقلوب فى النهاية بيد خالقها ، لكننا فقط نطالب من يتعرض له أن يُغالب نفسه طويلاً وطويلاً وبإرادة من حديد ، وأن يتذكر فى ذلك قول الرسول الكريم : «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه والمجاهد من جاهد هواه» .

وأن يتجنب التصرفات والمداخل التى تساعد ضعفه على أن يتمكن منه ، ويزداد لهيبه وأن يلتصق بأبنائه بل وبزوجته ولو كره منها الكثير مُحْتميا بهم من هوى نفسه ونزعاتها ، فإن عجز بعد كل هذا وفقد قدرته على المقاومة كان مما يرد عنه الاتهام بالأنانية أنه قد جاهد نفسه طويلاً . . فلم ينتصر عليها وإنما انتصرت هى عليه وهزمته .

أما المسارعة برفع الراية البيضاء من أول جولة ، دون تقدير للعواقب ولا مراعاة حقوق الآخرين أو اعتبار لما سينالهم من شقاء وتعاسة ، فليس سوى استسلام خائر لأهواء النفس لتتلاعب به كما تتلاعب الأمواج بسفينة بلا شراع .

والنفسُ بالغةٌ فى شرٍّ صاحبها

ما ليس تبلغه بيضٌ ولا سمرُ

لهذا فقد نصحتك حين كتبت إلىّ منذ عام بأن تؤجل عودتك لمصر ما استطعت وأن تتوقف عن كل اتصال بها وتقاوم حتى النهاية حتى لا يدفع أبناؤها وأبناؤك ثمن أخطاء أهلهما . . وتصاريف الأيام ، وها أنت تعود إلىّ بعد عام لتقول لى إنك مصر على ما تريد وتطرح علىَّ أسئلة تثير التأمل عن حق الإنسان فى السعادة وقدرته على التضحية . . وقدرته على الموازنة بين سعادته وسعادة أبنائه . ولست أستطيع أن أشير عليك أن تطلقها من زوجها وتتزوجها ، لأن هذا فوق طاقتى على تقدير الضعف البشرى والاعتراف به ، إذ لو كانت مطلقة فعلا قبل أن تلتقى بها أو أرملة لما ترددت فى أن أنصحك رغم معارضة ذلك لمبادئى بأن تتزوجها على الفور مع الاحتفاظ بزوجتك وبيتك ، لأنى قد لمست فعلاً عمق معاناتك وصدق العاطفة التى تجمع بينكما لكن ماذا نفعل ورسولنا الكريم يقول لنا ما معناه : ليس منا من خبَّب أى «أفسد» امرأة على زوجها ، وما ذنب أبنائها فى سوء تصرف أسرتها معها ومجافاتهم لروح الشريعة وروح العدل وفى سوء ظروفك أنت فى بداية الشباب ، إن أقصى ما أستطيع أن أقوله لك هو أن أمامك خيارين لا ثالث لهما : الأول هو أن تتوقف تماما عن كل اتصال بها ، وفى أسرع وقت وتختار طريق التضحية من أجل أبنائك والصبر على تعاستك ، والثانى هو أن تصحح هذا الوضع الخاطىء وتُعْفى نفسك وتعفيها معك من إثمه وليرع الله أبناءها وأبناءك وبشرط ألا تهدم بيتك فى سبيل ذلك أو تطلق زوجتك؛ إذ يكفى أن ينهدم بيت واحد قربانًا لتحقيق هذا الحلم القديم .

فاختر لنفسك ما تشاء . . فإن أردت وسام المتعففين المضحين من أجل أبنائهم . . فرشّح نفسك له . . وإن أردت سعادة المحبين على حساب تعاسة الأقربين فالله رب قلوب فى النهاية ولا حرمة فى حلال ولو دفع الأبرياء ثمنًا غاليًا له .

شيء واحد فقط أنصحك به بلا تردد هو أن تحزم أمرك على الفور لتنهى هذا الوضع الآثم . . إن تعففًا . . وإن استسلامًا لما أرادته القلوب والسلام.

قرأت في ردك على رسالة «الباب المغلق» التي نشرت منذ أسابيع ، بضعة سطور كانت هي التي دفعتني لأن أكتب لك رسالتي هذه ، أما السطور فقد كانت تقول إنه ينبغي ألا يغلق الإنسان باب الأمل في إمكان إصلاح من يهمه أمرهم وألا يُسرع بالتسليم باليأس منهم قبل أن يُجاهد معهم جهاد الأبطال، ويستنفد معهم كل الوسائل لتغييرهم للأفضل . . وأما قصتي فهي أني طبيب متزوج منذ ثلاث سنوات ، وعندي من فضل الله عليّ طفل وطفلة ، وأخرج من البيت في الثامنة صباحًا وأظل أتنقل من عمل إلى عمل حتى منتصف الليل أو ما بعده ، جريًا وراء لقمة العيش الحلال . وأنا ناجح في عملي ومحبوب بين زملائي واجتماعي ، لكني أعود إلى بيتي مجهدا لأستريح وأسكن إلى زوجتي التي تشاركني حياتي ، فلا أجد منها سوى التكشيرة الأزلية بلا سبب واضح ، أقول لها السلام عليكم فلا ترد التحية ، وأكررها ولا تجيب ، وأسألها عن سبب التكشيرة الكبيرة فلا تُجيبني ويستمر حالنا هكذا خمسة أيام وأكثر ، ثم تتنازل وتتكلم معي وتبوح لي بالسر الخطير وراء تكشيرتها لمدة 5 أيام كاملة . . فإذا به أشياء تافهة لا يتوقف عندها أحد سواها كالعادة .

لقد تزوجتها دون اقتناع ، ومنذ الأيام الأولى بدأت بيننا المشاجرات وشكوت لأهلها وإخوتها وعقدنا جلسات عديدة للصلح ، ونتصالح فلا تمر أيام حتى يعود النكد من

جديد، وكل ما أطلبه تخالفه ولا تستجيب له في كل شيء وفي كل مجال . طلبت منها ألا تخرج من البيت بغير إذني ، لكنها تخرج ولا تبالي باستئذاني فتحدث المشاجرات وتقسو عليّ بالكلام الجارح ، حتى جاء يوم تهورت فيه عليّ وصفعتني على وجهي ، ولم أتخذ موقفًا أملاً في الإصلاح ، فتمردت وتمادت في الاستهزاء بي ، والنتيجة هي أني دائما غير مستريح في حياتي ورأسي يدور باستمرار ، وقد توسلت إليها أن تُعفي نفسها وتُعفيني من هذا النكد المستمر ، دون جدوى ، وقلت لها إنني أفحص المرضى وأريد شيئًا من راحة البال حتى لا أخطيء في عملي ، بلا فائدة ، ومنذ أيام وجدت زوجتي لا تكلمني فجأة بلا سبب، ودخلت إلى البيت وحيَّيتها فلم ترد التحية كالمعتاد ، وفي اليوم التالي خرجت إلى عملي وعدت في المساء فلم أجدها في البيت ، ولم أجد الطفلين ، وعرفت أنها ذهبت إلى بيت والدتها غاضبة كالعادة ، ونمت مكتئبًا وفي الصباح اتصلت بها وعاتبتها لذهابها إلى بيت أسرتها دون أن تبلغني بنيتها للهجر والخصام ، حتى ولو تليفونيا ، فأجابتني بأن «مزاجها كده» . . فطلبت منها ألا تصعِّد الموقف بيننا فأجابتني بأنها تتمنى تصعيده ، فتحدثت مع والدتها ، وأثناء حديثي معها وجدت زوجتي تطلب منها إغلاق السماعة وانتهت المكالمة .

والآن أجلس إلى نفسي وحيداً في بيتي الخالي من زوجتي وطفليَّ ، فأجدني أمام زوجة لا تريد أن تعيش ولا تحترمني أمام أي إنسان ، وتهزأ بي باستمرار وتعايرني بأني غير قادر على توفير المزيد لها من الماديات ، مع أن دخلي من اللهث دائما من مكان إلى مكان حوالي خمسمائة

جنـيه ، ولا تشكـر ربهـا على نعمته عليـنا بطفلينا والحياة المعقولة ، ولا تشكرنى على جهادى من أجلها ومن أجل طفلينْا ، وكلما جاهدت معها لكى نلتقى فى منتصف الطريق أجدها تبيعنى باستمرار . لقد تهالكت صحتى من الجرى من مكان إلى مكان ، وابيضّ شعرى ومنذ أيام اكتشفت إصابتى بالسكر وضغط الدم من الإجهاد والنكد المستمر والحياة فى عناء دائم . لقد قررت ألا أُطالبها بالعودة وألا أذهب لإعادتها كما حدث قبل ذلك ، وأن أتركها فى بيت أسرتها شهراً أو شهرين ، لأنها هى التى هجرت بيتها واصطحبت معها طفلينا ، ولن أجرى وراءها كما جريت من قبل ، فما رأيك فى ذلك ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

رأيي يا صديقى أنه كان ينبغي عليك أن تتخذ «موقفًا» حاسمًا حين تطاولت عليك زوجتك وصفعتك ، لأن التخاذل فى مثل هذه الأمور لا يندرج تحت مفهوم التمسك بالأمل فى إصلاح من يهمنا أمرهم ، وإنما يندرج تحت مفهوم التفريط فيما ينبغى أن يكون للزوج والأب من كرامة وولاية على أسرته . وأيا كان الخلاف بين الزوجين فإنه ينبغى أن يجرى دائمًا فى إطار الاحترام للكرامة الإنسانية لكلا الطرفين ، وبما لا يترك جروحًا غائرة فى النفوس قد لا يضمِّدها الاعتذار ولا تُشفيها العشرة . ولقد مضى ما مضى ودفعت أنت الثمن من صحتكً وراحة بالك ، ومغالاة زوجتك فى الاستهتار بك وعدم حرصها عليك . لهذا فإنى أوافقك فى أنك لست مطالباً بالمسارعة إليها واسترضائها ، بل إنى لا أنصحك بذلك لأن من لا تحرص على الحياة لا ينبغى أن توهب لها الحياة ، ولأن المحافظة على الحياة الزوجية مسئولية مشتركة للزوجين ، وليست مسئولية طرف واحد على حساب كرامته وحقوقه . . فَدَعْها لنفسها هذه المرة بعض الوقت . . وضَعْها أمام مسئوليتها عن سعادة هذين الطفلين اللذين تقامر هى بسعادتهما ومصلحتهما لأسباب

مزاجية غير مفهومة، ولا تُظهر أى لهفة على استعادتها لبيتك، لأن البعض منا يتمادى فى التبطُّر كلما توهم أنه لا غنى عنه للطرف الآخر، وهذا سر ما تقوله من أنها تبيعك دائما فى نفس الوقت الذى تحاول أنت فيه إرضاءها . وتحمل ظروفك برجولة . . وأداء واجبك تجاه طفليك من الناحية المادية والنفسية، واطلب أن تراهما من حين إلى آخر أو زُرْهما بغير أن تفاتح زوجتك فى العودة أو الصلح . فإذا تدخل الأهل لإعادة المياه إلى مجاريها بينكما، ضع أنت شروطك للعودة وأولها أن تحترمك زوجتك ليس فقط أمام أى إنسان بل وأمام نفسك أنت قبل كل البشر . . وألا تخرج من بيتها بغير إذنك ولو كان هذا الآن ضمنيا . . وأن تتقبل حياتها . . وترضى بما هو متاح لها فيها . . وأن تشجعك على كفاحك لإسعادها وتقدره لك، وألا تهجر بيتها لأى سبب من الأسباب . . وأن تخاصمك إذا كان لابد من الخصام فى بعض الأحيان فى بيتك وليس بهجره، وأن تغير من نفسها ومن مزاجها الامتعاضى المتسخِّط الذى يكسو وجهها بالعبوس معظم أيام السنة، كأنما ترى نفسها «ملكة» وُضعتْ خطأً فى غير مكانها الصحيح، وهذا للأسف حال بعض الزوجات وبعض الأزواج أيضًا الذين يظلون غارقين فى هذا الوهم، إلى أن تهوى على رؤوسهم مطارق الحياة وتذكِّرهم بأنهم بشر عاديون لا يميزهم عن غيرهم شىء إن لم يقلوا عنهم، وبأن الحياة قد سخت عليهم بما لم تمنحه لبعض من هم أفضل منهم ويتلهفون على بعض ما ناله المتسخِّطون .

فافعل ذلك يا صديقى فإن لم تقبل زوجتك فلا بأس بأن تجرب هى لفترة من العمر مرارة الحياة كمطلقة ذات طفلين ، لتعرف بالتجربة أن أسوأ ما كانت تتسخط عليه أفضل كثيرا من أكبر مميزات حياتها الجديدة ، كحال البعض منا الذين لا يقتنعون أبداً بخطر الشرارة التى تقترب منهم إلا بعد أن تحرق جلدهم . . فيتنبهون إلى ضرورة الابتعاد عن طريقها أو إطفائها ، وهذه هى بلادة الحس وسوء التقدير وقمة الغباء البشرى .

لقد كان الجُنيد إمام الصوفية الكبير يقول إن الزوجة «قوت وسبب لطهارة القلب» . لكنه إذا كف شريك الحياة عن أن يكون سببا لطهارة القلب وتحول إلى «أسباب» للشقاء والأمراض والانكسار النفسى ، فإن من واجب الإنسان أن يسعى لإصلاحه قدر الجهد ، وألا ييأس من ذلك . . فإذا تيقن من عدم جدوى المحاولة بعد طول جهاد . . فليدعْ للأيام أن تُتم ما بدأه وتُلقن دروسها القاسية للغافلين ، وهذا ما أنصحك به إذا فشلت فى النهاية كل محاولاتك للإصلاح . . وإذا لم تكن فترة الهجر هذه كافية لمراجعة النفس ولبدء صفحة جديدة فى حياتكما مع نصيحتى الأخيرة لك بأن تتجنب أنت بقدر الإمكان أسباب الشقاق ، وبألا يكون لزواجك منها «عن غير اقتناع» كما تقول فى رسالتك أثر فى تعقيد العلاقة بينكما وشكراً . .

أرجو ألا تتهمني أنت أيضاً بالجنون أو تتفق مع رأى أمى فيّ، وهو أني كما تقول باحثة عن النكد والشقاء ولا ينفعني إلا أكل الحصْرُم! والقصة من البداية هى أنى سيدة عمرى 37 سنة أعمل بالتعليم ومتزوجة منذ 15 سنة من رجل فاضل، كان حين تقدم لخطبتى معيداً بنفس الكلية التى أدرس فيها، وتزوجنا بعد تخرجى مباشرة وكان كما عرفته خلال الخطبة رجلاً رائعاً وحنوناً وكريماً ومهذبًا وميسوراً من الناحية المادية، وفى صبيحة اليوم التالى لزفافى فتحت عينى وأنا مازلت فى الفراش فرأيت مشهدا من مشاهد الأفلام الغرامية التى طالما حلمت بها فى صباى.. فلقد رأيته واقفًا أمامى فى بيجامته الحريرية حليق الذقن تفوح منه رائحة الكولونيا باسم الثغر.. ويحمل فى يده صينية الإفطار فضحكت فى سعادة، ووضع الصينية على الفراش بيننا وجلسنا نتناول الإفطار فى بهجة.. ثم نهض قبل أن أتحرك فحمل الصينية وذهب إلى المطبخ وأفرغ بواقى الأطباق وغسلها وغسل البراد والأكواب والشوك والسكاكين ووضعها بنظام فى أدراج المطبخ، فازدادت سعادتى بهذا الزوج الرائع، وفرحت لأننا سوف نتعاون معًا فى كل شىء من أعمال المطبخ والبيت إلى كل شئون الحياة، وبعد قليل استقبلنا المهنئين، ففوجئت به يُسرع أيضًا إلى المطبخ ويعد أكواب الشربات والشاى وفناجين القهوة ويقدمها للضيوف

بسعادة فازددت به اختيالاً . . وبعد انصرافهم جمع كل الأوانى فى المطبخ وقام بغسلها رافضاً أى مساعدة منى فى ذلك ، ومؤكداً لى أنه لا يريد أن يتعبنى فى أى شيء وتكرر ذلك فى المساء أيضًا ، ومضت الأيام الأولى من شهر العسل وأنا لا أفعل شيئاً من شئون البيت . . ولا أستطيع أن أفعل إذا أردت ، فهو يطهو الطعام بيديه ويقوم بكل عمليات الطهو من غسل الخضر إلى إعداد اللحم وطهو الأرز إلى وضع الطعام على المائدة . . إلى رفع الأطباق وغسلها وغسل الحلل وتجفيفها ورصها بعناية فى موضعها كما يغسل الملابس وينشرها . . وينظف الشقة ويلمع قطع الأثاث ويسوى الفراش بعد النهوض من النوم . وقد سعدت بذلك كثيراً . . وأدركت منه مدى محبته لى وحرصه على ألا أفعل شيئًا طوال شهر العسل لأتفرغ للعناية بنفسى وزينتى . . ومباهج الحياة الجديدة . لكن شهر العسل انقضى ولم يتغير شيء من سلوكه فى البيت بل ومضت الشهور والسنوات وأنجبنا أطفالاً والحال على ما هى عليه ، فلقد تولى أيضاً من اللحظة الأولى كل شئون الأطفال من إعداد الرضعات إلى نظافتهم وغسل ملابسهم . . إلخ .

وأصبح المعيد الشاب مدرسًا مساعدًا بكليته ثم مدرسًا ثم أستاذًا مساعدًا وعالمًا له أبحاثه ومؤلفاته ، ولم يتغير شيء فى نظام حياتنا فهو مازال يطهو الطعام ولا يسمح لى بمد يدى إليه . . وإذا تجرأت ودخلت المطبخ ولو لعمل كوب من الشاى ثار وغضب وأفرغ الشاى فى الحوض ليصنعه هو بدلاً منى ، ومازال زوجى حتى الآن وهو الأستاذ الجامعى والباحث يصر على ألا يغسل أحد الملابس سواه وعلى ألا يكويها غيره

. . ولا يخجل من وقوفه فى الشرفة أمام الجيران وبجواره آنية الغسيل البلاستيك يلتقط منها الملابس المغسولة، وينشرها بعناية و«يحبك» المشابك عليها وهو فى قمة الابتهاج والاهتمام ، أما قبل الأعياد فهو يحصل على أجازة يومين من عمله، لأن «عنده تنظيف الشقة والتنفيض» بالمنفضة المصنوعة من جريد البامبو ، وفى شهر رمضان يصنع المربى والبسكويت والحلويات ، وقد جاءنى منذ يومين والفرحة تملأ وجهه ، ليخبرنى سعيداً بأنه قرر أن يصنع كعك العيد هذا العام فى البيت ، لأنه أرخص من شرائه من المحلات فكدت «أرقع» بالصوت من غيظى ونكدى ! يا سيدى إننى لا أنكر أنه زوج مثالى تحسدنى عليه كثيرات ولا أنه أب رائع لأولاده ومهذب ولم تصدر عنه كلمة واحدة تغضبنى منه منذ زواجنا حتى الآن ، لكنى لا أشعر معه بأنى ربة بيتى منذ تزوجنا ، وإنما نزيلة فندق صغير تستمتع فيه بالخدمة الكاملة من جانب العاملين به ، ولست أكره أن يساعدنى فى أعمال البيت ورعاية الأطفال فهذا أمل كل زوجة فى العالم ، لكنى أكره أن يقوم هو وحده بكل ذلك دونى ، وكلما اشتكيت من ذلك قال لى باسمًا إنه يريد راحتى ، حتى أصبحت أكره ابتسامته هذه وأكره وقوفه فى الشرفة وهو ينشر الغسيل ، وكلما شكوت لأمى اتهمتنى بأنى «فقرية» وغاوية نكد وتعب وقالت لى إن زوجى هذا تحسدنى عليه أخواتى ، لكنى لا أريد هذه الراحة وأكاد أطق من الغيظ فماذا أفعل مع هذا الزوج المثالى الذى سوف «ينقطنى» بمثاليته . . هل أتركه بضعة أيام حتى تستريح أعصابى فى بيت أمى خاصة أنه يقوم لنفسه بكل شىء . . أم ماذا أفعل لكى يكف عن اعتبارى «ضيفة» عليه

فى البيت الذى يديره ويقوم فيه بكل شئونه على حساب الوقت الذى ينبغى أن يخصصه لأبحاثه ودراسته ؟

للشاعر الهولندى المعروف باسم الأب كاتس (1577- 1660) عبارة جميلة تقول : ينقلب البيت رأسًا على عقب حين يسكت الديك . . وتصيح الدجاجة !

والمقصود بالعبارة هو أن الحياة الزوجية تختل بالفعل حين لا يقوم كل طرف من أطرافها بالدور الذى تؤهله طبيعته لأدائه أو حين يحاول القيام بدور مخالف تمامًا لهذه الطبيعة . ولا شك أن التعاون بين الزوجين فى كل شئون الحياة بما فيها الأعمال المنزلية بدافع من التراحم واستشعار المسئولية الجماعية عن الأسرة ، مما يوثق الروابط بينهما ويجدل خيوطها بحيث تتشابك وتتدعم ويصعب فَصْمها ، لكن هناك فارقًا كبيراً بين التعاون والتطوع بالمساعدة ، وبين تبادل الأدوار . . أو إلغاء دور أحد الطرفين إلغاء تامًا وتحويله إلى نزيل فى «فندق» يعنى بخدمته بنظام خدمة الغرف فى فنادق الدرجة الأولى . . إلى مالا نهاية وبلا داع من مرض عابر مثلاً . فهذا شيء آخر مخالف للطبيعة . . وخارق لكل

مألوف . وإذا سعدت به المرأة بعض الوقت في البداية إيثاراً للدعة أو استمتاعًا بالراحة ، فإن الزوجة الطبيعية تفضل في النهاية أن تكون ربة بيتها وسيدة مملكتها الصغيرة ، ولا تسعد بما يغير من هذا الوضع حتى ولو غبطتها عليه الأخريات ممن يتحملن عناء كل شيء في حياتهن بلا أدنى مساعدة أو تقدير من شريك الحياة . . فلا هذا وضع طبيعي . . ولاذاك وضع عادل ومنصف ، ولقد كان الرسول الكريم وهو مَنْ هو لا يترفع عن أن يساعد زوجاته فيما يشق عليهن من أعمال البيت ، وقالت عنه السيدة عائشة حين سُئلت عن صنعه في بيته :

كصنع أحدكم يشيل هذا ويحط هذا ويخدم في مهنة أهله ويقطع لهن اللحم ويقم البيت «أي يكنسه» ويُعين الخادم في خدمته . صلى الله عليه وسلم .

لكنه من ناحية أخرى وهو يفعل هذا حبًا وكرامةً قد حكم بين ابنته فاطمة وزوجها الإمام علي بن أبي طالب حين شكت إليه من ثقل أعمال البيت وهي وحيدة بلا معين ، فحكم علي فاطمة بخدمة البيت ، وحكم على عليٍّ بكسب النفقة وإعالة الأسرة . وهذا هو الوضع الطبيعي . . وهو لا يمنع من تعاون الزوجين فيما يخفف عنهما من عناء الحياة كأن تعين الزوجة زوجها على أعباء الحياة المادية ؛ إذا شقَّت عليه وأن يعين الزوج زوجته على أعباء البيت حين تحتاج لمعونته ، وفي إطار ما أهلت الطبيعة كلا منهما له ، أما المغالاة فإنها تخرج بالإنسان عن جادة الاتزان وتثير المشاكل بدلاً من أن تسهم في حلها . . والغلو أي الشطط وتجاوز القصد مرفوض ومذموم في كل شيء حتى في الدين ، فكيف بأعمال البيت ؟

أما الاعتدال فهو مطلوب دائما فى كل أدوار الحياة حتى فى «مثالية» الأزواج من نوع زوجك ، لأن الطبيعة كما يقول الشاعر الهندى طاغور قد «خلقت خليجًا فاصلاً بين الجنسين لكى تضمن استمرار التجاذب المتبادل بينهما» فإذا اختفى هذا الخليج الفاصل بين طبيعة الجنسين ضَعُفَ التجاذب . . وحلَّ الفتور ولا شك أن زوجك رجل مثقف ويعرف أن ما يفعله ربما يكون بلغة علم النفس - ناتجا عن «اضطراب التحكم فى نزعة ما غير مصنفة فى الاضطرابات النفسية المعروفة» ، لكنها نزعة غلابة تدفعه لأداء دور ليس مطلوبًا منه أداؤه بل ويُغضب من يحاول إرضاءهم به ! كما لابد أنه يعرف أيضًا أنه من المحتمل أن يكون لوسواس النظافة القهرى دخل أيضا فى إصراره على أن يفعل كل شىء بيديه . . اعتقاداً منه أن لن يحس بالأمان إلا إذا صنعه بيديه بدليل حكاية إفراغ الشاى فى الحوض لأنه لم يصنعه بيديه ! وسواء نجح فى مقاومة هذه النزعة الغلابة وهذا الوسواس بالاستعانة بالمشورة النفسية المتخصصة أو لم ينجح فلا شك أنه شديد الحب لك والحرص عليك . . فحاولى أن تتوصلى معه إلى حل وسط بالتفاهم أو بإقناعه بطلب النصيحة النفسية المتخصصة على الأقل ، لكى يتفرغ لما هو أهم من نشر الغسيل وحبك المشابك عليه . فإن لم يستجب لكل ذلك فلا مفر من التعايش مع هذه «المشكلة» التى قد تتمنى ألوف الزوجات أن يبادلنك عنها بمشاكلهن مع أزواجهن فامسكى الخشب رغم كل شىء . . وترفَّقى بزوجك . . إلى أن ينجح فى التخلص من وسواسه ونزعته واستمتعى «بخدمة الغرف» هذه إلى أن تتغير الأحوال تدريجيا . . وأرجو مخلصا ألا «تندمى» ذات يوم على تخلصه من تلك النزعة . . وهذا الوسواس !

أكتب هذه الرسالة وأنا «أغلى» بالغيظ بعد قراءة رسالة «الفندق» التى «تشكو» فيها كاتبتها من أن زوجها يقوم عنها بكل أعمال البيت من المطبخ إلى الغسيل إلى نشر الملابس المغسولة إلى تنظيف البيت . . إلى عمل الكعك بيديه ولا يسمح لها بأن تدخل المطبخ لتصنع كوبا من الشاى، حتى إنها تشعر بأنها ليست ربة بيت وإنما نزيلة فى «فندق»، فما إن انتهيت من قراءة هذه الرسالة حتى كدت ألطم . . وأصرخ قائلة لها : حرام عليك أن تقتلينى غيظًا وكمداً بمثل هذا الكلام، وقررت أن أقدم لها صورة مختصرة جداً لحياتى وبعدها سوف أسألها سؤالاً واحداً. فأنا زوجة عمرى 35 عامًا مثلها ومتزوجة منذ 15عامًا ، وعندى ولدان ، ونظام حياتى كل يوم كالتالى : أصحو من نومى مبكرة فأؤدى واجبات طفلىّ وأعد لهما الإفطار وأشرف على نظافتهما وملابسهما إلى أن يخرجا للمدرسة . . وبعدها مباشرة أبدأ بالغسيل فأضع الملابس فى الغسالتين وأديرهما . . وأتركهما جريًا إلى المطبخ لأغسل أوانى المساء ثم أطوف بغرف البيت واحدةً واحدةً أنفض هذه . . وأمسح تلك . . وأخرج مفروشات ثالثة ، وأنظف كل غرف البيت ما عدا غرفة واحدة وهى حجرة «البيه الملك» التى لا أستطيع أن أقترب منها قبل أن يصحو من نوم العافية بكل أمان واطمئنان الساعة 2 أو 3 بعد الظهر ، وذلك فى غير أيام شهر رمضان ! وقبل أن يصحو أظل أجرى بين الحمام والمطبخ

ونشر الغسيل وغرف الشقة ، وأختطف ساعة من الزمن أنزل خلالها جريًا لأشترى طلبات البيت لكى يكون اللبن جاهزًا وساخنًا قبل أن يصحو زوجى . وحين يصحو يبدأ البرنامج الثانى من يومى فعندما يفتح عينيه يجلس فى الفراش ثم يصفق بيديه كأنه فى مقهى فأهرول إليه بكوب اللبن الساخن فيشربه فى مكانه . . ثم أهرول لأخلى الحمام من أدوات الغسيل وأسخن الماء وأعود إليه بالشبشب وأضعه جانب السرير . . فيقوم إلى الحمام فى جلال وأدخل وراءه لأساعده فى خلع ملابسه . . وأضع له الملابس النظيفة . . وأساعده فى ارتدائها ، وينتهى الحمام بالسلامة فيعود إلى غرفة النوم ويجلس على السرير مرة أخرى لكى يشعر ببعض الدفء ، وخلال لحظات أكون قد عُدْتُ إليه بصينية الطعام فيأكل بالهناء والشفاء وهو جالس أيضاً بجوار السرير . . وثوان أخرى وآتى بالشاى . . ثم وأقسم بعزة الله آتيه بعد ذلك بالحذاءً والجورب ، وأنحنى لأضع له الجورب فى قدميه حتى لا يكلف نفسه مؤونة أن ينحنى لارتدائه . وكذلك الحذاء . . ثم يجلس على طرف الكنبة لأسرِّح له شعره وليتنى أفعل ذلك بنفس أو ليته يشكرنى على ذلك أو يتقبله منى بعطف ، وإنما أفعله مرغمة وأنا أبكى بغير دموع ويتقبله هو منى بكل عجرفة كأننى جارية . . ولا ينادينى سوى بيا : إنت هاتى الماء . . والكوب إلى جواره وأسرع من المطبخ لأقدمه له ، وأخيراً ينتهى من غدائه وملابسه فينزل إلى عمله . . وهو لسوء حظى محل تجارى فى نفس البيت الذى نسكن فيه . . ومنذ نزوله لا تتوقف طلباته وكل عدة دقائق يرن الجرس : إعملى شاى . . أرسلى صينية طعام عندى ضيف ،

فإذا كان صبى المحل فى مشوار خارج المحل أنزل بالطلبات ثلاثة أدوار لأقدمها له وقد أنزل وأصعد السلالم بالطلبات 8 أو 9 مرات فى اليوم الواحد . . وكل ذلك ولم أحدثك بعد عن خدمة الولدين وطلباتهما وهما للمصيبة صورة مصغرة من أبيهما . . هاتى . . اعملى . . خدى . . . طوال النهار فإذا نهرت واحداً منهما وأمرته أن يصنع لنفسه ما يريد وسمعنى زوجى كانت ليلتى سوداء ، فيشخط فىّ أمامهما ويسألنى وما فائدتك إذن ؟ وهكذا أظل طوال يومى واقفة أتحرك من مكان لمكان أو أؤدى عملاً لزوجى أو للبيت أو للأولاد ، ثم ينتهى أخيراً يوم الشقاء ويعود زوجى ومن أول لحظة بعد دخوله من الباب لا أسمع منه إلا الأوامر الجافة خذى - هاتى - روحى تعالى ، ويدخل غرفة النوم ليخلع ملابسه فأقف معه لأساعده فى خلعها وأنحنى لأخلع له الحذاء والجورب . . وأنحنى مرة أخرى لأساعده فى ارتداء بنطلون البيجامة وليتنى أسمع خلال ذلك كلمة طيبة . بل الشخط والنطر والعجرفة ، وإذا استدعيت ابنة أختى الصغيرة لتساعدنى فى يوم عمل زائد يغضب ويثور ، ويأمرنى بألا أكرر ذلك مرة أخرى ، وهكذا يفعل مع كل إنسانة يمكن أن تساعدنى . . وبعد كل ذلك فإذا عاد ذات مرة فى الليل فوجدنى نائمة غلبنى النوم والإجهاد على غير إرادتى ، فإنه وعزة جلال الله لا يوقظنى إلا رفساً بقدمه وهو يسبنى لكى أقدم له العشاء والشاى ، وأقف بين يديه وفى خدمته وتحت أمره حتى الفجر إلى أن ينام نوم العافية لما بعد ظهر اليوم التالى ، وأصحو أنا بعد 3 أو 4 ساعات لأعد ولدىَّ للخروج للمدرسة وأكرر برنامج الشقاء من جديد ،

وإذا اعترضت أو طالبته بالرحمة كان نصيبى منه الضرب والإهانة والتهديد بالطرد وتسألنى : ولماذا أتحمل كل هذا الهوان ؟ فأجيبك بأنه أولاً من أجل الولدين اللذين يبلغ أكبرهما عشر سنوات، أما ثانياً فهو إلى أين أذهب إذا خرجت من بيته . . وأنا لا أحمل أى شهادات ولا أعرف سوى القراءة والكتابة بهذا الخط الردىء وأهلى فقراء فى غاية الفقر . . ولا ملجأ لى ولا مورد ؟

وبعد كل ذلك تأتى هذه السيدة كاتبة الرسالة لتفقع مرارتى وتشكو من أن زوجها يقدم لها الإفطار فى الفراش . . ويغضب إذا صنعت كوباً من الشاى ويُفرغه فى الحوض لكى يصنع هو بدلاً منه . . ولماذا ؟ علشان مش عايزك تتعبى فى أى حاجة ياحبيبتى! وسؤالى لها هو : هل تحب أن «أدعو» لها بأن يتغير زوجها ليصبح مثل زوجى وتتمتع هى بإحساس ربة البيت ؟!

يا سيدى قل لها أن تشكر ربها على ما هى فيه من نعيم وبغددة . . وقل لزوجى أيضا كلمتين من كلامك الجميل لعله يتقى الله فىّ ويعاملنى كزوجة وأم وإنسانة وليس كحيوانة ، وأرجو أن تُعيد عليه ما قلته فى ردك عن معاملة الرسول الكريم لزوجاته ورحمته بهن . . فلقد أثارت كلماتك عن مساعدته لهن حتى فى بعض أعمال البيت مواجعى . . كما أثارت رسالة تلك السيدة غيظى . . وشكراً .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

إذا كنت قد اخترت لرسالة السيدة التى يحرِّم عليها زوجها ممارسة الأعمال المنزلية ليقوم هو بها منفرداً . . عنوان «الفندق» فلا شك أن أفضل عنوان لقصتك هو «المحجر» ليس - لأنك تقومين بكل الواجبات المنزلية تجاه بيتك وزوجك وطفليك . . وتزيدين على ذلك خدمة زوجك فى فراشه وحمامه وبيته وعمله خدمة متصلة ومرهقة منذ لحظة استيقاظه حتى لحظة نومه السعيد قرب الفجر . وإنما لأنك تؤدين كل ذلك وأنت خائفة وكارهة لما تفعلين وبدموع مكتومة لا تفرج عن نفسها إلا فى غياب زوجك ، وهذا هو العناء الحقيقى الذى يجعل مما تقومين به أعمالاً شاقةً كقطع الأحجار ، ثم لأنك أيضا تؤدينه مع افتقاد التقدير والاعتبار . . ومع الإحساس المؤلم بأنه لا مفر لك من الاستمرار فيما تفعلين حتى ولو كرهته ، لأنه لا بديل آخر لاستمرار هذه الحياة ولا سند ولا نصير. إن العبد «الرقيق» هو الإنسان الوحيد الذى يُجيد أداء العمل الذى لا يحبه لأنه مضطر إليه ومجبر عليه ، وأسوأ ما يصنعه إنسان بنفسه هو أن يجعل من شريك حياته زوجةً أو زوجًا - عبدًا كسيرًا يُظهر الطاعة الذليلة ويُبْطن المرارة والإحساس بالقهر ويتطلع إلى اليوم الذى يتم فيه

عتقه . ومثل هذه الحياة الزوجية لا مبرر لاستمرارها سوى الاضطرار وانعدام القدرة على الرفض والتغيير . وهذا النوع من العلاقات الزوجية القائمة على القهر والاضطرار هو الذى يصدمنا فيه أن نفاجأ بعد حين بانقلاب الأوضاع ، فنرى الزوج الكاسر فى شيخوخته أو مرضه وقد تحول إلى طرف ضعيف . . وتوحّشت الزوجة الكسيرة وأصبحت الطرف الأقوى . . ولم تكرم شيخوخة زوجها ولم ترفق به فى ضعفه . فإذا رحل الزوج عن الحياة لاحظنا أن الزوجة لم تبد أى حزن حقيقى عليه . . وأنه لولا الحياء لأعلنت ارتياحها ، ثم لم تمض أيام حتى تحسنت صحتها وارتفعت معنوياتها . . ولا عجب فى ذلك لأنه صمت المقهور وليس رضا ولا سعادة ولأنه ها هنا تدفع الفواتير . . وتؤدى الديون . . ونستطيع أن نفرّق بسهولة بين من كانت شركة حياتهما شركة حب واختيار ، ومن كانت شركتهما شركة قهر واضطرار ، ثم سعد الطرف المقهور فيها بفضها أو بتغيير الأوضاع فيها لأسباب صحية أو قدرية . . وهذا ما أريد أن ألفت نظر زوجك إليه وقبل أن يتمادى فى عجرفته وجحوده لفضلك وخدمتك إلى النهاية ، وهو أن يملك قلب زوجته ومشاعرها بالحب والفهم والعطف والتراحم وليس بالاحتياج والاضطرار والعجز ، فالله جل شأنه كما يقول الإمام أبو حامد الغزالى «يبغض الشديد على أهله المتكبر فى نفسه» .

والرجولة الحقيقية ليست فى قهر زوجة ضعيفة واستغلال احتياجها وقلة حيلتها لكى تمتهن كرامتها وتسىء معاملتها . . وتهددها إن اعترضت بالطرد ، وإنما هى أن تكسبها بحبك ومودتك وعدلك بحيث

إذا أتيح لها الاختيار الحُر بين البقاء معك أو مفارقتك اختارتك أنت دون غيرك من الرجال . . وعندها لن يثقل عليها شيء من أعمال خدمتك وخدمة بيتك وأطفالك ولو اضطرت لنزول السلالم عشرات المرات كل يوم ، فارفق بزوجتك ياسيدى وارفق بنفسك أيضًا ، لأنك لن تشعر بسعادة حقيقية إلى جوار شريكة تكظم غيظها وقهرها المكتوم منك ، وتذكر أن الرسول الكريم لم ينصح الرجال بحسن الخلق مع زوجاتهم فقط بل وبالصبر عليهن وبالتلطف معهن بل وأيضًا بالمزاح والمداعبة معهن فى غير مغالاة . وهو القائل : أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله . و«الأهل» هنا هى الزوجة . أما أنت يا سيدتى فتماسكى قليلاً . . ولاتقبلى منه هذه المعاملة غير الآدمية التى تصل إلى حد الرفس بالأقدام لإيقاظك من النوم .

فحتى العبيد لهم حقوق كآدميين ينبغى مراعاتها . . وتعلّمى كيف تقولين «لا» بأدب وبإصرار عند الضرورة . . ولا تبدى كل هذا الهلع من احتمال ألا تجدى مأوى غير مأواه . . فأنت زوجة وأم وشريكة حياة وهو يحتاج إليك كما تحتاجين إليه وربما أكثر واستعينى بأهله عليه إذا عاد لضربك وإيذائك بتلك البشاعة ، فالاستضعاف الشديد يُغرى البعض بالاستئساد على البؤساء . . وحسن المعاملة أمر مطلوب من الطرفين وليس من طرف واحد فاستمرى فى خدمة بيتك وأسرتك وخدمته بإخلاص وباعتدال . . ولكن بلا خوف ولا هلع ولاذل يقلل من قَدْرك حتى أمام طفليْك . . ولسوف تتحسن الأحوال تدريجيا بإذن الله .

أنا واحد من قرائك . . شاب في الثامنة والثلاثين ليس في حياتي ما يستحق أن يُروى فلقد نشأت في أسرة عادية وتخرجت في الجامعة . . وفي إحدى المناسبات العائلية التقيت بفتاة من معارف شقيقتي فلفتت نظري برقتها ومسحة الجمال الملائكي الهادئ في وجهها ، وارتحت إليها وسألت أختي عنها فأثنت على أخلاقها وطيبتها فطلبت منها أن توثق علاقتها بها لأني أفكر في التقدم إليها .

وتكررت المناسبات التي التقينا فيها وأحسست بارتياحها لي فتجرأت واعترفْتُ لها بحبي ورغبتي في التقدم إليها . وفوجئت بها تنظر إليَّ ساهمة ثم تعتذر لي بأدب عن الارتباط بي . ودُهشْت لرد فعلها وقدرت أنها لم تحبني ، لكني لاحظت عليها حين استأذنت في الانصراف أنها تبذل مجهودا كبيرا لكبت دموعها . . ورغم ذلك انفرطت من عينها دمعة فمسحتها بيدها وأسرعت بالانصراف . وسألت شقيقتي عما تعرفه عنها ، فلم أخرج منها بشيء مفيد ، فهي ابنة وحيدة لأب من رجال التعليم ، لكن أمها كثيرة السفر إلى أقاربها في إحدى مدن الأقاليم وتطول غيبتها في كل مرة بضعة شهور ، فترعى هي أباها وتتولى شئون البيت خلال سفرها ، وتبدو خلال ذلك حزينة حزنًا غامضًا . . ولا تعود لها الابتسامة الغائبة إلا بعد عودتها . ورغمًا عني وجدتني أفكر في أمر هذه الفتاة وأتساءل عن سر رفضها لي . . وازداد اهتمامي بها حين تأكدت شقيقتي

أنها غير مرتبطة بإنسان آخر . . وأنها ترتاح إلىّ وطلبت منها أن تواصل زيارتها لها وافتعلت مناسبة ما لزيارتها فى عملها فوجلَتْ حين رأتنى، لكنها استقبلتنى بود وسهلت لى الاستفسار عما أردته ثَم دعوتها لتناول مشروب فى محل عام بعد العمل . . فنظرت إلىَّ نفس النظرة الساهمة الحزينة ثم اعتذرت بأدب أيضًا . وتوالت زياراتى لها فى العمل وانتظارى لها بعد موعده بحجة أنه قد تصادف مرورى بجوار عملها لنتمشَّى قليلاً قبل أن تركب المواصلات ، وهى لاتزال على موقفها منى لا تعاملنى بجفاء فأبتعد عنها . . ولا تستجيب لرغبتى فى الخروج معها أو زيارتها فى البيت ، واستمرت الحال هكذا بضعة شهور ، وأحسست أن هذه الفتاة هى قدرى الذى لا مَهْرب لى منه ، فقررت أن أتقدم إلى خطبتها رغم رفضها ، وتوجهت لمقابلة أبيها فى بيته بغير موعد سابق وضغطت على جرس الباب ففتحته لى فتاتى وارتاعت حين رأتنى كأنى قادم لقتلها ! وسألتها عن أبيها وأشارت لى إلى غرفة الصالون فتوجهت إليها ، وبعد قليل جاءنى الأب فاسترحت لمرآه من الوهلة الأولى . . وصارحته بغرضى من الزيارة فرحَّب بى وفاجأنى بأنه يعرف عنى الكثير ، وصارحنى بأنه ربى ابنته على الصراحة معه فى كل شىء ، ولهذا فهو يعرف أنى أزورها فى العمل وأسعى للتقدم لها ، وتردد قليلاً قبل أن يسألنى : ولكن هل سألت عنا جيداً قبل أن تتقدم إلينا ؟ واستغربت السؤال وأجبته بإجابة مناسبة . . لكنه كرر سؤاله مرة أخرى . . ولم أجد ما أقوله فقال لى : إنه رجل يعرف ربه ولا يرضى لنفسه أن يخدع أحداً لكنه لا يقبل أيضًا أن يهتك أسراره الخاصة لكل

طارق على الباب ، لذا فهو يطلب منى أن أسأل عن أسرته جيدًا . . ثم أعود إليه مرة أخرى إذا رغبت فى ذلك . وانتهت المقابلة وخرجت وأنا أكثر حيرة وتمسكاً بهذه الفتاة . وأخيراً وبمساعدة شقيقتى عرفت سر هذا الغموض ، فوالدة الفتاة مسكينة مصابة بمرض عقلى ونفسى منذ شبابها بعد أن أنجبت ابنتها الوحيدة ، وحالتها تستقر وتتحسن لفترات طويلة فتعيش الأسرة حياتها بطريقة عادية . ثم تنتكس وتسوء حالتها فيتم إدخالها إحدى المصحات فتمضى فيها شهوراً أيضًا ينفق خلالها الأب كل ما يملك على علاجها وهكذا منذ سنوات طويلة .

وسألتنى شقيقتى عن موقفى بعد أن عرفت ، فأكدت لها رغبتى فى الارتباط بها ، ورغم ميل شقيقتى لفتاتى وحبها لها إلا أنها حذَّرتنى من مسألة العوامل الوراثية وتأثيرها على فتاتى نفسها وعلى ذريتى القادمة ، لكننى لم أتردد وواجهت معارضة قصيرة من أبى وأمى . . وقد حسمتها بسؤالى لهما عما يفعلان لو كانت شقيقتى هى التى فى نفس ظروف هذه الفتاة ! وخطبت فتاتى والأم غائبة فى المصحة . وزرتها مع خطيبتى فوجدت حالتها شبه مستقرة ولا يكاد يظهر منها سوى الذهول الدائم والصمت ، وتعجبت من أنى وجدت خطيبتى صورة مصغرة من أمها فى جمالها وهيئتها ، وعقدنا قراننا وتزوجنا وهى مازالت فى المصحة ، وتحملت معظم أعباء الزواج وحدى نظراً لظروف الأب الواضحة ، وسعدت بحياتى الجديدة واكتشفت فى زوجتى بالمعاشرة مزايا عديدة فهى قليلة المطالب جداً وتسعد بكل لفتة اهتمام منى بها . . وتعتبرها شيئًا كبيراً وتنظر إلىَّ بعدها بعرفان شديد وعيناها مغرورقتان بالدموع ، كما

اكتشفت أيضًا أنها تعبر عن مشاعرها المختلفة بالدموع . . فحين تفرح تبكي وحين تحزن تبكي أيضا وهي غريزة الدموع بشكل غريب، وسألتها عن سبب ذلك ففسرته بأنها عاشت طفولة حزينة بسبب مرض أمها المتكرر وانتزاعها من بين أحضانها لإيداعها المصحة أكثر من مرة وفكرت للمرة الأولى في سؤال طبيب متخصص عن احتمالات العوامل الوراثية، ليس بسبب زوجتي فقد اخترتها بإرادتي وسعدت بها وإنما تحسبًا للإنجاب في المستقبل . وزرت طبيبًا فطلب مني التقارير الطبية عن حالة الأم، وتحايلت للحصول على بعضها بدعوى عرضها على طبيب عائد من الخارج حديثًا وعرضتها عليه فقال لي إن العوامل الوراثية لها دور فعلاً في هذا المرض، لكنه ليس أمراً مؤكداً أن ينتقل لزوجتي أو لأولادي فقد ينتقل مثلاً إلى الجيل الثالث من الأحفاد وقد لا ينتقل !

وواجهت الاختيار الصعب في موضوع الإنجاب . . لأن أبي وأمي كانا يتلهفان على أن يريا أحفادهما مني، خاصة بعد أن تزوجت أختي وواجهت مشكلة بسيطة في الإنجاب تقوم بعلاجها . وأخيراً توكلت على الله وقررت الإنجاب وأنجبنا طفلاً بعد عامين من الزواج وتقدمت في عملي بفضل رعاية زوجتي وتهيئتها الجو المناسب لي للتفرغ للعمل، والحق أني لم أشعر بأي متاعب معها منذ تزوجتها وأحبَّها أبي وأمي كثيرا ، ونالت احترام كل أهلي وأصدقائنا وجيراننا، وبعد ولادة ابني تفرغت لرعايته وللبيت ولم أشْكُ من شيء فيها سوى أنها تكاد تخاف من الخروج من البيت وترفض الخروج إلا معي ولزيارة أهلي وأبيها فقط غالبًا . . وفسرت لي ذلك بأنها لا تحس بالأمان إلا

فى بيتها وبالقرب من . فلم أعد أرهقها بطلب الخروج لأداء عمل معين خصوصًا حين لاحظت أننى إذا تمسكت بالطلب نهضت لارتداء ملابسها . . وعيناها مغرورقتان بالدموع فإذا عدلت عن رأيى انفرجت أساريرها وقبّلت رأسى شكراً وعرفاناً !

وفيما عدا ذلك فهى كالنسمة الرقيقة معى ومع الجميع وتشعرنى بأنى أهم إنسان فى الوجود ، وينخلع قلبها من الخوف إذا تأخرت عليها فى العودة للبيت ، ولاحظت أن خوفها هذا يتضاعف فى فترات انتكاس حالة أمها .

وبعد أربع سنوات من زواجنا توفيت أمها رحمها الله فانتابت زوجتى نوبة حزن طويلة ، واحترمت مشاعرها وازداد عطفى عليها ، وبعد عام من وفاتها أراد أبوها أن يتزوج ، ففاتحنى فى الأمر ووسّطنى لنيل موافقة ابنته ، وحدثتها فى الموضوع بحذر فتفهمت دوافعه وقالت لى إن من حقه أن يستريح بعد ما تحمل من عناء . وشاركت فى إجراءات زواجه من أرملة من أقاربها . . وحضرت عقد القران وعدنا للبيت وهى ساهمة ثم فجأة انفجرت فى نوبة من البكاء لم أرها منها من قبل ، واستمرت هذه النوبة بلا توقف حتى الصباح . . وهدأت قليلا بتأثير المسكنات وخرجت لعملى وأنا قلق . . وعدت بعد الظهر فوجدتها جالسة فى فراشها كما تركتها فى الصباح ودموعها تسيل فى صمت ولم تشعر بدخولى الغرفة . . ووجدت طفلنا يبكى بشدة من الجوع ، ويقول لى إنه طلب الطعام من أمه منذ الصباح لكنها لم ترد عليه .

وأدركت أن ما خشيته قد وقع والأمر لله من قبل ومن بعد واستدعيت الطبيب الذى عالجها بالمهدئات فى البداية ثم نصح بضرورة إدخالها لإحدى المصحات ، فتركت ابنى فى رعاية أمى واصطحبتها وهى مستسلمة ودموعها تسيل بلا توقف إلى المصحة . وبكت طويلا وهم يصطحبونها بعيدا عنى . . وظلت تتلفت خلفها وتستنجد بى بنظرتها الباكية ألا أتركها وحدها حتى غابت عنى وصورتها وهى خائفة توجع قلبى . ودخلت فى دوامة العلاج وكرَّست حياتى لتدبير كل النفقات اللازمة لعلاجها فى المصحة الخاصة ، واقترضت من عملى ومن أبى وشقيقتى ، وبعد عدة أسابيع استقرت حالتها وسمحوا لها بالخروج وطلب منى الأطباء عدم تعريضها لأية انفعالات مفاجئة حتى لا تنتكس حالتها . وعادت زوجتى كسيرة الخاطر وتحس بخجل مؤلم لما تحملته من أجلها من عناء ، وقلت لها إن هذا الإحساس غير سليم لأنك زوجتى وشريكة عمرى ، وقد كان من الممكن أن أمرض أنا فتقومين معى بنفس الدور . وعادت حياتنا إلى مجراها الطبيعى . . وقد نهيتها عن العودة لتكرار الكلام عن أنها ستعيش «جارية» تحت قدمى لكى ترد لى الجميل !

ثم عدت للبيت ذات يوم ففوجئت بها تقدم لى مبلغا كبيرا من المال لأسدد به ديونى . . وتعجَّبت كيف عرفت ومن أين جاءت بالنقود ثم غضبت منها حين عرفت أنها كلفت أباها ببيع شبكتها لكى تخفف عنى هم الديون . . ورفضت قبول المبلغ فلم تدعنى حتى قبلته وحتى - وهو الأهم - «عفوت» عنها لأنها تصرفت فى ذلك دون إذنى .

ومضت حياتنا هادئة سعيدة . . وزوجتى تتفانى فى إرضائى وتشيع فى حياتنا جواً جميلاً من الهدوء والرقة والمشاعر الجميلة ، ثم تعرض أبوها لأزمة مع زوجته الجديدة واختلفا ولم ترع حرمة كبر سنه وبجهل شديد اتصلت بزوجتى تليفونيا وأشركتها فى المشكلة وتطاولت على أبيها وأهانته . . وزوجتى تحاول تهدئتها والاعتذار لها ودموعها تجرى كالنهر . . وعدت إلى البيت فوجدتها ممسكة بسماعة التليفون وهى تبكى وترجو الزوجة أن تعطف على أبيها وتراعى سنه ، فأخذت منها السماعة فوجدت صريرا مزعجا . وكانت الأزمة الثانية واستغرق علاجها منها بالمصحة شهرين طويلين ثم استردَّت صحتها وجمالها تدريجيًا وعادت حياتنا إلى طبيعتها ، وبعد عامين آخرين توفى والد زوجتى وأثارت أرملته مشاكل سخيفة حول أشياء لا قيمة لها ، فانهارت زوجتى للمرة الثالثة وعادوتها الأزمة واستغرق علاجها منها شهرا ونصف الشهر ، وعُدْنا للحياة معا من جديد، وقد ازددت حرصًا على حجب أى مؤثرات انفعالية عنها . . ولفت نظر أهلى وأهلها وجيراننا إلى عدم إشراكها فى أى مشكلة أو توتر انفعالى . وأصبحت أحجب عنها حتى الأخبار المؤلمة التى تثير الانفعال فى التليفزيون والصحف ، وقد تشجعت زوجتى على الخروج معى قليلا فأصبحنا نصطحب طفلنا إلى نزهة بسيطة فى الشوارع أو النادى أو لشراء شىء له ، ونعود وزوجتى سعيدة وممتنة لى كأننى حققت لها معجزة من المعجزات . . ولا تكف عن شكرى والدعاء لى بالصحة وطول العمر جزاء لما «أفعله» معها . . وهى إنسانة طيبة بكل معنى الكلمة لا تعرف الكراهية وتبتسم فى وجه الجميع . . ولا تصدر عنها كلمة مؤلمة لأى إنسان أو حيوان . .

ومنذ تزوجتها منذ عشر سنوات لم أسمع منها مرة واحدة كلمة جارحة أو مسيئة وتعبر عن مشاعرها المختلفة بالدموع فإذا فرحت اغرورقت عيناها بالدموع ، وإذا حزنت تدفق دمعها كالسيل وكل من يتعاملون معها يحبونها من الزبال إلى البواب إلى اللبان إلى الأهل والجيران ويوصوننى بها خيراً . . وأنا سعيد بها وبحياتى معها ولا أشكو من شىء . . لكنى أطلب منك خدمة كبيرة لى ولطفلنا الوحيد ذلك أن هناك بعض الأقارب كانوا فيما علمت يتوقعون منى أن أتقدم لابنتهم مع أنى لم أُبد أى إشارة نحو هذا الاتجاه وابنتهم فتاة يتمناها أى شاب . . لكن حظها لَم يأتها بعد . وهؤلاء الأقارب لا يتركوننا فى حالنا لأسباب لا يعلمها إلا اَلله . . فإذا مرضت زوجتى وأدخلتها المصحة واضطررت لأن أقول لمن يسألنى عنها إنها مسافرة لبعض الوقت عند عمتها بالأقاليم . . سارعوا «بإذاعة» أنها قد عاودها المرض ودخلت المصحة . . وتحدثوا عن أنها . . . . . وأكثروا من الكلام عن تعاستى وسوء حظى وأن من حقى أن أستريح من عبء زوجتى بغير مراعاة لمشاعرى ومشاعر طفلى ، ومع علمهم بأن زوجتى يتيمة الأبوين ولا سند لها من إخوة أو أهل سواى ، ورغم أنى وسَّطت عندهم قريبًا لنا يرجوهم ألا يقسوا علينا بالكلام مع العائلة والجميع حتى لا يتسرب الحديث إلى طفلنا . . خاصة أننا لا نسىء إليهم فى شىء ، ولا نتمنى لهم إلا الخير ، لكنهم يتمادون فى ذلك . . ويتعمدون أن يتحدثوا عن مرض زوجتى أمام الأطفال . . وأنت تعرف كيف تنعكس تلك الكلمة اللعينة التى يطلقونها على زوجتى على عقول الأطفال وسلوكهم معها مما يجرح مشاعرها ويفجر ينبوع الدموع فى عينيها . . وقد ازداد غضبهم منى حين وسطت قريبنا لديهم فتعمدوا

الحديث عن مرض زوجتى أمام ابن أحد الأقارب لأنه زميل لابنى فى المدرسة . . وجاءنى ابنى ذات يوم باكيًا وسألنى : هل صحيح أن ماما . . . ؟ ولقد تحملت كل ما واجهت من أزمات بشجاعة وصبر ، لكنى لم أتحمل حيرة ابنى مما سمع وبكاءه . . انهزمت للمرة الأولى أمامه باكيًا . . واحتضنته وأقسمت له يمينًا حسابها مع رب القلوب أن ذلك غير صحيح ، وأصبح همى بعد ذلك هو أن أمنعه من إبلاغ أمه بما علم، ومن أن ينعكس هذا القول على سلوكه معها بأى شكل من الأشكال . . فيطعنها فى قلبها فى الصميم ، ويهددها بالمرض والانتكاس .

وما أريده منك يا سيدى بعد أن أعيتنى الحيل هو أن تكتب لهؤلاء الأقارب وهم من قرائك وتبلغهم أنه إذا كان هدفهم هو إيلامى وإيذائى فليستريحوا ، فلقد تألمت وتأذّيت أكثر مما حدث لى طوال حياتى . وأنا على استعداد لأن أسعدهم . . وأتألم أكثر وأكثر لكنى أرجوهم فقط ألا يُسددوا إلى سهامهم القاتلة عن طريق ابنى . . فهو لا ذنب له فى «جريمتى» فى حقهم . . ولا ذنب له فى حالة أمه . . بل إنه يستحق عطفهم لا قسوتهم ويكفى أننا حكمنا عليه بأن يبقى وحيداً مراعاة للظروف ، وأنه حُرم من حنان أمه خلال عمره القصير مرات عديدة . . فماذا فعل لكى يعاقَبونى عن طريقه هذا العقاب القاسى . . وماذا فعلت زوجتى . . وهى إنسانة مسكينة تحب الجميع ومنهم هؤلاء الأقارب لكى يسلخوا جلدها دائمًا بالحديث عنها وإيذاء مشاعرها هكذا ، بل ما هى جريمتى أنا أصلاً . . والزواج قسمة ونصيب فى النهاية . . وأنا راض بنصيبى وسعيد به ، ولن أرضى بغيره بديلاً فهل تؤدى لى هذه الخدمة إكرامًا لخاطر ابنى البائس هذا ؟

من لا تحركهم ضمائرهم . . ولا نوازع الرحمة بطفل برىء كطفلك لا تحركهم كلماتى أو كلمات غيرى ، ومع ذلك فإنى أستجيب لرغبتك وأقول لك أولا إنك إنسان نبيل تحمل همًا إنسانيًا ، يستحق أن يعينك الآخرون على حمله والتخفيف من آثاره ، لا أن يضاعفوا من ثقله عليك بسيوف اللسان التى تقطر دمًا ! . والحق إنى أصدق كل كلمة فى رسالتك عن سعادتك مع هذه الزوجة الملائكية الطيبة ، التى تحب الجميع حتى من ينهشونها ولا تحمل للحياة وللآخرين إلا كل المشاعر الإنسانية الرقيقة ، ولا عجب فى أن تسعد بها ومعها رغم الآلام العارضة ، ولا فى أن يحبها كل من يتعاملون معها إلا من خلبهم من كل ما يجعل من الإنسان إنسانًا إذْ «ما جزى من يحب إلا بحب» كما يقول الشاعر . وليس من حق أحد فى النهاية أن يحكم من زاوية رؤيته هو على سعادة الآخرين أو شقائهم ، فالسعادة سر شخصى لا يدرك أبعاده إلا صاحبه ، ومن كانت سعادته حقيقية فى أوقات الهناء حقّ له أن يتحمل بعض الآلام فى أوقات البكاء ، ويوم أو حتى لحظة واحدة من السعادة الحقيقية تستحق أن نتحمل من أجلها ما تفرضه علينا الحياة أحيانا من

ضريبة الألم . ومن حق كل إنسان أن يعيش حياته كما أرادها لنفسه فى أمان ، مادام لا يصادر حق الآخرين فى أن يعيشوا حياتهم فى سلام ، لكن آفة البعض هى أنهم لا يعيشون فى سلام مع الحياة ، ويعز عليهم فى نفس الوقت أن يدعوا الآخرين يعيشون حياتهم فى هدوء . وهؤلاء هم من يكرهون الحياة وتكرههم الحياة ويبغضهم ربهم ، لأنهم من أكلة لحوم البشر الذين عناهم الحديث الشريف القائل : إن الله يكره عباده اللحميين .

والمؤسف حقًا هو قصور القانون الوضعى فى كثير من الأحوال عن العقاب على جريمة الإيذاء المعنوى بنفس ما يعاقب به على جريمة الإيذاء البدنى ، مع أن إيذاء النفوس قد يكون فى بعض الأحيان أشد قسوةً وأكثر إيلاماً من إيذاء الجسد .

ولو كان الأمر بيدى لعاقبت من تعمدوا أن يُسربوا إلى طفلك هذا الحديث المؤلم عن أمه بأشد مما يعاقب به سارق أو قاتل ، ذلك أنهم قتلة فعلاً يقتلون فى هذا الطفل البرىء أمانته وسعادته ، ويدمرون روح أمه وسلامها بما يرشقونها من سهام مسمومة . وهى سهام قذرة لأنها تختار ما لا حيلة الإنسان فيه ، وهو المرض هدفًا لها وحتى لو كانت هناك خصومة ما ، بينك وبينهم فشرف الخصومة يفرض على الشرفاء أن يتعففوا عن استخدام الأسلحة القذرة فى خصومتهم ، وأن يعفوا الأبرياء من إيلامهم بما لا جريرة لهم فيه . . فالصحة ليست امتيازاً لأحد . . والمرض ليس عاراً شخصيًا لأحد ، حتى يحق للبعض أن يشمتوا بصاحبه ويعيِّروه به . . ونصيب كبير من أمانى الإنسان بأن تجنبه الحياة محنها

المؤلمة ، يتمثل فى ألا يشمت هو فى ضعف أحد أو إنكساره بالمرض. إذْ من يدرى غدا ماذا سوف تقذف به أمواج الحياة فى المستقبل.. فليدفعوا عن أنفسهم هذا العقاب الإلهى بكف ألسنتهم وأذاهم عن زوجتك وطفلك .. وليَّتقوا الله فى أنفسهم قبل أن يتَّقوه فيك وفى أسرتك ، فإنما يدافع الإنسان عن نفسه قبل الآخرين حين يكف أذاه عنهم، ويبتهل إلى ربه أن يخفف عنهم ويجنبه بعض عنائهم . فإذا أردت نصيحتى بعد كل ذلك ؛ فإنى أنصحك بأن تُباعد بين هؤلاء «البشر» وبين أسرتك وزوجتك ، وبأن تتجنب كل ما يجمع بينك وبينهم، وبين طفلك وأطفالهم إلى أن يرجعوا عن غيِّهم أو تهدأ خواطرهم بزواج ابنتهم، وحبذا لو نقلت طفلك فى العام الدراسى القادم إلى مدرسة أخرى لا تجمع بينه وبين أطفالهم.. ثم عشْ حياتك ياصديقى بعد ذلك آمنا ، كما اخترتها واختارها لك الله ، فَأنت جدير بزوجتك الفاضلة هذه ، وهى جديرة بك وبأخلاقك الكريمة ، ويكفيك أنك تعيش مع إنسانة تفيض حبًا لك ورقة وخيراً وودًا للجميع ، ولاتعرف الكراهية ولا الالتواء ولا تجرح مشاعر أحد ولا تحتمل إيذاء أحد.. فإن كان هذا هو الـ .. فى عرف هؤلاء «الأقارب» فأهلاً به ومرحبًا ، وطوبى للحياة وللأرض إذا انتشرت فيها هذه المشاعر الرقيقة السامية وعمَّت كل أرجائها ، وإذا كان عكس كل ذلك من الكراهية والشحناء والصراع والتطوع بإيذاء الآخرين هو «العقل» فبعداً له وسُحْقًا، ولندع الله معًا أن «تمرض» البشرية كلها بكل هذه المشاعر الإنسانية الجميلة التى تسبح فى جو عشك الصغير وترفرف على حياتك. وشكراً لك :

أنا سيدة أعمل بالتدريس بإحدى كليات القمة . . بدأت قصتي منذ 12 عامًا حين كنت طالبة في كليتي المرموقة ، والتقيت بشاب جامعي أحببته ورأيت فيه الرجل الذي أريد أن يشاركني حياتي ، وعارض أبي في زواجي منه بشدة لتقاربنا الشديد في السن ولوجود تفاوت تعليمي وثقافي بين أسرتي وأسرته ، فأسرتي يتمتع كل أفرادها بمراكز اجتماعية مرموقة في حين يعمل كل أفراد عائلته بالتجارة ، وكان من رأي أبي أن ثراءهم طارئ وحديث ، وسوف تختلف نظرة كل منا للحياة ومعاييره تبعًا لاختلاف المستوى الثقافي بين الأسرتين ، إلى جانب أن ظروف هذا الشاب العائلية لم تكن مستقرة ، فقد كان أبواه منفصلين وتزوجت أمه بعد طلاقها زواجًا لم يلق قبول أسرتها ، وترتب عليه نشأته مع أخته وأمه في عزلة عن بقية العائلة . لكني رغم كل هذه الاعتراضات تمسَّكت به للنهاية وتحمَّلت إساءة معاملة أبي له لكي يبعده عني . . وتم زواجنا بعد حصولي على البكالوريوس . . ومنَّيت نفسي بتحقيق الأحلام والسعادة معه ففوجئت بعد أيام بأنني قد تزوجت شخصًا آخر غير الذي أحببته وحلمت به ، شخصٌ يسيء معاملتي ويضربني ويهينني لأتفه الأسباب ويمنعني من زيارة أهلي أحيانًا ، واكتشفت عمق اختلاف نظرة كل منا للحلال والحرام واختلاف قيمنا ومعاييرنا من خلال وقائع كثيرة لا مجال لسردها الآن ، وكان من بينها أني حملت بعد زواجنا مباشرة ،

فأراد التخلص من الجنين بدعوى أنه لا طاقة له بنفقات زائدة ، فصُدمت وفعلت كل ما بوسعى للاحتفاظ بجنينى بغير أن أخالف أمر ربى .
وجاءت الطفلة فإذا بأبواب الرزق تفتح لزوجى فانتعشت تجارته واشترى لى سيارة ، وانتقلنا من الشقة الصغيرة التى تزوجنا فيها إلى شقة أوسع فى حى راق ، ووقفت إلى جواره بكل قواى فى أزمة جديدة نشأت بينه وبين زوج شقّيقتي حول التجارة ، وأحس هو بالامتنان لى وساندنى خلال استذكارى للحصول على الماچستير ثم ازدهرت أحوال زوجى المالية ، فانتقلنا إلى شقة فاخرة كالقصر ، وخلال ذلك كنت قد أنجبت طفلى الثانى وجاء طفلاً جميلاً فأحسست بأنى قد ملكت كل شيء فى الدُّنيا ، ورغم ذلك فقد كان الإحساس بعدم الأمان يساورنى من حين لآخر ، إذ كان زوجى رغم رقته أحيانا يثور مرارا ثورات بركانية وينهال علىَّ بالضرب والإهانة حتى كسر لى فى إحدى هذه المرات ضلعًا ، ولست أدعى أننى كنت أقف ساكنة أمامه ، فالحق أنى بعد عامين من الزواج وبعد أن استمر فى سبىِّ وسبِّ أهلى بدأت أرد عليه إهاناته .

ومضت الحياة بيننا هكذا سلسلة من الخلافات والمشاحنات المستمرة تصل أحيانا إلى حد ضربى تتخللها بعض الأوقات الطيبة المريحة ، وكنت أطالبه دائمًا بحسن معاملتى . . ويطالبنى هو دائمًا بالتسبيح بحمده وفضله علىّ لأنه انتشلنى من قاع المجتمع واشترى لى سيارة وأسكننى فى شقة فاخرة .

ثم عانت تجارة زوجى بعض الكساد فأصبح يقضى وقتًا أطول فى البيت وكثرت الخلافات والمشاحنات بيننا ، وفى إحداها انهال علىَّ ضربًا

حتى أغمى علىّ وحين أفقت قلت له إننى لا أريد لطفلىَّ أن يريا أباهما وأمهما على هذه الحالة البشعة ، ولابد أن نعيد التفكير فى ضرورة إصلاح حياتنا ، وقال لى إنه سيسافر مع أصدقائه فى رحلة يختلى فيها بنفسه ويفكر بهدوء فى حياتنا . . وسافر وانتظرت عودته بكل الشوق لأنه زوجى وحياتى رغم كل شىء . وعاد بعد أيام لكنه رجع إنسانًا آخر غير الذى سافر . . فقد أعرض عنِّى تمامًا ولم تعد به رغبة فى الحديث معى وأصبح يطيل السكوت خلال وجوده فى البيت ، ويطيل الغياب حين يخرج رغم كساد عمله ثم أقدم على خطوة أخرى فهجر فراش الزوجية وأصبح ينام فى غرفة أخرى ، وأنا أكاد أجن ولا أدرى ماذا أفعل لاسترضائه ، ورغم كثرة مشاكلنا وخلافاتنا فلقد أحسست أن الخلاف هذه المرة من نوع آخر قاتل ومخيف ، فقد لاحظت أنه لا يعبأ بى ولا شىء يقتل المرأة كإحساسها بأن زوجها لا يكترث بها حتى فى وقت الخصام خاصة إذا كان يعنى لها كل شىء فى حياتها .

وفجأة بدأ زوجى يتحدث عن رغبته فى أن أترك وظيفتى فى التدريس الجامعى لأتفرغ له ولبيتى ولطفلى ، مع أنى كنت قبلها بقليل فى إجازة لمدة عام لرعاية طفلى ، وبدأ يتحدث عن رغبته فى بيع الشقة الفاخرة ليستفيد بثمنها فى إنعاش تجارته ، وبدأ يشكونى لكل من يقابله ويدَّعى تقصيرى فى واجباتى المنزلية وفى حقوقه كزوج وحقوق طفلىَّ ، ويقول إن عملى أهم شىء فى حياتى ، ويعلم الله أن كل هذا غير صحيح ، وضِقْتُ بكل ذلك وتمنيت أن تعود حياتنا إلى طبيعتها ، وطلبت منه فى جلسة طويلة خلال شهر رمضان الماضى أن يفتح لى قلبه ويحدثنى بما يراه

خطأ فىّ وأنا على استعداد لإصلاح كل أخطائى ، فأجابنى بوجوم بأنه قد فات الأوان . فقمت وصليت لله باكية وأنا أدعو الله أن يهديه لنفسه ولولديه وفوَّضت أمرى إلى الله ودعوته أن يختار لى ما فيه خيرى وصلاح أمرى بعد أن أعْيَتْنى كل الحيل لإنقاذ زواجى ولم يعد فى مقدورى شىء جديد . وجاء زوجى ذات يوم وأخبرنى بأنه قد باع الشقة وأنا أعلم يقينا أن ذلك غير صحيح ، وبعد فترة قام بجمع ملابسى وملابس ولدىّ وقال إننا سنترك الشقة اليوم وسيرسل هذه الملابس لشقتنا السابقة التى كان يؤجرها مفروشة ، وطلب منى الإقامة لدى والدى لفترة مؤقتة إلى أن ينقل الأثاث إليها ، وبعد أيام ذهبت إلى الشقة فوجدته قد نقل إليها أثاث غرفتين فقط من أثاث الغرف السبع بالشقة الفاخرة ولم أجد ملابسه فيها وسألته عنها فقال لى إنه سيقيم لدى والدته . وأحسست بنية الغدر فى رنة صوته وملامح وجهه الجامدة . . وبأن هناك امرأة أخرى قد احتلت مكانى فى حياته لكنى صبرت وسلمت أمرى إلى خالقى . وبعد فترة جاءنى وقال لى إنه بعد أن فكر جيداً فى حياتنا الماضية فإنه يدعونى للذهاب معه إلى المأذون ! وقلت له إنى أرفض الطلاق من أجل ولدىَّ فأجابنى بأنه قد وضع حجراً على قلبه بالنسبة لهم فقمت باكية . . وأنا أقول له : حسبى الله ونعم الوكيل أنت ظالم . . ظالم ولن يهملك الله أبدًا لكنه سيمهلك إلى يوم تَشْخَصُ فيه الأبصار .

ورفضت الذهاب معه إلى المأذون وطلقنى غيابيًا سامحه الله ، ورفضت أن أنازعه فى شىء أو أُقاضيه ، لأنى أردت ألا أفعل شيئًا يؤذى ولدىَّ نفسيًا فى المستقبل ، وأحرص على ألا أثير كراهيتهما ضده وعلى

الحفاظ على صورته الأبوية الطيبة فى نظرهما لأنى بحكم ثقافتى ودراستى أعرف جيداً أهمية الحب المتوازن للأب والأم فى نفسية الطفل . ولست أفعل ذلك من أجله بقدر ما أفعله من أجل طفلىَّ بل ومن أجلى أنا شخصيا ، لأنى لن أسعد بطفلين نفساهما مشوهتان وغير سويتين بسبب اهتزاز صورة الأب أمامهما . وها أنذا ياسيدى مطلقة فى الثانية والثلاثين من عمرى ، وبعد سبع سنوات فقط من الزواج الذى حلمت به مع الشاب الذى أحببته وتمسكت به فى وجه معارضة أبى ونصائحه لى . وأنا الآن أستعد للسفر إلى الخارج مع ولدىَّ للحصول على الدكتوراه ، ورغم علمى بأنه فى طريقه إلى الزواج من «الأخرى» التى قوَّضت زواجى فأنا لا أشعر تجاهه إلا بالإشفاق عليه مما فقد ، لأنه لا يعى قيمة ما فُقد ومازلت أدعو له الله بأن يهديه لنفسه ولولديه ، أما أنا فلقد استَرددت بفضل الله نفسى المحطمة وثقتى المهزوزة وأشرقت روحى مرة أخرى بحب الحياة والناس حتى يظن من يرانى أنى لم أتزوَّج من قبل ، ولست فى النهاية أعتبر ما جرى لى فى حياتى فشلاً كما يفعل البعض وإنما تجربة وخبرة بالحياة حلْوها ومرِّها ، ويكفينى أنى بفضل الله أستطيع الاعتماد على نفسى تماما ، وأستطيع أن أُربى ولدىَّ على القيم التى نشأت عليها وأنى أملك أمر نفسى وروحى الطليقة التى تسبح فى ملكوت الله الواسع وتؤمن بأنه ما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها . وكل ما أدعو به ربى هو أن يهدينى ويصلح لى أمرى ، ويبدلنى به خيراً منه زوجاً صالحاً وأباً آخر لولدىَّ أواصل حياتى معه . . فإن لم تشأ عناية ربى بذلك فدونه سوف أمضى فى الحياة بإذن الله .

وقد تعلمت الكثير من تجربتى ورأيت أن أكتبها لتستفيد بها بعض الفتيات اللاتى يصْمُمْن آذانهن عن نصيحة الأهل قبل الزواج ، مع أنها تكون غالبًا صادرة عن رغبة صادقة في سعادتهن ، كما أريد فى النهاية أن أقول للفتيات إن المال لا يصنع السعادة فى الزواج وأن السعادة الحقيقية هى فى سكينة القلب إلى جوار إنسان مناسب عائليًا وفكريًا وماديًا ومن كل الجوانب ، ليؤانس روح الفتاة وينشأ أولادهن سعداء وأصحاء نفسيًا والسلام .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

تُعْجبنى دائمًا كلمة للكاتب الأمريكى وليم شيرر يقول فيها : فى حالات ضعفى ألجأ دائمًا إلى وسيلتين : الأولى أن أنظر إلى حياة الناس وصفحات التاريخ وأجد أنه كانت هناك دائمًا آلام لا أستطيع احتمالها ، فيساعدنى ذلك على النظر لمتاعبى نظرة نسبية ، والثانية أن أنشد دائمًا حياة جديدة ملؤها الأمل والتفاؤل مهما كانت الأحوال .

وهذا فى تصورى ما ينبغى أن يفعله كل إنسان تعترض حياته تجربة مؤلمة ، ولعل هذا أيضا ما احترمته فى قصتك وهو روحك العالية وشجاعتك فى تقبل أقدارك ، وتطلعك بروح الأمل والتفاؤل إلى مستقبل أفضل يمسح عنك الأحزان ، مع إدراكك فى نفس الوقت لقدراتك واستعدادك للاعتماد على نفسك ورفضك الانهزام أمام تجربة قد تدعو أخريات إلى اليأس والإحباط .

أما أكثر ماشدَّ انتباهى فى رسالتك فهو ظاهرة «الشخص الآخر» الذى تكشف عنه أحياناً تجربة الحياة الزوجية ، فإذا به نقيضٌ مخالفٌ تمامًا لصورة فتى القلب الواعد بكل سعادة وشاعرية قبل الزواج !

وهى ظاهرة ألمسها بكثرة فى رسائل القارئات والقراء الذين يصطدمون أيضًا بنفس المفاجأة أحيانًا بعد الزواج . ولا تفسير لها عندى سوى التسرع فى الارتباط دون دراسة كافية للطرف الآخر وشخصيته وظروفه وطباعه ، وفى تجاهل الفوارق المؤثرة على نجاح الزواج فى المستقبل تأثرا بأحكام القلب وحده وبغير عرضها على محكمة العقل . إلى جانب عوامل لا تقل أهمية عن ذلك كتأجيل المشاكل إلى ما بعد الزواج دون حسم أو التوصل إلى حل مرض للطرفين بشأنها قبل أن تبدأ الحياة الجديدة ، كمشكلة عمل الزوجة مثلاً أو مكان الإقامة الزوجية . . الخ .

فضلاً عن الانفعالية والاستجابة السريعة لنزوات الغضب واتخاذ أسلوب الشد والجذب وصراع الديكة كأسلوب حياة بعد الزواج . اعتمادا على أن الحب سوف يغفر كل الخطايا . وهذا ليس صحيحًا فى أحيان كثيرة . . إذْ لاشىء يحفظ على الحياة الزوجية نجاحها واستمرارها أكثر من التفاهم والرفق المتبادل فى التعامل بين الطرفين . . وحرصهما معا على ألا يكون زواجهما قابلاً للكسر ، مهما كانت العواصف التى تعترضه رعاية لحق الأبناء على الزوجين . . وتجنبًا لمعاناة مرارة الفشل والإحباط .

والحق أن هناك دائما جانبًا خفيًا فى شخصية كل طرف لا يتعرف عليه الطرف الآخر إلا بالمعاشرة اليومية ومواجهة اختبارات الحياة وكيفية تصرفه فيها واحتماله لها . وهو جانب لا يمكن امتحانه للأسف جديًا إلا عند الخلاف . لأنه فى أوقات الصفاء يبدو الجميع ظرفاء وشاعريين

ومجاملين ، أما فى أوقات الخلاف الجاد فقد يتكشف الأمر عن شخص آخر أو امرأة مختلفة لا علاقة لكل منهما بفتى الأحلام القديمة أو فتاتها . لهذا قيل دائما إن أخلاقيات الإنسان عند الخلاف . . تكشف عن جوهره الحقيقى ومعدنه الأصيل ، وكلما كان عادلاً وحريصًا على ألا يجرح مشاعر الآخرين بقسوة وسادية وعلى ألا يتمادى فى الخصومة والفحش عند الخلاف ، كان إنسانًا فاضلاً حَسِنَ المعاشرة .

وقصتك لم يكن ينبغى أن ترشحك لأية مفاجأة لأنك قد عرفت زوجك السابق ، وأحببته وخطبت له عدة سنوات قبل الزواج . . إذن فلقد تحطمت سفينة زواجك للأسف على صخرة الانفعالية ، وتقارب سنكما التى أظنها متساوية وعدم حسم مشكلة عملك قبل الزواج أو عدم توصلكما إلى حل لها يرضيكما معا . وإلى استجابة كل منكما سريعًا لدواعى المشاحنة والخلاف . وإلى تسرع زوجك فى تحطيم زواجه بغير دفاع جاد عنه ، ولقد كان من حق طفليه عليه ، أن يتروَّى طويلاً فى اتخاذ قرار الانفصال ، خاصة بعد كل ما أبديته من حرص عليه وتمسك به رغم ما نالك منه من إهانات وضرب يكسر الضلوع فى بعض الأحيان . لكنه لم يفعل للأسف ولم يرفع الحجر الثقيل عن قلبه ، ليعرف أن من واجبه تجاه طفليه ألا يرضى لهما بأن يدفعا ثمن أخطاء أبوين اختار كل منهما الآخر بملء إرادته ، ولم يستشرهما أحد فى أمر زواجهما ولا فى إنجابهما . . وسوف يتفهم ذات يوم حجم جنايته عليهما . . وسيدرك بكل تأكيد قيمة ما فُقد ، ولكن بعد أن يكتوى غالبًا بنار التجربة . .

أرجو ألا تتصور أنى أروى لك قصة فيلم قديم .. فإن ما أرويه لك هو الواقع الذى أعيشه ، والذى يتكرر كثيراً فى صور مختلفة . فأنا فتاة فى الثامنة والعشرين من عمرى ، منذ سنوات كنت طالبة فى كليتى المرموقة ، وعندما وصلت إلى السنوات النهائية فيها تقدم لى خُطَّابٌ كثيرون ، فكان أبى يلتقى بهم ويسمع منهم ويتحرى عن إمكاناته المادية ، ثم يعدهم بالاتصال بهم بعد انتهائى من الدراسة ، ولم يكن دافع أبى إلى ذلك هو الحرص على تفرغى للدراسة ، وإنما انتظار العريس الأفضل والأقدر ماديا . فأنا من أسرة مكافحة ، ولم يكن أبى قادرا على مساعدتى فى تكاليف الزواج ولا أمل له إلا فى زوج يعفيه من كل مسئولية مادية . وكنت مقتنعة بذلك أيضًا . لكن حدث ما غيَّر بعض أفكارى فلقد تعرفت على شاب وسيم مهذب لفت نظرى فيه أنه سعى للتعرف علىَّ بجرأة وأدب فى نفس الوقت ، وعرفت منه أنه يعمل محاسبًا ، وتحدثت معه عدة مرات فى إطار الكلية ثم أبدى رغبته فى أن يرتبط بى فرحبت به وشجعته على التقدم لأبى . ورحب به أبى كثيراً وأعطاه «كلمة شرف» أن تتم خطبتنا بعد عام عقب تخرجى ، واتفق معه على المهر والشبكة وكل تفاصيل الزواج ، بما فيها أننا سنتزوج فى مدينة أخرى غير المدينة التى تقيم فيها أسرتى ، وصارحه أبى بأنه لا يملك شيئا يساعدنى به فى إعداد الجهاز . فازداد تمسكه بى على عكس ما يفعل بعض الشبان الآن حين يصدمون بعجز أسرة الفتاة عن المشاركة فى الأعباء .

وقضينا الفترة الباقية على دخولى الامتحان بغير أى خطوة رسمية اعتمادا على كلمة أبى للمحاسب الشاب . وفى هذه الأثناء تسلل حبه إلى قلبى رغم تباعد فترات لقائنا وانشغلت به وأسعدنى أن الجميع يشيدون بخلقه وأصله الطيب . ومع أنه كأى شاب كان يأمل فى مساعدة أبى له فى أثاث الشقة ، إلا أنه تقبل الأمر الواقع بسماحة حين تأكد له عجز أبى عن ذلك ، وقال إن «الأثاث» مهما كان ثمنه لا يعمِّر البيوت . . وإنما يعمرها الوفاق والإخلاص ، واتفق مع أبى على أن يقوم هو بالتأثيث فى حدود إمكاناته على أن نستكمل حياتنا فيما بعد . ومضى عام على الانتظار ، وهو يعد الأيام على قرب موعد الخطبة ، وفجأة تقدم لى طبيب ثرى من أسرة ميسورة طالبا يدى ، ورحب به أبى بشدة ولم يشر معه إلى مشروع الخطبة المتفق عليها ، وبدأ يقارن بين مميزاته ومميزات المحاسب الشاب فيجده يَرْجُحه فى كل شىء بلا منافسة ، فهو سوف يعفيه أيضا من المشاركة فى الجهاز ، لكنه سيؤثث بيت الزوجية بما يتفق مع إمكاناته المادية التى لا تقارن بها إمكانات المحاسب الشاب ، وهو طبيب دخله كبير وله إيراد خارجى وأسرته ميسورة ، كما أنه من أهل المدينة التى نقيم فيها ، وبالتالى فسوف يكون عش الزوجية بالقرب من أسرتى وليس فى مدينة أخرى . وبعد تفكير قصير وضغط هيِّن بسيط من أبى وأمى ، وجدت نفسى بعد قليل أؤيد رأيهما وأقبل الطبيب بل «وأفرح به» ولا تسألنى . . وماذا عن الحب الذى تسلل إلى قلبى تجاه المحاسب ، لأننى تنكرت لهذا الحب فى غمار فرحتى بالإمكانات المادية والأسرة الكبيرة والجهاز الفاخر ، بل وفى غمار سعادتى بإثارة حسد

وغيرة زميلاتى منى حين أفوز بهذه الزيجة الممتازة . وبقيت مشكلة «كلمة شرف» التى ارتبط بها أبى مع المحاسب ، وقد تخلص منها بغير عناء كبير بأن طالبه بمهر وشبكة أكبر مما اتفقا عيه ومما يقدرعليه بكثير ، وتمسك بمطلبه فأدرك الشاب نية الغدر ، وأحس بانقلابنا عليه دون سبب مفهوم فغادر بيتنا محسوراً ، وأنا أسمعه يردد «حسبى الله ونعم الوكيل» بصوت عال أرادنى أن أسمعه ، ولم أتوقف عند ذلك بل شغلت عنه بالشبكة الذهبية الثمينة التى أهداها لى خطيبى الجديد وتفاخرت بها أمام زميلاتى وأثرت حقدهن ، مع أنى لم أرتد ذهبًا فى حياتى قبل ذلك ، وتمت الخطبة وجرى إعداد الأثاث الفاخر والزواج سريعًا وسعد الجميع ماعدا الخطيب المغدور به ، وفاز أبى بالإعفاء الكامل من مسئولية زواجى وفزت أنا بالشبكة والمهر والأثاث الفاخر والشقة اللائقة ، وفاز زوجى بالفتاة الجميلة التى أرادها لنفسه ، وانتقلت إلى عش الزوجية ونسيت تمامًا مشروع خطبتى الأولى ، وبدأت شهور الزواج الأولى فى قمة السعادة ، ثم ظهرت بوادر الحمل علىّ، لكنه لم يتم للأسف لأنى تعرضت لعارض صحى بسيط أدى لنزول الجنين ، وتجاوزنا الأزمة نفسيًا بعد فترة قصيرة . . وأملنا أن نعوض ما فقدناه سريعا لكن الحمل لم يثبت مرة ثانية رغم كل المحاولات ، وحاول زوجى علاجى بكل الوسائل الممكنة فلم أفز بالحمل ، وإنما تأكد من أننى لن أحمل مرة أخرى فبدأت معاملته لى تتغير . . وبدأت المشاكل بيننا حتى وصلت إلى حد الضرب والإهانة ، وراح يعايرنى بأننى عاقر ويهددنى من حين لآخر بالطلاق ، وبأنه يستطيع أن يتزوج غيرى فى أية لحظة ، وبلغ الأمر بأسرته أن كاد

بعض أفرادها يعتدون بالضرب على أبى حين تدخل للدفاع عنى فى أحد خلافاتنا ، وتكشفت لى السعادة التى حلمت بها عن بيت صامت بارد موحش . . لا مكان فيه لدفء الأنس والعاطفة والعشرة الطيبة ولا مكان لراحة البال والإحساس بالأمان والاطمئنان للغد فيه ، وأصبحت أرى قطع الأثاث الكبيرة الثمينة ، وكأنها أشباح تخيفنى وتقض مضجعى وتذكرنى بخيبتى وتعاستى ، حتى أصبحت أقضى فى بيت أبى البسيط من الزمن أكثر مما أقضيه فى بيت الزوجية الذى حلمت به . فنحن فى خلافات ونزاعات دائمة . . وكلما استقررت فى مسكنى أسبوعين أو ثلاثة سمعت من الأشياء الصبيانية شيئًا جديداً عن خيانة زوجى ، فأواجهه بما سمعت وينفجر الخلاف بيننا وأغادر البيت وهكذا . ومضت على هذه الحال ست سنوات ، وذات يوم كنت مع شقيقى أشترى لوازمى من أحد المحلات ، ففوجئت برؤية المحاسب الشاب القديم ومعه فتاة جميلة وهادئة وطفل وليد يتبادلان حمله فى تعاون جميل ، ويتحادثان فى ألفة وود واحترام والسرور ينضح من وجهيهما . . فخفق قلبى بشدة، وسرت برودة شديدة فى أطرافى وأحسست كأن كل من فى المحل يعرف أنى قد غدرت بهذا الشاب ، جريًا وراء الإمكانات المادية فعاقبنى الله بالتعاسة مع زوجى . . وبينما أنا فى اضطرابى رآنى خطيبى السابق أنظر إليه ، فنظر إلىّ نظرة احتقار وددت معها لو انشقت الأرض وبلعتنا . وأدركت فى هذه اللحظة أكثر من أى وقت آخر عمق تعاستى، وتنبهت إلى أننى «أتسول» شقيقى لكى يخرج معى لقضاء

حاجياتى لأنى لا أجد زوجى دائمًا . . أو فى نزاع معه ، فى حين يعيش الآخر . . الذى غدرت به فى سعادة وهناء مع زوجة سعيدة به ، ومضى هذا الموقف تاركا آثاره فى نفسيتى . . وأنا الآن فى بيت أبى مرة أخرى فى نزاع جديد من نزاعاتنا بسبب تصرفاته الصبيانية وخياناته لى التى وصلت إلى حد معاقبته رسميًا فى عمله عليها وبسبب إهاناته وإهانات أسرته وسوء معاملتها لى . وقد فقدت الإحساس بكل شىء وتجعد وجهى وعجزت عن الاختيار الصحيح . فهل أختار الطلاق والحياة كعاقر وحيدة . . أم أختار العودة إليه وإلى كل ما أعانى منه معه ، والأمران كلاهما مر . . أرجو أن تشير علىّ بما فيه الخير لى ، وألا تكون قاسيا علىّ لأنى قد نلت عقابى من الدُّنيا ولم أعد قادرة على المزيد وشكرا لك .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لن أقسو عليك ياسيدتى لأنك قد عرفت فعلاً بتجربة الألم كل ما كنت أريد أن أقوله لك ، فأدركت قيمة ما عبر عنه بفطرته السليمة خطيبك السابق من أن البيوت لا تُبنى بالمتاع الفاخر أو الشبكة الثمينة . . وإنما تُبنى بما هو أهم وأبقى كالوفاق والإخلاص والرغبة الصادقة فى مشاركة إنسان أفراح الحياة وأحزانها ، وعرفت أن السعادة الحقيقية لا ينالها الإنسان صافية إذا اهتدى إليها ببوصلة الحسابات المادية وحدها ، أو إذا كان دافعه إليها إغاظة الآخرين وإثارة أحقادهم أو إذا وطأ فى طريقه إليها قلوب الآخرين . . وعرفت الكثير والكثير ، لكن هناك شيئًا واحدًا يبدو لى أنك لم تعرفيه حق معرفته بعد ، وهو أنك لم تحملى حباً حقيقياً لخطيبك السابق ، وإنما خُيِّل إليك أو توهمت أنك قد أحببته ، لأنك لو كنت قد عرفت الحب حقًا معه لما غدرت به بهذه السهولة العجيبة . . ولما ضحيت به أبداً على مذبح الأشياء الصغيرة التى لا قيمة لها ولا أثر فى السعادة الحقيقية ، كما فعلت أنت مع خطيبك السابق . وعلى أية حال فإن ما يعنينا الآن هو تعاستك الحالية ومستقبل علاقتك الزوجية . وفى رأيى أنه لا معنى أبدا للمعاناة ومكابدة الآلام

حتى نهاية العمر . . إذا لم يكن للاحتمال هدف نبيل يبرر للإنسان مقاساة ما يعانيه . . وليس من بين أهداف الحياة هدف واحد يمكن قبوله لتبرير شقاء الإنسان سوى حرصه على سعادة الأبناء إذا كانت حياتك خالية من هذا المبرر النبيل . . فبأى هدف آخر يمكن تبرير هذه الحياة القلقة المضطربة التى لاتعرف السعادة ولا الأمان !.

إن هناك نوعًا من العلاقة العاطفية يسميه علماء النفس علاقة «الحب - الكره» ، وهى علاقة معقدة تجتمع فيها أحيانًا مشاعر الحب والكراهية معًا فى قلب إنسان تجاه إنسان آخر يحبه وينقم عليه بعض الأشياء والتصرفات ، ولا يستطيع الابتعاد عنه أو نزع حبه من قلبه ، ولا يستطيع فى نفس الوقت التخلص من مشاعر الكراهية له بسبب ما ينقمه عليه من أعمال وتصرفات . وهذه العلاقة قائمة بين كثيرين وإن لم يتنبهوا لحقيقتها . . وكل ما أخشاه هو أن تكون علاقة كل منكما بالآخر من هذا النوع المعقد من العلاقات ، ولهذا فأنت مطالبة أولا أن تتعرفى على حقيقة مشاعرك تجاه زوجك ، وأن تحددى بأمانة مع النفس على ضوئها رغباتك الحقيقية فى الاستمرار معه مع ما يحمله لك ذلك من نذر استمرار المعاناة ، أو فى بتر هذه العلاقة وطىٍّ صفحتها مع ما يحمله لك ذلك من خيبة أمل ووحدة لبعض الوقت ، وحين تتوصلين مع نفسك إلى تحديد حقيقة المشاعر والرغبات ، فسوف تستطيعين تحديد الطريق الذى تسيرين فيه بلا ندم ، لأنك ستختارينه بملء إرادتك وبعد أن اكتسبت خبرة ثمينة بالحياة وبالأشياء والأهداف التى تستحق المعاناة من أجلها وتلك التى لا تساوى لحظة معاناة واحدة من عمر الإنسان ،

ولو سألتنى عن رأيى فى علاقتك بزوجك لقلت لك على ضوء ما قرأت من تفاصيل أخرى فى رسالتك إنها ليست زواجًا بقدر ما هى طلاق مؤجل ، فزوجك لن يتوقف فيما يبدو لى عن تصرفاته الصبيانية التى أدت به إلى مجازاته إدارياً فى عمله . وأنت لست على استعداد للتغاضى عما يفعل ، والتسليم به كأمر لا حيلة لك فيه ، وعلاقة الاحترام وحسن المعاشرة والاقتناع والتراحم ليست قائمة بينكما . . وبنيان الزواج نفسه ، إلى جانب كل ذلك ، هش لا تسنده أية دعائم من الرغبة المشتركة فى إسعاد الأبناء ، وتيسير رحلة الحياة عليهم ، وسفينتك هائمة تتقاذفها الأمواج باستمرار بين مرفأين هما بيتك وبيت أبيك . . فماذا بقى لكما إذن من علاقة الزواج كما أرادها الله لنا ؟ يا سيدتى إذا كان الانفصال قدراً مؤجلاً . فالأفضل أن يتم وأنت فى سن الشباب ، والحياة ممتدة أمامك لتعويض ما نلت من شقاء ومعاناة ، وفرصك أكبر للالتقاء بمن توافقه ظروفك ويأنس إليك وتأنسين إليه ، لكن بشرط واحد هو ألا تحاولى من قريب أو بعيد إفساد حياة خطيبك السابق أو التأثير على استقراره أو البحث عن حل لشقائك على حساب سعادة أسرته الصغيرة وأمانها ، فلقد انتهت صفحتك معه إلى غير رجعة ولا أمل فى إعادتها مرة أخرى ، وإنما الأمل كل الأمل فى أن تتخلصى أنت أولاً من ضعفك مع زوجك . . ومن خوفك من المجهول . . ومن عجزك عن تحمل تبعات الاختيار المؤلم بشجاعة . . ولك بعد ذلك أن تنتظرى تعويض السماء ومواساتها للتعساء ، وأن تسلمى بأن إطالة العناء لا تعنى

إلا مزيدا منه ، وأن تبديد العمر حرصًا على بعض متاع الدُّنيا الذى لا قيمة له أو حرصًا على مظهر بيت وأسرة لا وجود لهما فى الحقيقة لا يعنى إلا تبديد الأيام بلا طائل . . وإنما الأحرى بك أن تراجعى الموقف كله بأمانة وموضوعية . . وأن تفكرى فى قول الشاعر حين قال :

إنْ كانَ منزلتى فى الحبِّ عندكم

ما قدْ علمْت فقدْ ضيَّعتِ أيامِى

وأظنك قد «علمت» فما معنى .. إضاعة الأيام ؟

أنا سيدة في السادسة والثلاثين من عمرى ، على قدر كبير من الجمال. أبى موظف بإحدى الهيئات الحكومية وأمى ربة بيت، ونحن أربعة أبناء: بنتان وولدان ، وكان ترتيبى الثالث بين إخوتى . وحين ولدت زاد دخل أبى مع قدومى إلى الحياة فاعتبرنى فألاً حسناً وأحبنى كثيراً ودللنى كثيراً. ثم جاء أخى الأصغر فبدأت به سلسلة أحزان هذه الأسرة ومتاعبها. فلقد أُصيب وهو فى عامه الأول بشلل الأطفال فى إحدى ساقيه عقب تعاطيه المصل، وبدأت معاناة أمى معه فى العلاج الطبيعى على مدى سنوات حتى تحسنت حالة ساقه إلى حد كبير، وإن كانت مازالت تؤثر على نفسيته. ثم دخلنا مرحلة الشباب وأتممنا تعليمنا والتحقنا بالوظائف ، وسافر أخى الأكبر الذى يكبرنى بعامين إلى السعودية ليعمل هناك ، وكان على خلق ودين فسعد كثيرا بسفره إليها ليؤدى العمرة والحج أكثر من مرة، وأداهما فعلاً وكرر العمرة . . لكنه لم يكرر الحج لأن شقيقى الممتلىء بالصحة والشباب توفى فجأة بأزمة قلبية مباغتة ، وعاد إلينا داخل صندوق ليخيم الحزن على حياتنا جميعًا ويتمكن من قلب أمى ويعشش فيه للأبد. وتجاوزنا هذه المحنة القاسية بصعوبة بالغة ، وبعد فترة بدأ يتقدم لى بعض الشباب لكنى كنت أشترط فيمن أتزوجه أن يكون مستريحًا من الناحية المادية لكيلا أعانى معه متاعب الحياة بعد أن عانيت ما يكفينى من آلامها، ولم أكن أؤمن بالحب بل كنت أسخر من خرافات

زميلاتى عن حبيب القلب والكفاح مع شريك الحياة لبناء عش المستقبل طوبة طوبة ، وأرى أن الزواج الصحيح هو زواج العقل الذى تتوافر له كل الإمكانات المريحة ومع ذلك فلقد وقعت فى المحظور . . ولا أعرف حتى الآن كيف وقعت وارتبطت عاطفيًا بشاب على قدر كبير من الوسامة . . لكنه من أسرة بسيطة وإمكانياته المادية شبه منعدمة . . ورفضت من أجله كل من كانت تتوافر فيهم أحلامى السابقة فى زوج المستقبل من شقة لائقة مجهزة بكل شىء إلى سيارة إلى الدخل الكبير ، واضطررت لتبرير رفضى إلى أن أصارح أسرتى بارتباطى بهذا الشاب فوافقوا عليه على مضض ، لكنه استطاع بعد فترة قصيرة أن يكسبهم إلى صفه بتودده إليهم والتفانى فى خدمتهم وبتحمله لمسئوليتى من كافة النواحى وحرصه على إرضائى .

وبينما نحن نستعد للزواج السعيد اكتشفنا فجأة مرض أبى بالمرض اللعين ، وجاء اكتشافه متأخرا جدا وبعد فوات الأوان ، ففشلت كل المحاولات لحصاره وعشنا عامًا كئيبا نرقبه وهو يعانى ما لا طاقة لبشر به ، ثم يرحل إلى جوار ربه مستجيرا به مما عاناه .

وبعد رحيل أبى بفترة تزوجت ، وقبلت أن أُقيم مع زوجى فى شقة صغيرة قمت أنا بتجهيزها وبتأثيثها بأثاث مناسب من عائد عملى ومما ورثته عن أبى ، وبدأت حياتى الزوجية وكلى أمل فى أن تنسينى أحزانى ، فلم تمض شهور حتى أحسست بالاختلاف الرهيب بين شخصيته التى عرفتها خلال فترة الارتباط الطويلة ، وبين شخصيته التى عايشتها للمرة الأولى فى بيت الزوجية ، واكتشفت أنه غير قادر على

تحمل المسئولية على الإطلاق ، ويريدنى موظفة عاملة فى الصباح وربة بيت تتحمل مسئوليته بالكامل من الإدارة إلى كافة نفقات البيت بعد الظهر . . ثم زوجة وحبيبة فى المساء وبغير أى مشاركة من جانبه فى المسئولية المادية أو الأدبية عن الأسرة . . وفكرت طويلا فيما واجهته وقررت الرضا بأقدارى بعد أن دبَّ فى أحشائى دبيب ثمرة الحب ، لكنى صدمت - وبعد فترة قصيرة جدًا من زواجنا - بأنه قد بدأ فى خيانتى وفُصل من عمله بشركة خاصة بسبب علاقة بينه وبين إحدى الموظفات ، ووقعت بيننا مشاجرة حامية بسبب هذه الكارثة ، ثم بدأنا صفحة جديدة تعهَّد لى فيها بالإخلاص والاستقامة ، فلم تمض فترة قصيرة حتى عثرت فى جيبه على ما أثار شكوكى وواجهته به وكل ذلك ولم يمض على زواجنا سوى شهور . . وبدأنا صفحة أخرى ثم عندما علم بحملى طلب منى إجهاضه بدعوى أننا لسنا مستعدين ماديًا لرعاية طفل ، مع أننا لم نكن مدينين لأحد فرفضت الإجهاض خوفاً من عقاب الله وخوفًا على نفسى . . وعمل بوظيفة حكومية ، ولم تمض أسابيع حتى علمت بوجود علاقة له بإحدى زميلاته فكثرت مشاجراتنا ، وبدأت أفقد الأمل فى إمكانية إصلاحه ، ويئست منه وقررت أن أدعه لنفسه يفعل بها ما يشاء وأتفرغ لطفلى الوليد وأركز كل حياتى له ، لكنه تمادى فى مضايقتى واستفزازى ومحاولة إذلالى ، كأنما يعاقبنى على أنى أحببته أربع سنوات ورفضت من أجله كثيرين ، ولم أعد أعرف ماذا يريد بالضبط فطلبت منه الطلاق ، ورفض بشدة فى البداية ، ثم تم الانفصال بعد مفاوضات طويلة والألم يعتصرنى لفشلى وخروجى من حياتى الزوجية الخائبة بطفل

بريء لا ذنب له في اختياري لمن تزوجته ، وفكرت في أمري ثم قررت أن أكرس حياتي كلها لهذا الطفل الضحية ، لكي أعوضه عن أقداره الحزينة . ولم أستجب لأية رغبة للزواج مرة ثانية لكيلا أحكم عليه بزوج أم بعد أن أصبحت له زوجة أب بعد فترة ليست طويلة من انفصالي عن أبيه . وتركز أملي في الله في أن يمنحني الصحة والقوة التي تعينني على أن أواصل مشواري في رعاية طفلي وإسعاده حتى أصل به إلى بر الأمان . لكن حتى هذا المطلب البسيط يا سيدي لم يتحقق للأسف ، فلقد أصبت بعد قليل وفي يوم مشئوم في حادث أنهى مرحلة كاملة من حياتي . . ونقلني إلى مرحلة أخرى مختلفة تمامًا ، أكدت لي أنني ممن قدر عليهم الشقاء من البداية للنهاية . فلقد نتج عن الحادث إصابتي بشلل نصفي أقعدني عن الحركة وأدخلني في متاهات لا آخر لها من العمليات الجراحية ، فما إن أنتهي من إحداها . حتى أبدأ الأخرى ولا تسلني عما ألاقيه من عذاب تهون إلى جواره كل عذابات الدُّنيا في هذه العمليات الجراحية ، ولا تسلني عما عانيته وأعانيه من الآلام النفسية التي طبعت وجهي بطابع الألم ، وطبعت وجه أمي بطابع الحزن المقيم وهي تبكي ابنتها . . وأنا أبكي طفلي الذي عجزت عن رعايته وبدأ يفتقدني . . وبدأت تظهر عليه علامات العصبية وأنا قعيدة مشلولة الجسد والتفكير ، لا أملك له شيئًا بعد أن كنت شعلة من النشاط وتحمل المسئولية ، ولقد أنفقت كل مدخراتي ومدخرات الأسرة جميعًا على هذه الجراحات التي لا تنتهي ، وناءت بها ميزانيتي وكثرت ديوني ومرضي لا يرحم وكل يوم يظهر الجديد . . وتتراكم المشاكل وأجدني وسط كل

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

ليس لدينا من مرشد إلى فهم حكمة الألم الإنسانى إلا بعض الإشارات الإلهية فى التنزيل العزيز ثم فى الحديث الشريف كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشِّر الصابرين﴾ أو مثل قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» . . ومثل قوله عليه الصلاة والسلام «ما من شوكة تصيب المؤمن إلا يكفر الله بها خطاياه أو يرفع بها درجاته» والبشرى دائمًا ياسيدتى للصابرين الراضين بأقدارهم العالين فوق أحزانهم . إذ فيما عدا أمثال هذه الإشارات فنحن لا نعرف الكثير ، ولا يحق لنا أن نتساءل لماذا كانت اختباراتنا نحن قاسية واختباراتهم هم هينة ، فالله يسأل ولا يُسأل هو جل شأنه عما يفعل ، ونحن فى النهاية نتصور غالبًا أن حياة الآخرين خالية من الآلام ، فى نفس الوقت الذى يعتقدون هم فيه أن حياتهم حافلة بها وحياتنا نحن مبرأة منها ، وهكذا يتبادل الجميع غالبًا حسن الظن بحياة الآخرين وسوء الظن بحياتهم . ولو أجَلْنا النظر حولنا لرأينا من الآلام ما قد يقنعنا بأننا لسنا وحدنا «أحباء الأقدار» الذين تختصهم وحدهم

بمحنها واختباراتها ، ولو كان من حقنا فعلاً أن نسأل لماذا كابدنا نحن الآلام فى حياتنا، ومضت حياة الآخرين هينة لينة . . لوجب علينا أن نتساءل مثلاً فى نفس الوقت لماذا راح من راح من الضحايا الأبرياء فى نكبة الزلزال الأخير . . ونجونا نحن مع أننا كابدنا معهم نفس اللحظات الرهيبة، ولوجب علينا أن نسأل أيضًا وماذا جنى الأطفال الأبرياء الذين لم يقترفوا ذنبًا ولم تدنسهم الدُّنيا بعد بدناياها ، حتى يلقوا هذا المصير المؤلم ، ولو فعلنا وأجهدتنا الأحزان لما وجدنا لنا من نجاة فى النهاية سوى فى الإيمان بالله والتسليم بمشيئته والرضا بقضائه وقدره ، والوقوف عند حدود ما يعلو على أفهامنا من تصاريفه .

ولقد روى عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قوله «**يقول الله تعالى : مَنْ لمْ يرضَ بقضائى ولم يصبرْ على بلائى ، فليخرجْ من تحت سمائى وليختر رباً سواى**» .

فأين النجاة لنا فى بحر الأحزان إلا فى قارب الصبر على ما كرهنا والأمل فى أن يرفع لنا درجاتنا بما لقينا وما صبرنا .

لا نجاة لنا إلا فى ذلك ياسيدتى . . وآلام الحياة ليس من الضرورى أن تكون عقابًا دنيويًا على ذنوب أو آثام اقترفها المبتلون . . وإلا لما كان الأنبياء هم أشد الناس بلاء . . وأكثرهم كروباً وآلاماً . . ومن واجبنا دائمًا أن نتجاوز مرحلة الوقوف أمام السؤال الأبدى . . لماذا حدث ما حدث ؟ إلى التفكير فيما نستطيع أن نفعله لكى نخفف عنا

خسائر ماقد حدث فعلا ، ولا نستطيع تغييره الآن ، لكننا نستطيع بكل تأكيد أن نخفف من آثاره علينا وأن نتواءم معه . . ونتطلع إلى ما وراءه من الألطاف الخفية التى تجزينا عما لقينا خير الجزاء . .

فاستعيذى بكلمات الله التامة ياسيدتى من وساوس الصدور ، وتطلعى للحياة بقلب يخفق بالأمل الدائم فى رحمة الله ، وتأكدى من أن فرصتك فى الحياة لم تضع ولن تضيع ، ومن أن المستقبل سوف يحمل لك ما يعوضك عما لقيت من آلام بإذن الله وبقدر البلاء يكون الجزاء دائمًا فى الدُّنيا والآخرة ، وتفضلى بالاتصال بى مساء الاثنين القادم لعلى أستطيع لك شيئًا يخفف عنك بعض العناء . .

هذا العناء عاجزة عن إدراك حكمة الله فيما أنا فيه . . هل هو ذنب اقترفته ويعاقبنى الله عليه ؟ أو يعاقب به طفلى الذى لا يجد من يرعاه؟ . . أم هو ذنب اقترفته أمى ويعاقبها الله عليه بى وبشقائها فى خدمتى نفسيًا وجسديًا؟ . .

إن هذه الأسئلة تدق فوق رأسى ليل نهار ، فأجبنى بصدق ياسيدى . . هل هو اختبار لى أم لأمى أم لطفلى . . وهل كتب علىّ الشقاء من بداية حياتى إلى نهايتها ، إذ أنى أكاد أكون لم أنعم بيوم واحد من الراحة ربما منذ انتهت مرحلة الطفولة اللاهية وحتى الآن. هل عندك جواب مريح عن هذه الأسئلة ؟

أنا من قارئات بريدك منذ سنوات طويلة . . وقد قرأت رسالة «الحل الموفق» التى تشكو فيها أم معذبة من ابنتها الوحيدة الجميلة ذات الأعوام الثمانية والعشرين التى تحب زميلاً لها متزوجاً ولديه أبناء ، وفكَّر فى التقدم لخطبتها لكنها أبت ذلك إشفاقًا عليه من رفض أبيها له ، وكان الحل «الموفق» الذى توصلا إليه هو استمرار الحال بينهما على ما هو عليه . . هو متزوج وعلى خلاف مع زوجته كما يزعم، وهى لن تتزوج أحدًا . . والمقابلات مستمرة بلا نهاية ولا أمل فى حل آخر . . وطلبت منك الأم الحزينة أن تنصح ابنتها وتبصِّرها بحقيقة ما تفعل وبما هى مقْدمة عليه ، فرددت عليها رداً حكيمًا مفاده أنك تنصح الابنة أن تتعظ بتجارب الأخريات اللاتى اعتمدن على الحب وحده فى اختيار شريك الحياة ، وتجاهلن العوامل الأخرى الكثيرة التى يقوم عليها بنيان الزواج ، ومن أهمها ألا يتجاهل مشروع الزواج المشاكل المحيطة به من كل جانب ، فتصبح قنابل موقوتة تنفجر فى أى لحظة ، ومنها أيضًا ألا يبدأ الإنسان طريقه للسعادة بمشكلة لم تجد حلاً نهائيًا لها ، فترشحه للشقاء والمعاناة بعد قليل . . وقلت لها فى ردك إن أسرة زميلها المتزوج والأب ستظل عامل جذب أساسيًا يجذبه كقطب المغناطيس إليها بعد الزواج . . وينذرها هى بالمتاعب خاصة حين تهدأ العواطف . . ويفشل الزوج فى احتمال عناء انقسام الشخصية بين حياته الجديدة وواجبه ومسئولياته العائلية

والأدبية تجاه أولاده وزوجته الأولى. فيعيدها إلى عصمته سرا إن كان قد انفصل عنها . . أو يخون عهده مع فتاة القلب التى تزوجها وينفصل عنها ويعود لحياته الأولى نادمًا . إلى آخر ما قلت لها .

ومع احترامى لهذا الرد الحكيم ، فإننى أنصح هذه الفتاة بألا تستجيب إلى حرف واحد منه وألا تعمل به! لماذا ؟ هذا ما سوف تشرحه لك تجربتى الشخصية بعد قليل .

فأنا سيدة فى الثالثة والثلاثين من عمرى ، جميلة بإجماع الآراء، وقد نشأت فى أسرة متماسكة ميسورة وتعلمت فى مدرسة أجنبية راقية وتفوقت فى دراستى ، فرشحتنى المدرسة بعد الثانوية العامة لمنحة دراسية بإحدى الجامعات البريطانية. وسافرت وأنهيت دراستى هناك فى فترة قياسية بتفوق ، وعدت فعملت مُدرسة فى نفس المدرسة التى تخرجت فيها ، وبمعهد للغات الأجنبية إلى جوارها ونجحت فى عملى ، وذات يوم جاء رجل وسيم جذاب ليسأل عن حال ابنته التلميذة من الناحية الدراسية ، وكان لطيفًا وشكرنى على اهتمامى بابنته . . وأثنى على نطقى السليم للغة الانجليزية الذى انعكس على نطق ابنته وانصرف تاركًا فىّ أثراً طيبًا. ومنذ ذلك اليوم بدأ يتردد على المدرسة بكثرة بحجة السؤال عن ابنته ويطيل الحديث معى ، وانتهت اللقاءات بغير تفاصيل طويلة إلى أن وجدت نفسى أعيش فى قصة حب مع رجل متزوج ولديه أبناء بغير مقاومة من جانبى ، وكان دائمًا يشكو من زوجته ويقول إنها لا تهتم بشىء إلا بنفسها وأنه يفتقد معها الحب والحنان ، وأنه كان سينفصل عنها سواء التقى بى أو لم يلتق . . إلخ وصدقته فى كل ما قال ،

وأشفقت عليه من تعاسته واتفقنا على أن يتقدم إلى أسرتى ، وأبلغت أمى بأنه سوف يجىء ليخطبنى وبأنى موافقة عليه . . ولم أشر إلى أنه متزوج ولديه أبناء ، ليس رغبة فى إخفاء الأمر لأنه لايمكن إخفاؤه . . وإنما لأنى كنت أعتبره أمراً ليس جديراً بالاهتمام ، وإن الأمر الأهم هو أن أرتبط بالإنسان الذى أحببته ! وجاء فى موعده وذُهل أبى وإخوتى حين علموا أنه متزوج وأب ورفضه أبى بغير تردد. فانهرت باكية وسألت أبى وأمى من بين دموعى : هل تريدان تعاستى ؟ . . فأجابنى أبى بأن ما أنا مقدمة عليه هو التعاسة الحقيقية ، أما هما فلا يريدان إلا سعادتى . وسمعت من أبى كلامًا كثيراً كله حكمة ومنطق كردّك على فتاة «الحل الموفق» ، وسمعت من أمى كل الاحتمالات التى سأتعرض لها إذا تزوجت من أحببته ، وهى شبيهة بنفس الاحتمالات التى عددتها أنت فى ردك على الرسالة وأنت تحاول إقناع الفتاة بأن تتبصَّر طريقها ، لكنى لم أقتنع بحرف واحد من كل ما قيل لى ، خاصة أننى كنت كلما قابلته وحكيت له عن حجة من حججهما للرفض بادر بدحضها على الفور وتذليل العقبة التى يشيران إليها .

وكان أبلغ ما قاله لى إنه سوف يطلق زوجته ، وسوف نعيش معًا بعيداً عن الجميع وسوف ينقل حياتنا إلى دولة أخرى لعمله الخاص فيها مصالح . . وسيدير شريكه العمل فى مصر . . ولم تجد أسرتى بُداً من الموافقة على زواجى منه على مضض بعد أن عرفوا أنى لم أنقطع عن مقابلته . وتزوجنا وكل من حولى حزين لزواجى هذا ، وأنا وحدى التى فى قمة السعادة والابتهاج ، ولم أستطع مواصلة عملى فى المدرسة بعد

أن كثرت الهمسات والأقاويل حولنا فتركتها وتركت المعهد ، وسافرنا بعد قليل إلى الدولة الأخرى ، ورشفت رحيق السعادة التى حلمت بها ووجدتها حقيقة وليست أوهامًا ستختفى بعد قليل وتطل المشاكل حين يتبدَّد «ذهول القلب» الذى يُعمى الأحباء عن المشاكل الكامنة تحت السطح ، كما حاولت أنت أن تقنع فتاة «الحل الموفق» فى ردك ، وكما حاولت أمى وأبى أن يحذرانى أنا أيضًا . .

إلى أن تلقى زوجى خطاباً من أولاده ، وكان أول خطاب يصله منهم بعد فترة من القطيعة ، ففرح به جداً وقرأه مرات ومرات ثم جلس شاردا فتركته لنفسه حتى لايحس بأنى لاحظت شيئًا ، وبعد ذلك بدأت خطابات الأبناء تصل بانتظام . . وبدأ حديثه يتحول تدريجيًا من حديث الحب والشوق إلى الحديث عنهم حتى أصبحوا محور حديثه الدائم ، وبدأت أدرك فى هذا الوقت عمق ارتباطه بهم ، وفزعت حين أخطأ ذات مرة ونادانى باسم زوجته الأولى ، لكنى هوَّنت الأمر على نفسى بأنها زلة لسان عابرة . . لكن الزلة تكررت وفى مناسبات أخرى جرحت إحساسى كامرأة ، ثم جاء شريكه فى زيارة للبلد الذى نقيم فيه ، وانفرد بزوجى بعد الغداء فى حديث طويل ، وبعد أسبوع أبلغنى زوجى أنه سيعود مع شريكه إلى مصر لإنهاء بعض الأعمال وسيعود بعد فترة قصيرة ، وسافرا معا وغاب شهراً كاملاً قبل أن يتصل بى ليبلغنى بموعد عودته ، وعاد فاستقبلته فى المطار وتلقيته بلهفة صاعقة . . ورغم ذلك فقد أحسست بشىء غريب فى مشاعره ، وبأن شوقه لى مفتعل وليس نابعًا من القلب ، وفى اليوم التالى تلقيت خطابًا من أختى نزل علىّ

كالصاعقة . . فقد أبلغتنى فيه أن زوجى الحبيب الذى تعاهدنا معًا على أن نعيش قصة حب بلا بداية ولا نهاية إلى آخر العمر ، قد أعاد زوجته إليه وأمضى فترة وجوده فى مصر كلها مع زوجته وبين أولاده وأن شريكه كان واسطة الصلح بينهما .

وزلزلتنى الصدمة القاسية وواجهته بما عرفت ، فإذا به يقول بهدوء إن سبب العودة هو مسئوليته التى لا يستطيع أن يتخلى عنها تجاه أولاده .

ولم يقل إنه أيضًا «حبه» لزوجته الأولى مع أنى كنت أحس بذلك فى قلبى .

وأغلقت باب الحجرة ورائى وانهمرت فى بكاء طويل وأنا أتساءل بلا صوت :

ماذا فعلت بنفسى . . وأين الحب والأحلام التى حلمنا بها وتحدينا الجميع لتحقيقها . . هل كانت وهمًا وسرابًا . . أم كانت من «ذهول القلب» الذى تتحدث عنه . . والذهول لايدوم وبعده يعود العقل فيصحح الأخطاء . . وأنا كنت خطأ من هذه الأخطاء فى حياته ؟

ووقعت فى حيرة شديدة . . هل أبقى وأتحمل الأمر الواقع وأتحمل نتيجة خطئى ، أم أعود إلى أهلى وقد خسرت كل شىء ؟ ولم أجرؤ على العودة وبقيت لم أغادر البيت ، لكن البيت نفسه هو الذى تغير فيه كل شىء ، فقد تغير زوجى إلى النقيض وأصبح يتحاشى النظر إلىّ والكلام معى ويقضى معظم وقته فى مكتبه أو فى مقابلات العمل وكلما عاتبته

على انشغاله عنى اعتذر بكثرة العمل . ثم سافر مرة أخرى وتركنى للوحدة والمعاناة ، وعلمت بالمصادفة أنه يصفِّى أعماله فى هذا البلد ، فأدركت أنه يصفِّى أيضًا حبنا وحياتنا ، ولم أستطع الاحتمال أكثر من ذلك ، وعدت لمصر ووجدت أهلى فى انتظارى ورجعت معهم إلى بيت الأسرة ، ورويت لأمى كل ما عانيته وفوجئت بأنها لم تندهش لشىء ، لأنها كما قالت لى كانت تتوقع لى هذه النهاية وتجاهل الجميع الأمر ، ولم يجرحوا مشاعرى بالسؤال عن زوجى . وبعد أسبوعين لم يسأل عنى خلالهما شريك الأحلام والوعود ، أحسست ببعض الأعراض المرضية فتوجهت للطبيب وأجريت بعض التحاليل وصُدمت صدمة قاسية حين جاءت نتيجتها تؤكد أنى حامل ، بل لايتصور أحد تعاستى حين علمت بذلك ، وقبل أن أتمكن من الاتصال بزوجى لأبلغه بالنبأ «السعيد» . . سبقنى هو بإرسال ورقة الطلاق إلىّ فنزلت المفاجأة على رأسى كالمطرقة . . ولم أُفقْ منها إلا فى المستشفى ، وأمى تبكى إلى جوارى والأطباء يقولون لىَ إنى كدت أفقد الجنين لولا أنهم أسعفونى . . وليتهم ما أسعفونى . وهوَّنت أمى الأمر علىّ وطالبتنى بالصبر على نصيبى وصبرت على ما اخترته لنفسى وما فعلته بها ، حتى بلغ ابنى الوحيد الآن أول مراحله الدراسية ، ودفع هو الآخر معى ثمن خطئى ولكن دون ذنب جناه ، فلقد حُرِمَ من وجود الأب إلى جواره ومن الحياة الأسرية الطبيعية . . وأحسست بمسئوليتى عنه وبأنه قد أصبح كل حياتى ، فرفضت ومازلت أرفض كل من يتقدمون للزواج منى ويكفيه ما فعلته به . . فهل أجىء له أيضًا بزوج أم ؟

وبعد أن كنت محبوبة من كل الصديقات وكنّ يفخرن بصداقتى ، تباعدت عنى كل الصديقات المتزوجات ، وأصبحت غير مرغوبة منهن حتى فى محيط الأهل ولهن العذر فى ذلك ، فلى سابقة فى خطف الأزواج . . وساءت سمعتى بينهن للأسف فاضطررت للابتعاد عن الجميع ، وسافرت مع شقيقى وابنى للعمل فى إحدى الدول الغربية إلى أن ينسى الآخرون قصتى . وبعد فوات الأوان أدركت قيمة كل حرف قاله لى أبى وهو يحاول أن يثنينى عن الارتباط بمن أحببته ، وأردت زواجه ضد العقل والمنطق . . بل وعرفت أيضاً وجه الحكمة فى حديثه لى عندما شكوت من تعاستى ووحدتى وسوء ظن الصديقات بى وتباعد الأهل فقال لى : وماذا تنتظر من تسلب زوجة أخرى استقرار حياتها وتسلب أولاداً أبرياء أباهم وحياتهم الأسرية الطبيعية ؟ . . هل تنتظر من المجتمع «جائزة» على فعلتها ؟ إن هذه هى الجائزة الوحيدة التى تستحقها من تفعل ما فعلت أنت . . فاصبرى على ما تلاقين ولا تلومى أحداً !

فانصح تلك الفتاة بأن تنجو بنفسها وبحياتها من هذا المصير ، لأن استمرار علاقتها بهذا الرجل دون زواج سيحكم عليها بسوء السمعة وسيغلق أبواب قلبها دون من تستحقه ويستحقها ، وسوف يتباعد عنها الشباب وتحكم على نفسها بالوحدة إلى نهاية العمر ، أما إن تزوجته فسوف تتعلم الدرس الذى تعلمته أنا بهذه التجربة المريرة فى حياتى ، وسوف تدفع نفس الثمن ، وما كانت نصيحتى لها فى أول الرسالة ألا تستجيب لرأيك الحكيم ، إلا سخرية مريرة من نفسى ومن حالى فى

بداية القصة ، وهى دائمًا نفس البداية لكل قصة مشابهة حين كان الجميع يرددون على مسامعى صوت الحكمة والخبرة ، فلا يجد طريقًا إلى عقلى المغلق دون كل شىء إلا حديث الحب فى غمرة «ذهول القلب» الذى يُعمى البصيرة عن حقائق الحياة ، فامض فى طريقك ياسيدى وواصل نصح الغافلات . . وتحذير وإدانة سارقات الأزواج وسارقى الزوجات، وهادمى سعادة الأبناء واستقرارهم كما تفعل دائمًا ، لعل الجميع ينتبهون ويتجنبون أخطاء السابقين . . ويتعلمون الحكمة مرة فى الوقت المناسب وليس مثلى بعد فوات الأوان ! !

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

فى كتاب «كليلة ودمنة» عبارة حكيمة تقول : «أنفعُ العقل المعرفة بما يكون وما لا يكون . . مع طيب النفس وحسن الانصراف عما لا سبيل إليه» ، ومأساة الإنسان تكمن فى أحيان كثيرة فى عجزه عن «حسن الانصراف» عما لا سبيل له إليه أو عما يتصادم مع أحكام العقل وموج الأعراف والقيم السائدة فى مجتمعه فيتعامى عن تحذيرات الآخرين المخلصة . . ويصر على نطح الصخر والسباحة ضد التيار ، ويبرر لنفسه دائما إقدامه على نفس الطريق الذى آب منه الآخرون نادمين بأن تجربته هو «تختلف» عن تجاربهم ، وقصته لا مثيل لها فى الأولين ، وهذا ما يترجمه تمامًا «حالك» ، حين كان الجميع يرون «تحت الرماد وميض نار» ويرددون على مسامعك نداء الحكمة فلا يجد طريقه إلى عقلك المغلق إلا على نداء القلب . . وهذا أيضًا ما يترجمه موقف فتاة «الحل الموفق» من النداءات المماثلة .

إن رسالتك يا سيدتى تقول الكثير ، وليس عندى ما أُضيفه إليها بعد كل ما قلته فى تعليقى السابق على رسالة الحل الموفق ، سوى أنى أدعو بطلتها إلى تأمل تجربتك هذه طويلاً والتفكر فيها طويلاً مع مراجعة

النفس، وعدم الاستنامة إلى الوهم المخدر المريح «بأننا شيء مختلف عن الآخرين» فالحق الذى يتعامى عنه البعض هو أن الجميع أمام قانون الحياة سواء وأن الاستثناء من القاعدة حتى وإن كثرت أمثلته لايقاس عليه .

أما أنت ياسيدتى فكفاك ما نلت حتى الآن من عناء ومن «جائزة» المجتمع لمن يتحدون قيمه السائدة . . وتوقفى عن جَلْد نفسك إلى مالانهاية بخطئك الوحيد . فلقد أديت الضريبة كاملة عنه ، وآن لك أن تتفتحى من جديد للحياة وتتخلصى من ذباب الندم ولسع الإحساس بالذنب تجاه ابنك الوحيد ، وواجهى الدُّنيا بنفسية طبيعية واستعداد سليم لاستقبال مؤثرات الحياة والتفاعل معها ، فأنت مازلت فى سن الشباب ، ولاشك أن هناك وسيلة ما للتفاهم مع زوجك السابق على حل يوفق بين أمومتك ورعايتك لطفلك ، وبين حقك فى الحياة الطبيعية بعد حين ، وليس من الحكمة أن تحكمى على نفسك بالوحدة الأبدية ، فتضيع فرصك الملائمة فى الاستقرار مرة أخرى ، وتتلفتين حولك بعد حين فلا تجدين فى يدك إلا قبض الريح وحصاد الهشيم .

لقد رفضت منذ سنوات نداء العقل وعرفت بالتجربة قيمته . . فأرجو ألا ترفضيه مرة أخرى الآن . . فلا تعرفى له قدره مرة أخرى إلا بعد فوات الأوان . .

أنا سيدة عمرى 36 سنة ، طُلِّقت منذ أربع سنوات من زوجى ووالد أولادى الثلاثة بعد عدة مشاحنات ومشاكل لاحصر لها وبعد زواج دام عشر سنوات ، تحملت خلالها غيرته الشديدة التى تصل إلى حد الشك ، وتحملت عدم قدرته على إيجاد شقة لنا كل هذه السنوات الطويلة وتنقلت خلالها بين الشقق المفروشة ، كما تحملت أيضًا عصبيته وتهديده الدائم لى بالطلاق عند كل خلاف ، وقد تحملت كل ذلك ولم أشْكُ منه أو أحاسبه عليه باعترافه هو نفسه ، لكن ما لم أتحمله هو إحساسه المركب بالتفاوت فى المستوى الاجتماعى بينى وبينه وانعكاس ذلك على تصرفاته معى ، وقد كان ما دفعنى للتجاوز عن هذا التفاوت بيننا هو أنه أقنعنى أن منهاجه فى الحياة هو كتاب الله وسنة رسوله ، واتضح لى بعد أن عاشرته أنه يتخيَّر من هذا المنهاج ما هو فى صالحه ، ومن القانون ما هو فى صالحه ، ومن العرف ماهو فى صالحه ويعيش معى بهذا المنهاج وكنت قد أحببته فتغاضيت عن كل ذلك . . لكن إحساسه بالتفاوت الاجتماعى بيننا جعله لايفلت فرصة لكى يهيننى فيها ويهين عائلتى بل حتى أبى الراحل الذى لم يره إلا وينتهزها ، لكى يقنعنى ويقنع نفسه بأنه إذا كان أهلى أفضل منه اجتماعيًا فهو أفضل منهم فى الدين والخلق ، وبعد سبع سنوات طويلة فى تحمل هذه الإهانات صابرة وصامتة وبلا رد من جانبى بدأت أرد عليه الإهانة بمثلها ، خاصة أن عائلته لا تزيد من ناحية

الدين والخلق على عائلتى ، فكان يحاسبنى عل ردى عليه ولا يحاسب نفسه على بدئه لى بالإهانة بدعوى أن الزوجة ينبغى ألا ترد على زوجها .

وأعترف لك بأنى وجَّهت إليه كلامًا لم أتصور يوماً ما فى حياتى أنى سأوجهه إليه أو لأى إنسان آخر ، لكن بنفس الصدق الذى أقول لك به ذلك ، أقول لك أيضًا إنى لم أبدأه مرة واحدة بالهجوم وإن كل ذلك قد جاء ردًا على كلامه هو ، وهكذا انتهى الأمر بينى وبينه بالطلاق منذ أربع سنوات ، وعدت إلى بيت أسرتى بأطفالى الثلاثة . وقد تعجب وربما تتهمنى بالعته إذا قلت لك إنى أمضيت هذه السنوات الأربع وأنا أفكر بصفة شبه دائمة فى أمر واحد هو : من منا المخطىء . . ومن منا المصيب فيما حدث ؟ وكلما أرهقنى التفكير فى ذلك وطردت هذا السؤال المرهق من ذهنى لا يلبث أن يعود ليلح علىّ بعد بضعة أيام ويعكر صفو حياتى ويؤرقنى ويفقدنى القدرة على التعامل مع أطفالى وهم الضحية الحقيقية لما حدث بيننا ، أما سبب تشتتى وحيرتى الشديدة فى هذا الأمر فهو أن زوجى السابق يصر على أنى كنت سليطة اللسان وغير عاقلة حتى أصابنى تكرار هذا الكلام بالحيرة الشديدة .

والآن ياسيدى فهو يعرض الصلح ولكن بشرط أن أذهب أنا إليه معتذرة عن لسانى السليط ، وبعدها يعفو عنى ويردنى إلى عصمته .

وأنا لا أستكبر على الاعتراف بخطئى إذا كنت مخطئة حقا ، لهذا فإنى أسألك : هل كان معى عذرى حين رددت عليه بتلك العبارة إياها فى الواقعة التى رويتها لك ورجوتك ألا تنشرها حرصًا على مشاعره

.. أم أننى فعلا سليطة اللسان كما يقول زوجى السابق ؟ إن كل رجائى لك هو ألا تتحامل علىّ بدافع حرصك المعروف على لمّ شمل الأسرة وإعفاء الأطفال من التمزق بيننا ، لأننى وإن كنت أقدر لك دوافعك الشريفة هذه إلا أننى أومن أيضا بأن ما بُنى على خطأ فهو خطأ ، وإذا تم رجوعى إليه بأسلوب خاطىء فسيأتى يوم طلاقنا الثانى لا محالة ، أما إذا كنت مخطئة حقًا ، فانصحنى قبل أن أفقد عقلى من التفكير المتواصل وأجبنى عن السؤال الذى يؤرقنى إلى حد لا تتخيله وهو : هل إذا رددت عليه بعض الإهانة وليس كلها فى ثورة الغضب ، فإنى أكون بذلك سيئة الأدب ؟ إننى لا أكذبك القول فى أنى مازلت أحبه رغم غضبى من أفعاله ورغم حرمانى من حبه بسبب ألفاظه وإهاناته لى باليد واللسان وأنا زوجته، لكنى وصلت إلى حد من البلبلة وتضارب الآراء يجعلنى أبكى أكثر أوقاتى أحيانا من الغيظ من إهاناته السابقة لى وأحيانا من الندم على ردى عليه ، فأرجو أن تنقذنى من حيرتى وتفيدنى برأيك !

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

رأيي ياسيدتي الذي أُسأل عنه أمام الله قبل أن أُسأل عنه أمام البشر ، هو أن تراشق الزوجين بالسباب الجارح الذي يمس الأهل والحرمات خطيئة يتحمل الاثنان مسئوليتها بنفس القدر ؛ بغض النظر عمن كان البادئ منهما بالتجريح ومن كان المجيب ، لأنه إذا أخطأ أحدهما لابد أن يترفَّع الآخر عن الرد عليه بنفس أسلوبه ، ويستطيع أن يعاقبه على خطئه بأكثر من طريقة ، ليس من بينها أبدًا مُبادلته سباب السفهاء . . هذا هو رأيي تمامًا كما أن رأيي أن إهانة الزوج لزوجته وأسرتها وطعنه عليها في دينها مهما كانت الأسباب والدوافع ليس أبدا من حسن المعاشرة أو حسن الخلق أو من الدين ، وأن أفضل ما تفعله الزوجة في مثل هذه الحالة هو أن تحذره من العودة لهذا الإثم ، وتنبه بحزم إلى خطورته ومساسه بها وبكرامتها ، وإلى تعارضه مع القيم الدينية والخلقية ومع «المنهاج» الذي أمرنا به الله ورسوله في معاملة الأهل ، فإن عاد لفعلته غاضبته لفترة قصيرة . . فإن تمادى فيما يفعل شكته لحكَم عَدْل من أهله هو وليس من أهلها ، حتى لا تجعل من أهلها طرفًا في نزاع يمس كرامتهم

ومشاعرهم وقد يخرجهم عن حيادهم المطلوب فى الحكم ، فإن لم تفلح كل هذه الوسائل معه وأصر على خطئه وخطيئته جاز لها أن تختار بين كرامتها وبين مصلحة أبنائها ، فإذا اختارت مصلحة أبنائها وواصلت كفاحها معه لتغييره كانت أمًا بارة بأبنائها ومضحية من أجلهم بشرط أن تنزِّه نفسها عن التراشق معه بالسباب حرصًا على معنويات الأطفال وأخلاقياتهم ، وأن تكتفى بمجانبته إذا أخطأ وتفادى أى احتكاك معه يتيح فرصة تكرار الإهانة ، أما إذا اختارت كرامتها وحدها وفضلتها على كل الاعتبارات فلها أن تفعل ، لكنها لا تكون فى مثل هذه الحالة أمًا مضحية بالقدر الكافى من أجل أبنائها ، ولكل إنسان أن يختار ما يراه ملائمًا له بلا لوم عليه فيما اختار ، لكن فضل الأم المضحية أكبر بكل تأكيد من غير المضحية ، وفضل الزوج الذى يحفظ على زوجته كرامتها ويعفيها من جراحات اللسان أكبر ممن يؤذى زوجته فى أهلها ونفسها ، وإساءته لزوجته عليه هو قبل أن تكون عليها ، لأنه إنما ينال من نفسه وعرضه قبل أن ينال من أى إنسان آخر ، وهى أكبر دليل على الغباء البشرى لأنه ينال بها ممن اختارها أمًا لأبنائه ، فإن كانت وأهلها كما قال فهو سفيه ، لأنه اختارها لهم بملء إرادته ويتمسك بعشرتها ويواصل الحياة معها ، وإن كانت غير ذلك فهو ظالم يرمى زوجته وأهلها بالباطل وجزاء من يرمى الآخرين بالباطل معروف . والعبارة التى رددت با عليه وتسأليننى عنها ياسيدتى للحق أقسى من العبارة السخيفة التى بادرك هو بها ، ولم يكن هناك أى مبرر من الأصل لو كان حقًا يتبع منهاج الله ورسوله ، لكن كليكما مخطىء فى حق صاحبه . . البادىء والمجيب على السواء وإذا

كان البادىء أظلم ، فالمجيب إذا كان زوجة أو زوجًا أو ذا رحم ظالم أيضًا لأنه كان يستطيع أن يُنزه نفسه عن الرد على صاحبه ، وأن يُشعره بخطئه بغير أن ينجرف إلى استخدام أسلوبه الشائن في الحديث والتجريح، وسندى فى ذلك هو رأى الإمام الشافعى الذى رأى رجلاً يسفه على رجل من أهل العلم فالتفت لأصحابه وقال : نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به، فالمستمع شريك القائل وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء فى إنائه ويحرص على أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفيه عليه لشقى بها قائلها !

وعلى هذا الأساس فإن البدء بالإهانة خطأ فاحش وردها بنفس الطريقة خطأ ، لا يقل فحشا وخيركما من يبدأ بالاعتذار لصاحبه عن اقتناع صادق بأن ما وجهه إليه من إهانات ما كان له أن يجرحه به . وسعادة ثلاثة أطفال وصلاح أمرهم ونشأتهم بين أبوين يرعيان حدود الله فى حياتهما أمانة كبرى سوف تسألان عنها أمام الله سبحانه وتعالى وأمام هؤلاء الأبناء أنفسهم حين يشبون عن الطوق ويسألون كلاً منكما ، ما هذه المبالغة فى الإحساس بالكرامة ، وما هذا العناد الغبى الذى قضى علينا بالتمزق بينكما طوال العمر ، ولماذا لم يتنازل أحدكما عن بعض حقه ويُحسن عشرة صاحبه لنعيش معكما حياة طبيعية وأنتما لم تستشيرانا فى اختيار أبوينا قبل إنجابنا ؟

وسيكون الحساب عسيرًا بكل تأكيد ياسيدتى فسارعا معًا إلى تفاديه قبل أن يجيء وقت الحساب ، ولو أتيح لى أن ألتقى بزوجك لنصحته

بإخلاص بأن يذهب هو إليك في بيتك ، فيكون ذهابه إليك اعتذاراً ضمنيًا عن حياته الماضية معك . .

ثم تبدئينه بالاعتذار فيرد على اعتذارك باعتذار مماثل ، ويبدأ معك صفحة جديدة بلا إهانات ولا تجريح ، خاصة أن كلاً منكما فيما أحس يحب الآخر ، لكنه لايحسن التعبير له عما يكنه له من حب . وبعد ذلك أليس عجيبًا أن يكون الإنسان قادرا على أن يحسن عشْرة صديق يمضى معه رحلة العمر الطويل بغير أن يتبادلا إهانة واحدة لأن كلاً منهما يتجاوز عن انفلاتات أعصاب الآخر إذا انفلتت ، ثم يأبى ويستكبر فى نفس الوقت أن يتجاوز عن أتفه انفلات إذا جاء من جانب الزوجة أو الزوج ؟ . . أليس هذا دليلا آخر على قمة الغباء البشرى ! والزوج والزوجة أحق بمثل هذا التسامح ومثل هذا التعالى على الصغائر ؟ إن مقاساة الأهل والولد أى تحملهم والسعى فى إصلاحهم والصبر على هفواتهم بمنزلة الجهاد فى سبيل الله كما يقول الإمام أبو حامد الغزالى .

فلماذا لاتجاهدان معا لإصلاح كل منكما الآخر والصبر عليه وإقناعه بالحسنى بعدم البدء بالإهانة أو الرد عليها وحق كل منكما - مقدمًا- علىَّ أنا ؟

أنا السيدة التى نشرت رسالتها منذ أسابع تحت عنوان «التفكير الطويل» وقد كتبت إليك أسألك عن مدى خطئى فى ردى على إهانة زوجي بإهانة مماثلة ، ورويت لك أننى تحملت فى البداية إهاناته لى ولأسرتى ثم بدأت أرد عليه بعنف شديد ، وانتهى أمرنا إلى الطلاق وظللت عامين طويلين وأنا أفكر هل كنت المخطئة والمسئولة عن فشل الزواج وتشريد أطفالنا الثلاثة أم هو ، ولم أتوصل إلى قرار مريح ثم أبدى زوجي السابق استعداده للعودة بشرط أن أعتذر له أولا . فطلبت رأيك ورجوتك ألا تتحامل علىّ لأعترف بخطئى وأعتذر لكى أعود لزوجى لمجرد الحرص على سعادة الأبناء ، لأن الزواج الذى يُبنى على الخطأ فى رأيى لن يكون مصيره إلا الانهيار مرة أخرى ، وقد رددت علىّ ، ونصحت مطلقى بأن يسعى هو إلى فيكون سعيه إلى اعتذاراً ضمنيًا فأبادره أنا بالاعتذار الصريح بعد أن حكمت بأن ردى على إهانته الأخيرة قبل الطلاق كان أقسى مما قاله لى ، ويبدو يا سيدى أن كلماتك كان لها فعل السحر معه ، فقد فوجئت به بعد نشر رسالتى بأيام فى مقر عملى ، ورأيته يتجه فى جدية ناحيتى ثم يطلب مقابلتى بعد انتهاء العمل ، ووافقت وأنا أتلهف على معرفة ما يريده منى ،

ومرت ساعات العمل بطيئة ثم خرجت إليه فبادرنى بالسؤال فى جدية تامة : هل أنت كاتبة تلك الرسالة ؟ فلم أنكر ذلك رغم تخوفى من أن يكون سؤاله عنها بداية لمشاجرة جديدة . ففوجئت به يبتسم الابتسامة التى لم أرها منذ طلاقنا ثم يقول لى بارتياح : إذن فأنت مازلت تحبيننى ، وبدأ عتاب طويل بيننا فى كل شىء حتى فيما اتهمته به فى رسالتى إليك ، وأخرج كل منا ما فى صدره تجاه الآخر ، وروى لى أسباب تأخره فى التفكير فى إعادة جمع شملنا من جديد ، فقال لى إنه بعد طلاقنا بعام توفى والده وورث عنه بضعة آلاف من الجنيهات ، فاستطاع الحصول على شقة صغيرة ثم تعرف على فتاة وخطبها ، وأدرك كما قال منذ هذا الوقت أصالة معدنى وجوهرى وعرف كيف كنت أصبر على طباعه وثوراته إلى أن فاض بى الكيل . . بل وكيف كنت أصبر حتى على مضايقات والدته لى أثناء إقامتنا لديها فى فترات الانتقال من شقة مفروشة لأخرى ، فلقد اكتشف أنه قد خطب فتاة متغطرسة أساءت الأدب معه ومع أمه ورفضت السكن فى شقته الجديدة الضيقة ، وتمردت على كل ما قدمه لها والذى لم يستطع أن يقدم لى بعضه لضيق ذات يده حين كنا معًا . ففسخ خطبتها فى النهاية غير نادم على ما يكلفه ذلك ، وقرر بعدها أن يعود لمن كان يعتبرها سليطة اللسان ، وطلب من صديقتى وهى زميلته فى العمل التى تعرفت عليه للمرة الأولى فى حفل زفافها ، وكانت تقوم بدور حمامة السلام بيننا أن أعتذر له أنا أولا وإلا فلن يعود ، وفسر لى ذلك بأنه كان متخوفًا من رد فعلى تجاهه ، فلما قرأ رسالتى وقرأ اعترافى فيها بحبى له قرر أن يُقدم على الخطوة التى كانت

يتهيّبها وجاءنى ! وسمعت اعترافه واحترمت صراحته . وشعرت بأن إعزازى له قادر على أن يجعلنى أصفح عنه ، واعترف كل منا للآخر بأنه يتوق إلى الأيام الحلوة القديمة التى كانت بيننا ، والتقيْنا بعد ذلك عدة مرات ثم أخبرت أمى برغبته فى العودة وتخوفت من نياته فى البداية . ثم جاء أعمامى الثلاثة وأخبرونى بأن مطلقى اتصل بأكبرهم طالبًا عودة المياه إلى مجاريها ، وسألونى عن رأيى فلُذْت بالصمت وفهم أعمامى أننى موافقة فثاروا جميعًا ، وانهالوا علىَّ بالاتهامات والتجريح لتفكيرى فى العودة لمن جرح كرامتى وأهاننى إلخ . فتلقيت كل ذلك صامتة ثم قلت لهم إن جرحى بإهانات زوجى لى لا يحس به أحد أكثر منى ، لكنى قبل أن أكتفى بالثورة لكرامتى ينبغى أن أتذكر أيضًا جروحه التى تسببت له فيها بإهاناتى أنا أيضًا له . . كما أن أطفالنا وعشرة السنين بيننا تجعل قبولى الرجوع إليه حقًا مشروعًا لى .

ولم يضايقنى هجوم أعمامى لأنى شعرت منه بأهميتى عندهم وبحرصهم علىّ ، ولقد اعتدت طوال حياتى خوفهم علىّ وعلى أمى وأخى بعد وفاة أبى رحمة الله عليه ، وانتهينا من كل ذلك إلى الاتفاق على أن يقدم لى مطلقى مهراً كمهر أى عروس أخرى وشبكة جديدة تليق بى ، وهدأت النفوس بعد أن لمس أعمامى صدق ندمه واعتذاره الذى أرضى كبرياء الجميع ، وبعد أن وعدته أنا أيضًا أن أتلافى أخطائى السابقة معه فى المستقبل .

والآن يا سيدى نستعد لزفافنا الجديد ولحياة جديدة ، يتحمل كل منا فيها عيوب الآخر وهنَّاته ، ويجعل كل منا هدفه فيها أن يسعد شريك

حياته لا أن ينتقم منه أو يثور عليه ، ولا أستطيع أن أصف لك فرحتى وفرحة أبنائى برجوع أبيهم إلينا ولا كيف تسعدهم ضحكاتى معه ونحن نجهز شقته الصغيرة لكى ننتقل إليها ، إننى أكتب لك رسالتى الثانية لأشكرك على كلمتك التى كانت سببًا هامًا من الأسباب التى دفعت زوجى لأن يعود لنفسه ويتنازل عن عناده ، ودفعتنى أيضًا لأن أتنازل عن عنادى وألتقى معه فى منتصف الطريق ، ولقد استأذنته فى أن أكتب لك بما جدَّ من أمرنا ، فرحب قائلاً إنه لا يستحى من أن يعترف بخطئه فخير الخطائين التوابون ، بل ورحب بأن أكتبها لعلها تجعل بعض الرجال الذين يستهينون بكرامة زوجاتهم يراجعون أنفسهم ، وتجعل بعض الزوجات اللاتى يتطاولن على أزواجهن يُمسكن ألسنتهن ويتحملن حياتهن بدلا من تصعيد الأمور إلى حد الطلاق وتشتيت الأبناء ، فقد لا يكون من الحظ السعيد ما يجمع بينهم مرة أخرى بعد الفراق كما جمع الله بيننا من جديد ، فلا يدفع الثمن فى النهاية إلا الأبناء وشكرا لك وجزاك الله عنى وعن زوجى وأولادى خير الجزاء .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

ليست كلماتي هي التي كان لها فعل السحر مع زوجك وإنما كلماتك أنت في رسالتك ، وخاصة تلك العبارة التي حرصت على أن أحتفظ لك بها في الرسالة لإدراكي لتأثيرها الطيب على الطرف الآخر . وهي العبارة التي تقولين فيها على ما أذكر «أعترف أنني مازلت أحبه لكنني إلخ . . » فاعترافك بأنك مازلت تحملين له الحب رغم ما جرى بينكما ورغم الانفصال الذي قارب السنوات الأربع كان هو الدعوة السحرية له لكي يعيد التفكير في الأمر كله من منطلق من جديد ، فالرجل يسعده دائمًا أن يحس بأنه محبوب من شريكة حياته وأم أطفاله رغم هنَّاته معها أو تجاوزاته ، ويُشقيه دائما أن يستشعر مشاعر البغض والكراهية من جانبها أو حتى المشاعر الحيادية التي لا تحمل له كرهًا ولا حبًا ، لهذا فقد أسَرْته أنت أولاً بهذه الكلمات ومهدت لي الطريق عنده ، وساعدته على إدراكَ

قيمة ما فقد بانفصاله عنك ، تلك التجربة الفاشلة التى خاضها وأتاحت لـه فرصة المقارنـة بـين مـن لـم تبـد حرصـًا عليـه ولا احتمالاً لـه ولا اقتناعًا به ، وبين من قبلت به ورضيت بظروفه وتحملت تجاوزاته ولم تحمل له بالرغم من ذلك سوى الحب .

ونحن لا نعرف الأشياء أحيانًا إلا بأضدادها ، والمرء قد يحتاج فى بعض الأحيان إلى الابتعاد بعض الشيء عن اللوحة الجميلة لكى يستوعب مزاياها ويرى كل أبعادها وخصائصها التى يحجبها عنه القرب الشديد والاعتياد وفى ذلك يقول الشاعر العربى :

ما كُنْتُ أعلمُ ما مقدار وصْلكم

حتى هجرْت وبعْضُ الهجْر تأديبُ

ولا شك أن كل ذلك ينطبق عليك أنت أيضا يا سيدتى كما ينطبق عليه . «فبعض الهجر تأديب» فعلا وتهذيب وترويض لكلا الطرفين على أن يكون أكثر مرونة مع شريك حياته وأكثر فهما لحقائق الحياة بحيث يستطيع أن يميز بحكمة بين ما يستحق منها التوقف عنده وبين مالا يستحق أن يتوقف أمامه دقيقة واحدة من مناوشات الحياة اليومية ، وفى خلفية اللوحة أو فى بؤرتها كان هناك وطوال الوقت أنبل الأسباب وأشرفها وأكثرها مدعاة لأن يتعالى المرء فوق الجراح والصغائر وهم الأطفال الثلاثة الذين لا تعرفين كيف تصفين فرحتهم الطاغية بعودة أبيهم إليهم ورؤيتك وأنت تتضاحكين معه ، والقلوب البريئة تعى بفطرتها

ما لا نتصور نحن أحيانًا أن تسمح لها أعمارها الصغيرة بإدراكه ، وهى لا تستشعر السعادة الحقيقية ولا الأمان إلا بين أبوين متعاطفين متراحمين ، ولا تشقى بشىء أكثر من شقائها بوقوعها بين أبوين متنابذين متصارعين متباغضين . فالحمد لله الذى هداكما إلى إنقاذهم من هذا المصير البائس ، فلا شىء فى الحياة ياسيدتى يعدل حياة هادئة وأسرة آمنة يتطلع صغارها إلى الغد بقلب سعيد ، وشكرا لك على رسالتك ولزوجك على نبل غايته منها وعلى شجاعته واعترافه بخطئه ورجوعه عنه ، فشجاع النفس حقا هو من لا يستحى من الاعتراف بخطئه ، إذا أخطأ . . ومن لا يتوانى عن الاعتذار لمن أخطأ فى حقه . . وضعيف النفس حقا هو من يكابر ويراوغ ويعاند عناد الحمير رافضًا الاعتراف بالحقيقة التى يراها الجميع ، فيفقد حب الآخرين بعد أن يفقد احترامهم ومع تمنياتى لكما بحياة آمنة سعيدة دائما بإذن الله .

أنا شاب عمرى 38 سنة . أعمل مهندسًا بإحدى الشركات العامة بالمدن الجديدة ، منذ بضع سنوات كنت فى زيارة لصديق لى يعمل بالكلية التى تخرجت فيها ، فرأيت فيها إحدى الطالبات وأعجبت بجمالها وهدوئها واحتشامها ، فطلبت منها عنوان أسرتها لأزور والدها فى أقرب فرصة وأعطتنى العنوان . وبعد أيام توجهت إلى المدينة التى تعيش فيها أسرتها وتبعد عن مقر عملى بمسافة متوسطة تقطعها السيارة فى ساعة .

وقدَّمت نفسى لأبيها وهو من رجال التعليم وللسيدة والدتها وهى موظفة جامعية فوجدت لديهما علمًا مسبقًا باسمى وسبب زيارتى ، وارتحت للأب والأم وللجو العائلى للأسرة وطلب الأب منى أن أكتب له اسمى وبياناتى وأتركها لكى يتحرى عنى ، وبعد 15 يومًا من الزيارة جاءنى الخبر السعيد بالموافقة على إتمام الزواج فور أن تنتهى فتاتى من امتحان السنة النهائية بعد أسابيع . وتزوجنا بعد تخرجها وسعدت بزوجتى وأقمنا فى شقتى التى أمتلكها فى أجمل موقع بمدينتى ، وأنجبت زوجتى لى طفلة جميلة تضاعفت بها سعادتى ، وبعد عام ونصف العام من زواجنا سافر صهرى للعمل بإحدى الدول العربية . وبعد سفره بقليل كنت مع زوجتى فى زيارة لأسرتها ، ففوجئت بوالدتها تطلب منى أن أنقل حياتى إلى المدينة التى تقيم فيها الأسرة وأستأجر مسكنًا بها وأتخلى عن شقتى التى اغتربت 3 سنوات عن مصر لكى أستطيع شراءها . وصُدمت

بالطلب وطلبت أن أسمع رأى زوجتى التى تشاركنى حياتى . ففوجئت بها تردد نفس الكلام بنفس المبررات بدعوى أن تعيش بالقرب من أسرتها ورجوتها ألا تتسرع فى هذا الأمر المهم ، وأن تُعيد التفكير فيه لأنه من الصعب علىّ أن أتخلى عن مسكنى وأهلى وأغير حياتى فجأة على هذا النحو ، وطلبت منها أن نعود إلى بيتنا بعد انتهاء الزيارة كالمعتاد ، وأن ندع هذا الأمر للتفكير الطويل ، فتدخلت الأم وأعلنتنى أن زوجتى لن تعود معى إلا إذا استجبت لهذا المطلب ، واستأجرت شقة بالقرب منهم ونظرت لزوجتى التى عاشرتها بالمعروف منذ تعارفنا منتظراً منها ألا تتخلى عنى ، ففوجئت بصمتها يخذلنى . . وغادرت بيت أصهارى ومرارة الخذلان فى صدرى ، وتركت زوجتى وابنتى هناك فى انتظار أن يعود صهرى فى إجازة نصف السنة الدراسية القريبة ، ليفصل بيننا بحكمته وعدله، وخاصة أننى تعاملت معه منذ تعرفت عليه كأب .
وتدخل الأصدقاء من الجانبين لإقناع زوجتى بالتخلى عن فكرة السكن بالقرب من الأسرة والعودة لمنزل الزوجية دون جدوى . ثم عاد الأب لمصر وتوجهت إليه وكلى أمل فى أن يحسم المشكلة ويعيد الاستقرار إلى حياة الأسرة الصغيرة . ورويت له كل ما حدث ففوجئت به هو أيضاً يردد نفس كلمات الأم ، وبين ذهولى وخيبة أملى تذكرت فجأة أن الأم قد روت فيما قبل أنها حين تزوجت صهرى كان يقيم فى مدينة تبعد عن أسرتها نفس المسافة تقريبًا ، فنجحت بعد الزواج بقليل فى أن تقنعه بأن ينقل حياته وعمله إلى مدينتها هى ، ويترك مدينته وسكنه فيها وأهله لتعيش هى بالقرب من أهلها . وتنبهت فى هذه اللحظة إلى أن القصة

القديمة تتكرر مرة أخرى بنفس التفاصيل ، مع اختلاف واحد هو أننى لا أرى سببًا واحداً مقنعًا لأن أتخلى عن حياتى ومدينتى وأهلى بها لأعيش فى سكن بالإيجار فى مدينة أهل زوجتى ، وأدركت أننى كنت أطلب المستحيل من صهرى حين انتظرت منه أن يحسم الأمر لصالحى ، وتولانى اليأس ورجعت إلى مدينتى وعملى حزينًا واستمرت زوجتى وطفلتى فى حياتهما ببيت الأسرة ، ومضت الشهور كئيبة وفى إحدى الليالى اتصلت أم زوجتى بشقيقتى الكبرى لتبلغها بنبأ مزعج هو أن طفلتى التى تبلغ من العمر عامين فقط فى حالة خطيرة بمستشفى الحميات ، وتطلب منها إبلاغى بذلك وتهيئتى للموقف حتى لا أفاجأ إذا نزل عليها قضاء الله بين لحظة وأخرى ، وهرولت منزعجًا إلى مدينة زوجتى وأسرعت إلى المستشفى لأجد طفلتى فى غيبوبة وعلى رأسها كمادات الثلج وحرارتها ثابتة 40 درجة منذ عدة أيام ، واستفسرت والقلق يقتلنى من الطبيب المعالج عن أسباب تأخر حالتها على هذا النحو ، وأجابنى بأن السبب هو تأخير علاجها علاجًا سليمًا عند بداية المرض – وتركها لمدة 3 أسابيع لعلاج طبيب امتياز ليس له حق ممارسة العلاج – من أفراد الأسرة ، مما أدى إلى فشله فى تخفيض حرارتها وتشخيص مرضها وحين أدرك خطورة الحالة أدخلها المستشفى بعد فوات الأوان . . ولم أسمع باقى حديث الطبيب ، وحملت ابنتى فى صدرى وكمادات الثلج فوق رأسها وأنا حريص على ألا تهز خلال الطريق وسافرت فورا إلى القاهرة وعرضتها على أكبر أساتذة طب الأطفال وأدخلها كل منهم مستشفى يتعامل معه لإجراء كل الفحوص والأشعة لها ، إلى أن أظهرت

الأشعة المقطعية والتشخيص السليم للمرض حاجتها إلى جراحة عاجلة في المخ. وأرسلني الطبيب الكبير إلى جراح المخ والأعصاب الشهير، وأدخلت ابنتي مستشفى خاصًا في مصر الجديدة، وأجرى لها الجراح الكبير الجراحة واستخرج من رأسها صديداً ودمًا فاسداً تجمعًا فيه بسبب إهمال العلاج السليم وطول فترة ارتفاع درجة الحرارة، وخرجت ابنتي من غرفة الجراحة إلى غرفة العناية المركزة لمدة 8 أيام طويلة، ثم غادرتها بعد أن مَنَّ الله علينا وعليها بالشفاء، وإن كان المرض قد ترك لها ولنا بصمة قاسية لا ذنب لهذا الملاك الطاهر فيها وهي شلل الجانب الأيمن من جسمها وعدم القدرة على الرؤية والسمع ولا حول ولا قوة إلا بالله. إن القلب ليبكي على حالها، لكن ماذا نفعل أمام إرادة الله سبحانه وتعالى، والأطباء يقولون لي إنها سوف تتحسن تدريجيًا مع مرور الوقت. وأن الأمل كبير في وجه الله سبحانه وتعالى في أن تسترد عافيتها وما فقدت من حواسها باستمرار العلاج والعناية، وإني لأكتب لك راجياً منك ومن قرائك أن تدعوا الله معي أن يمنَّ على ابنتي بالشفاء التام إن شاء الله.. كما أكتب لك أيضا راجيًا أن تخاطب زوجتي التي تقرأ لك بانتظام لكي تدعوها لأن تتفكر بإمعان في مستقبل طفلتنا الوحيدة المعذبة هذه، وأن تعود لمملكتها الصغيرة لنعتني معًا بملاكنا الصغير ونصل به إلى بر الشفاء بإذن الله.. عسى الله أن يغفر لنا ما تقدم من ذنب وأن يرضى عنا ويأمر لوحيدتنا بالشفاء.. وشكراً لك مقدمًا.

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

والله يا سيدى إنه لو كانت بينكما كل خلافات الدُّنيا وصراعاتها وليس هذا الخلاف التافه وحده ، ثم جرى لطفلتكما البريئة ما جرى لها من إصابة الأقدار ، لكان حقًا على زوجتك أن تنفض يدها من كل شيء وتهرع للعيش معك وللتعاون معك على رعاية هذه الطفلة المعذبة ومساعدتها على استعادة حواسها وصحتها !

و«المصائب تجمعن المصابينا» كما يقول الشاعر والمحن تؤلف بين النفوس المتغاضبة وتذيب الخلافات . . وأى محنة أشد إيلامًا لأب وأمٍّ من محنة تعرض صغيرتهما الوحيدة لهذا المرض القاسى ؟

ثم لماذا لا نحتكم دائما فى أمورنا إلى المنهاج العادل الذى شرعه الله لنا ، فنريح أنفسنا ونرضى بعدله وحكمه .

وقد قال جلَّ شأنه ﴿أسْكِنُوهنَّ من حيثُ سكَنْتم﴾ ولو شاء سبحانه أن ينقل كل زوج حياته وعمله وسكنه إلى حيث تقيم أسرة زوجته ، لأمرنا أن نسكنهن حيث تقيم «أمهاتهن وآباؤهن» وليس ضروريًا بعد ذلك أن نعمِّر الأرض ولا أن نسعى وراء الرزق ولا أن تلحق كل زوجة بزوجها . وتفارق أهلها كما هى سنة الحياة .

لقد نهى الله فى هذا الشأن عن أمر واحد فقط هو أن يكون الانتقال بالزوجة إلى حيث ينتقل الزوج متعمداً منه بقصد الإضْرار بها أو التضييق عليها أو تعريضها للخطر حتى تتنازل عن حقوقها لتنال الطلاق منه. وفيما عدا ذلك فسُنَّة الكون هى أن تتبع المرأة زوجها إلى حيث يقيم وتتهيأ له سُبل الحياة . والزواج عهد وميثاق على أن يتشارك الزوجان الحياة حلوها ومرها وأمنها وخوفها ، والعقد شريعة المتعاقدين ، والشرع الذى يبيح للزوجة أن تشترط على زوجها ألا يتزوج عليها بغير موافقتها لابد أنه يبيح لها بالضرورة ما هو أقل من ذلك شأناً . وهو أن تطلب منه قبل الزواج أن تعيش معه فى مكان محدد بعيد أو قريب من أهلها وللرجل أن يقبل أو يرفض ذلك قبل الارتباط بالرباط المقدس ، وبالتالى فلا حق لها فى أن تفرض عليه بعد الزواج والإنجاب وتشابك خيوط حياتهما معاً أن ينقل حياته إلى مكان آخر مادامت قد قبلت بظروفه كلها قبله . . ولىُّ الذراع وترجيح المصلحة الشخصية الضيقة على مصلحة الأسرة كلها ومصلحة الأبناء على وجه الخصوص أنانية بغيضة لا تتفق مع روح المشاركة التى هى عماد الزواج وتخرج الزوجة عن طاعة زوجها التى أمرت بها فيما لا معصية فيه للخالق .

والمرأة حين ترتبط بزوجها برباط الزواج المقدس يرفع الله عنها ولاية أبويها عليها ، ويلحقها بولاية زوجها تقديساً لعلاقة الزواج وإعلاء لشأنها ، وقصة المرأة التى استفتت الرسول الكريم فى زيارتها لأبيها خلال سفر زوجها وكان قد أمرها قبل سفره بألا تغادر بيتها حتى يعود ، قصة معروفة ومروية فى الكتب ، وقد أمرها الرسول بأن تطيع زوجها فى

ذلك، فكيف يمكن تقبل خضوع زوجتك لأمها فى هذا الأمر الغريب الذى يوافق هواها ؟

وكيف يسمح لها ضميرها الدينى والأخلاقى بأن تمزق أسرة صغيرة لمثل هذا السبب وحده ، خاصة بعد محنة طفلتها الصغيرة ؟

يا إلهى . . ألا يكفى زلزال واحد عرفنا منه خلال دقيقة واحدة من عمر الزمان أنه لا قيمة لشىء فى الوجود مقابل لحظة إحساس واحدة بالأمان والاطمئنان للغد ؟ ترى كم زلزالاً نحتاج إليه لكى نتخلى عن كثير من غبائنا البشرى وتعنتنا مع أنفسنا ، ومع أننا وحدنا على حق كل الحق . . والآخرون على ضلال أى ضلال ؟ !

ثم ولمن ترق القلوب إذن ، إذا لم يرق قلب زوجتك لطفلتها الضحية فتعود إليها وإليك وتتعاون معك على رعايتها وتمريضها خاصة وهى لا تنكر عليك خلقًا ولا سوء معاشرة ؟ وماذا تفعل إذن الزوجات «المجاهدات» اللاتى يتحملن كل أنواع الأذى من أزواج جبابرة ومستهترين حرصًا على سعادة أبنائهن واستقرار حياتهم ؟

لقد كان المفكر الفرنسى مونسكيو يقول : إننا يجب أن نقنع بعض الناس بالسعادة التى بين أيديهم ويجهلونها بالرغم من أنهم يتمتعون بها !

ويبدو أن زوجتك تحتاج إلى هذا النوع من الإقناع الذى أرجو أن يتفتح له عقلها وقلبها قبل فوات الأوان . فعودى يا سيدتى إلى طفلتك وزوجك ولا تضاعفى من عذاب طفلتك وسوء مصيرها . . وكل شىء

قابل للتفاوض بعد ذلك فى ظل الوفاق والرغبة الصادقة المتبادلة فى إسعاد شركاء الحياة . ولتكن طاعتك لزوجك فى هذا الأمر العادل هو أول ما تتقربين به إلى الله ، لكى يتم نعمته على طفلتك ويخفف عنها عناءها . . فكل شىء يهون - صدقينى - إلى جانب إسعاد هذه الطفلة التعيسة وما أنت مطالبة بشىء كثير من أجلها . . ولا أنت سترتادين الفضاء أو ستعيشين فى الجوزاء . . وإنما على مبعدة ساعة واحدة من بيت أهلك وأسرتك . . فما أتفه «التضحية» إن كان ثمة تضحية هناك . . وما أنبل العطاء الذى ستقدمينه لطفلتك وزوجك ولنفسك حين تتقاسمون جميعا رحلة الحياة والأمل فى الشفاء . . أتمه الله على طفلتك . . ورفع عنها كل بلاء . . والسلام . .

أنا آنسة فى التاسعة والعشرين من عمرى على قدر بسيط من الجمال ، أحمد الله عليه ، وأنا خريجة معهد عال ، ومحجبة وهادئة وخجولة وحساسة جدا . . وأكتب لك هذه الرسالة لكى يقرأها كل أب وكل أم ، ويحاولا أن يجنبا أطفالهما الصغار ما عانيته أنا فى حياتى . ولكى يعرفا أن الزواج ليس لهواً ومتعةً ، وإنما حياة مقدسة بكل ما فيها من فرح وحزن وألم وسعادة . . فلقد كان عمرى شهراً واحدا حين انفصل أبى عن أمى ومضى كل منهما فى طريق مختلف . . وبعد قليل تزوج أبى من أخرى وتزوجت أمى من آخر ، وعرفت فيما بعد أن زوج أمى قد رغب فى أن يضمّنى لبيته ويربينى لكيلا يحرم أمى من طفلتها الوليدة ، فكان رد فعل أبى لهذه الرغبة الإنسانية هو إهانته والإساءة إليه . ونشبت بعض المشاكل بينهما بسبب هذا الأمر ، كان أبى دائمًا هو البادئ بها فكانت النتيجة أن كرهنى زوج أمى ، وحرّم عليها أن ترانى أو تنفق علىَّ كما حرّم علىَّ زيارتها فى بيتها ، وامتثلت أمى لهذا الحكم القاسى منذ كان عمرى شهوراً . . ومازال الحكم ساريًا حتى الآن! وكانت أمى حين تغلب عليها عاطفة الأمومة وتشتاق لأن ترانى . . تتحايل على ذلك بحجة زيارة أمها وترانى سراً ، أما عن أبى فلقد انقطع عنى نهائيًا لا أراه ولا يرانى ولا يسأل عنى حتى بلغت من العمر 12 عامًا ، وكأنه بذلك لم يرحمنى فيضمنى إليه ويربينى ولم يسمح لرحمة زوج أمى بأن تشملنى حين أراد ضمّى إليه . وكان كل ما يربطنى به نفقة ضئيلة لا تكفى لإطعام

دجاجة يرسلها لجدتى بالبريد ، لأنه يقيم فى مدينة وجدتى تقيم فى مدينة أخرى، ولن أحكى لك ما عانيته فى طفولتى من آلام ومتاعب، إلى أن ضاقت جدتى المثقلة بأبناء صغار مات عنهم أبوهم ، فاستمعت لنصيحة إحدى خالاتى بأن تسلمنى لأبى لعله يستشعر مسئوليته عنى ، وهكذا حملت حقيبة ملابسى الصغيرة وأنا فى الثانية عشرة من عمرى ، وسافرت إلى المدينة التى يقيم فيها أبى وأمى وكانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها أبى وأتأكد من ملامحه.

ورحَّبتْ بى زوجة أبى فى اليومين الأول والثانى . . وفى اليوم الثالث تراجع الترحيب وأطلَّ الفتور ، وفى الأيام التالية ظهر الضيق بى واضحًا حين عرفت أنى جئت للإقامة الدائمة وليس فى إجازة صيفية قصيرة كما كانت تتصور ، فلقد أثارت المشاكل مع أبى وحسمت الأمر بقرار صارم بألا أبقى فى البيت يومًا آخر وخضع أبى على الفور. وحملت حقيبتى مرة أخرى ، وانتقلت إلى بيت صديقة لأمى إلى حين البت فى أمرى وكانت سيدة طيبة ولديها بنتان . . وجاءت أمى وتمت مناقشة مشكلة وجودى فى الحياة وتبودلت الآراء . . ثم استقر الرأى على الحل المناسب هو إلحاقى بمدرسة داخلية . . واستمعت للقرار صاغرة وأنا أسأل نفسى لماذا ياربى وأبى وأمى على قيد الحياة وتقدمت بأوراقى للمدرسة، وانتقلت إليها فعلاً ، فإذا برحمة ربى تهبط علىَّ من حيث لا أدرى ولا أحتسب. وإذا بالسيدة الطيبة التى استضافتنى ترفض هذا الوضع لى . . وتأخذنى من المدرسة لأقيم عندها وأنشأ مع بنتيها ، وفرحت بهذا الحل الذى لم أحلم به وانتقلت إلى بيتها مرة أخرى . . وعاملتنى هذه

السيدة بأفضل مما تعامل به بنتيها لأن الرحمة طبع أصيل فيها . . وكانت لى نعم الأم ونعم السيدة الفاضلة الحنون التى سأحمل لها فى قلبى ووجدانى كل عرفان وتقدير إلى أن أموت . وفى بيت هذه السيدة الطيبة واصلت تعليمى . . ووقفت هى إلى جانبى تحثنى على النجاح والحصول على الشهادة لكى أحمى نفسى من تقلبات الأيام ، ومضت السنوات بحلوها ومرها . وحقيبتى إلى جوارى دائمًا أحملها وأذهب إلى جدتى فى الأجازات ، لأخفف عن السيدة الطيبة مئونتى بعض الوقت وأنتقل أحيانًا بين بيوت الصديقات فى استضافة قصيرة لنفس الغرض ، وأنعم الله علىّ بصديقات وهبهن الله الحنان والعطف على من كان فى مثل ظروفى ، فكن يقدرن مشاعرى - ويوجهن لى الدعوات من حين لآخر لقضاء العطلات أو الأعياد أو بعض الأيام عندهن ويرحب بى آباؤهن وأمهاتهن ، وظللت على هذه الحال حتى حصلت على شهادتى العُليا ، فكان أول ما فعله أبى عافاه الله هو أن قطع عنى النفقة الشهرية . . كأنما يقول لى اذهبى وابحثى لك عن عمل ، ولم أكن فى انتظار هذه الإشارة فلقد بحثت بالفعل عن عمل على الفور ، وتنقلت بين عدة أعمال وفى هذه الأثناء رآنى طبيب يعمل خارج مصر ، وأعجب بى وتقدم لى عن طريق إحدى الصديقات ، ورحبت به كأمل لى فى أن تكون لى حياة مستقرة ، وتحرّى الطبيب الشاب عن ظروفى ثم رفض الارتباط بى ، لأنى كما قال من أسرة مفككة بالرغم من أنى متدينة وعلى خلق . . وهو يريد أسرة مستقرة وحسبًا ونسبًا . . لكن ما ذنبى فى ظروفى وأنا لم أُردها لنفسى ولم أصنعها . . لقد كان أهون علىّ لو قتلنى مما لو أجاب بهذه الاجابة مفسِّراً سبب رفضه الزواج منى رغم اقتناعه بتدينى وخلقى .

ولقد ساءت حالتى النفسية وكرهت الزواج وندمت على أنى فكرت فيه، وتجمَّعت أحزانى القديمة كلها فدعوت الله وأنا فى شدة الضيق . . رب أخرجنى من هذا البلد الذى ضاق بى على اتساعه ، فاستجاب الله لدعائى وحصلت على عقد عمل فى دولة عربية، وتركت مصيرى ومستقبلى لله يفعل به ما يريد ، وسافرت إلى هذا البلد ، وعملت فى جمعية نسائية أعمل وأقيم فيها وأمضيت عامين أديت خلالهما فريضة الحج واعتمرت عدة مرات ، وخلال وجودى بهذا البلد توفيت السيدة الطيبة التى رحمتنى حين ضاقت بى رحمة أبى وأمى ، وكان بيتها مفتوحًا لى فى كل وقت ، فأحسست أنى قد فقدت سنداً كبيراً لى فى الحياة وبكيتها كثيراً وحزنت عليها طويلاً ، ودعوت لها الله أن يؤجرها أفضل الأجر والجزاء عما قدمت لى .

وبعد عامين عُدْتُ فى إجازة إلى بلدى . . فلم أدر أين أذهب ، ولا أين أُقيم ، فبيت السيدة الطيبة الراحلة قد تزوجت فيه إحدى ابنتيها وبالرغم من أنى أعتبرهما شقيقتين لى إلا أن الوضع أصبح محرجًا لى ولم أجد مفرًا من استئجار شقة مفروشة كلفتنى الكثير مع ضعف مرتبى فى البلد الذى أعمل به . . وحاولت الحصول على شقة لتكون مستقرا لى فى بلدى فصدمت بالأرقام المطلوبة ، وزرت أبى وأمى وقمت بواجبى تجاههما إرضاء لربى قبل كل شىء . . وقلت فليكن حسابهما معه وليس مع بشر ، كما كنت أؤدى واجبى تجاههما طوال العامين اللذين أمضيتهما فى الخارج ، وانتهت إجازتى وعدت إلى حياتى المغلقة فى الجمعية النسائية . . حيث لا خروج إلا بصحبة حارس ولا شىء سوى العمل

ليلاً ونهاراً والإقامة . . ولقد مرضت بعد عودتى واشتد بى المرض فدعوت الله ألا يطيل مرضى لأن المرض هنا عذر غير مقبول ومرفوض ، ودعوت الله ألا يذلنى بالمرض لأحد. وفكرت أن أسافر إلى أوروبا لأدرس وأعمل . . ولكنى خشيت من تعارض تقاليدنا وعاداتنا مع الحياة فى أوروبا خاصة وأنا وحيدة ولا سند لى فى الحياة ، فهل رأيت ياسيدى ماذا فعل بى تسرع الأبوين بالطلاق ولديهما مولود عمره شهر واحد ثم انصراف كل منهما إلى حياته ناسيًا هذا المولود الذى جاء به إلى الحياة ؟

ثم إلى متى تستمر حالى هكذا . . وأنا هنا لا أرى أحداً ولا يرانى أحد كأننا فى سجن للنساء ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

أكاد أصدق أحيانًا أن «جريمة» بعض الأشخاص الوحيدة التى يُحاسَبُون عليها ويدفعون ثمنها فيما يلاقون من عناء . . هى مجرد أنهن قد «جاءوا» إلى الحياة ! وكل أبناء الطلاق المتسرع من هؤلاء الأشخاص ، الذين يسددون دينا لم يقترضوه ويعاقبون على جريمة لم يرتكبوها . ولعل فى رسالتك هذه أبلغ الرد على ما أسمعه أحيانًا من كل أم أو أب يفكر فى الإقدام على الطلاق بسبب عدم الوفاق الزوجى . من أن تأثير الخلافات والمشاحنات الزوجية أبلغ ضررًا على نفسية الأطفال وأخلاقياتهم من عواقب الانفصال والطلاق . وهى حجة فاسدة علميًا وإنسانيًا ، إذ أنه إذا كان الاختيار بين ضررين فلقد ثبت بالدليل ومن تجارب الحياة المتكررة أن تأثير تمزق الأبناء بين الأبوين بعد الانفصال أبلغ ضرراً بنفسياتهم وشخصياتهم من التأثير السلبى لنشأتهم فى ظل حياة زوجية غير مثالية . بل إنه لو لم يكن لاستمرار الحياة بين الأبوين مع سلبياتها من عائد سوى نشأة الأبناء تحت سقف بيت يظلهم ويحميهم من غوائل الحياة التى يتعرضون لها بعد الانفصال ، لكفى ذلك مبررًا كافياً لتحمل الأبوين عناء حياتهما مهما بلغت تعاسة كل منهما بالآخر . صحيح أن البعض يؤمنون بما قالته إحدى شخصيات رواية «مسافر

بلا متاع» للكاتب والمفكر الفرنسى جان أنوى من أنه لا خير فى الأسـرة إذا كانت الروابط بين أفرادها فاسدة . . أو منعدمة !

لكن هذا لا ينطبق فى رأيى على الأسرة ذات الأطفال الصغار الـذين لا ذنب لهم فى فساد الروابط أو انعدامها بين الأبوين ويصدق بالضرورة على الأسـرة التى لا أبناء لها . . وقـد يصدق فى بعض الأحيـان على الأسرة التى انتهت مسئوليات الأبوين فيها تجاه الأبناء الكبار ، لهذا فقد زادتنى رسالتك اقتناعا بما أؤمن به من أنه ما لم تكن هنا أسباب قهرية يستحيل تفاديها ، فإن من واجب الآباء والأمهات دائما أن يرجحوا سعادة الأبناء الصغار على سعادتهم الشخصية ، وأن يحتسبوا تعاستهم عند من لا تضيع عنده الأجور . ذلك أنه ليس التشتت وافتقاد إحساس البيت ، والانتماء إلى الحقائب بدلاً من الانتماء إلى الأسر ، هو فقط ما يدفعه أبناء الطلاق المتسرع من ضريبة ، وإنما قد يكون هناك أيضا ذلك الثمن المؤجل الذى دفعته أنت حين تخلى الطبيب الشاب عن الارتباط بك . ، هى ضريبة أخرى فادحة تدفعها الفتيات للأسف أكثر مما يدفعها الشبان ، إذ يتخوف البعض من الارتباط بهن بحجة أنهن - إحصائياً - أكثر تعرضًا لاحتمالات الفشل فى الزواج من الأبناء الذين نشأوا فى أسر مستقرة آمنة تقدس الحياة الزوجية ، وتستبشع فكرة الطلاق مهما كانت المبررات وهى حجة لها تفسيرها لدى علماء الاجتماع ، لكن لكل قاعدة استثناء دائمـاً . . ولعلى أومن بأن من عانى مرارة التمزق بين أبوين منفصلين قد يكون أكثر إشفاقاً على أبنائه وأكثر رغبة فى تجنيبهم محنة طفولته التعسة ، وأنت يا آنسى أبلغ مثال ، لذلك فالزواج بالنسبة لك

يعنى ما هو أكثر بكثير من الارتباط برفيق حياة لأنه يعنى لك الأمان . . والاستقرار فى مرفأ تعود إليه سفينتك بعد طول إبحار وسط الأمواج ، لهذا فمثلك قد تحرص على نجاح زواجها واستمراره أكثر من غيرها ، والزواج فى النهاية هو الحل الطبيعى لمشكلتك . . وأرجو أن «يتذكر» أبواك أن من واجبهما - وقد فاتهما الكثير ، أن ينشطا لخلق فرصة زواج ملائمة لك تجمع بينك وبين من يستحقك ، كما أنه من الأفضل أن تصرفى نظراً عن السفر لأوروبا ، وأن تبدئى من الآن مشروعاً لشراء شقة فى مدينتك تدفعين أقساطها على مهل . . فتزيد من مؤهلاتك للاستقرار إلى أن يأذن الله بحل مشكلتك الحل الطبيعى لها قريبًا . . إن شاء الله .

قد تكون مشكلتى بسيطة بالمقارنة مع ما يعانيه البشر من آلام، لكن صدِّقنى حين أقول لك إنها تؤرقنى ، ومن الممكن أن تتحول فيما بعد إلى مأساة إذا لم أحزم أمرى الآن وأتخذ القرار السليم .

منذ أحد عشر عامًا كنت طالبًا فى السنة قبل النهائية فى كلية عملية صعبة وتطول بها الدراسة ، فجمع الحب بينى وبين زميلة لى فى نفس السنة ، كنا نتفق فى سمات كثيرة من بينها التفوق الدراسى . وكانت فتاتى من أسرة ثرية جدًا، وكنت أنا من أسرة متوسطة الحال ، لكن تفوقى كان يفتح لى باب الطموح على مصراعيه .

واتفقنا على أن نتخرج معًا ثم أتقدم إلى أسرتها . ثم اعترض قصة حبنا العارض التقليدى . وجاءتنى زميلتى ذات يوم لتبلغنى بأنه قد تقدم لها شاب ممتاز ، ورحبت به أسرتها ورفضته هى بإصرار أثار لها المشاكل مع أمها والأسرة ، وطالبتنى زميلتى بأن أتقدم لخطبتها قبل التخرج حتى أخفف عنها لوم والدتها والأسرة . . فحاولت تأجيل هذه الخطوبة إلى ما بعد تخرجى ، لأنى كنت على ثقة من تفوقى ومن تعيينى معيداً بالكلية بعد التخرج ، لكنها حثَّتنى على التقدم وأقنعتنى بأن والدتها سوف تقف إلى جوارنا ، ولن تبالى بنقص إمكانياتى ولا بالفارق المادى بين مستواى ومستوى أسرتها ،

واقتنعت بذلك واصطحبت والدتى إلى بيت أسرتها . والتقيت فى صالون البيت بأعمام فتاتى ووالدتها حيث إنها يتيمة الأب ، ومهما وصفت لك مشاعر الاحتقار والازدراء التى قوبلنا بها من جانب الأسرة فلن أستطيع أن أعبر لك عنها ، ولا عن مشاعر الألم والعجز التى أحسست بها فى صالون بيت فتاتى أنا وأمى . . حتى انتهت المناقشة بيننا بما يشبه الطرد لنا ودون مراعاة لأى مشاعر أو اعتبارات إنسانية ، وخرجت مع أمى وأنا أحس بالهوان المرير وبأنى قد عوقبت على جريمة لم أرتكبها هى ضعف مستواى المادى بالمقارنة مع «ثراء» أسرة حبيبتى .

وتجرَّعت الألم فترة طويلة ، وزاد منه أنى قد فهمت من اللحظة الأولى فى اللقاء أن والدتها كانت تعرف ما سوف ينتهى إليه من رفض وازدراء لنا . لكنها شجعت ابنتها على أن أتقدم لها حتى تُعجل بالنهاية المنتظرة لقصتى معها وتضعها أمام الواقع القاسى وهو رفض كبار الأسرة - وهى فى مقدمتهم - لى .

وحققت صدمة المواجهة القاسية مع الأمر الواقع نتائجها التى أرادتها الأم الداهية ، فقد اقتنعت فتاتى بعدها بأننا من عالمين مختلفين ولا لقاء بينهما ، وبعد قليل تزوجت من زوج تتوافر فيه كل المواصفات المناسبة لأسرتها من إمكانيات ودخل ومركز . . إلخ . وتم عقد قرانها فى الأجازة الصيفية التى تسبق العام الجامعى الأخير لنا ، وقطعت دراستها مؤقتًا وسافرت معه إلى بلد عربى ، وانكفأت أنا على ذاتى ووضعت كل همى فى دراستى - وكلما تذكرت مهانة لقاء الصالون وذكرياته المريرة ،

أحسست بغصة مؤلمة فى حلقى ثم نفضت الذكرى بعنف من رأسى لأعود إلى واقعى . ورغم محاولاتى فلقد كانت البصمة التى تركها على حياتى غائرة ، فلقد حدثت لى بعد أسابيع منه بعض المضاعفات المرضية ، وعرضت نفسى على الأطباء فذهلت حين اكتشفت إصابتى بمرض السكر وأنا فى العشرينيات من عمرى ، وكل ذلك بسبب ما فعله بى أهل فتاتى فى هذا اللقاء الدامى !

واستسلمت لمشيئة الله وأنا جريح القلب والنفس . وتخرجت متفوقا كما أردت وعينت بعد قليل بالكلية التى تخرجت فيها ، وبعد ثلاث سنوات من العمل بها تركتها وسافرت للعمل فى دولة عربية وتوفيت أمى رحمها الله خلال عملى فى الخارج ، فغاب عن حياتى آخر صوت كان يحثنى بإشفاق كل حين وينبهنى إلى ضرورة ألا يسرقنى العمر وأتأخر فى الزواج فشغلت عن هذا الأمر حتى نسيته ، وبقيت فى الخارج بضع سنوات ثم عدت إلى مصر منذ ثلاثة أعوام ، وأقمت فى مسكن أمى القديم وافتتحت لنفسى مكتبا مهنيا لا أريد تحديد نوع نشاطه حتى لا يعرفنى زملائى . . واستقرت حياتى واكتشفت فجأة أنى قد تجاوزت الثلاثين ببضع سنين ولم أتزوج بعد ، وشاءت الظروف أن أتعرف على شقيقة صديق أعجبت بها ولقيت قبولاً منها ، فتقدمت لأسرتها وكان أهلها معى غاية فى الكرم وساعدونى كثيراً وذللوا لى كل العقبات ، وتزوجنا فى هدوء ولمست من اللحظة الأول طيبة زوجتى ورقتها ، وارتحت إلى ذلك كثيراً ومضت حياتنا هادئة بلا إثارة ولا مشاكل إلى أن كنت فى مكتبى منذ ثلاثة شهور ، فإذا بفتاتى القديمة

تدخل علىّ فجأة بعد 11 عامًا من آخر لقاء رأيتها فيه وتحيينى فتعيدنى فى لحظة واحدة إلى سنوات الحلم القديم الذى عشته وداعب خيالى . وتكررت الزيارة بعد ذلك فرأيت شبحاً لفتاتى أو لحطام إنسانة أحببتها بعنف ذات يوم وليست نفس الفتاة القديمة .

وروت لى معاناتها مع زوجها وعن معاملته الشاذة لها التى أدت إلى إصابتها فى إحدى الفترات بشلل مؤقت ، مازالت تعانى حتى الآن من بعض آثاره ، وعرفت أنها رغم زواجها وإنجابها طفلاً فى السادسة من عمره كانت كلما عادت إلى مصر تتقصى أخبارى إلى أن توصلت إلىّ فى هذه الزيارة الأخيرة ، واكتشفت للأسف أنها لم تتخرج فى كليتها ولمست أيضا تغيراً جوهرياً فى روحها وشخصيتها ، فلم تعد بنفس رقتها القديمة ، وإنما أصبحت عصبية ومتوترة وعلى شيء من العنف المعنوى ، وانزعجت بشدة حين اكتشفت أنها تكره ابنها جدًا ، وأن علاقتها مع زوجها عنيفة إلى أقصى الحدود ، وأنها حاولت الانتحار ذات مرة بطريقة مؤلمة جداً ، ورغم كل ذلك فقد جاش صدرى بأحاسيس فياضة أعادتنى إلى الحياة وأعادت للأيام إثارتها وطعمها القديم ، والآن ياسيدى فإن فتاتى السابقة تريد أن تحصل على الطلاق من زوجها وتترك له ابنها ثم نتزوج ، ونقيم فى شقة أمى القديمة التى طردنى أهلها منذ 11عامًا من بيتهم حين اقترحتها عليهم كمسكن مؤقت للزوجية إلى أن تتحسن أحوالى ، وأنا أيضًا أريد ذلك لأنه حلمى القديم لكن ما ذنب زوجتى الطيبة وهى لن ترضى أبداً بأن أتزوج عليها ؟ وما ذنب «طفلى» الذى سيأتى إلى الوجود خلال أسابيع قليلة فى كل ذلك ؟

إن زوجتى إنسانة طيبة وهادئة ، لكنى أعيش معها حياة فاترة ، وكنت سعيداً بها إلى أن هبّت علىّ فجأة هذه النسمة من نسائم سنوات الحلم ، فأعادتنى للحياة الحقيقية ووضعتنى أمام الحيرة والاضطراب ، فهل أدع هذه الفرصة تمضى إلى سبيلها وأواصل حياتى الهادئة ؟ أم أتمسك بها وأُعرِّض حياتى مع زوجتى للزلازل والبراكين ؟ ومن المؤكد أنها سوف تصل إلى حد الطلاق ؟ بماذا تشير علىّ . . وبماذا تنصحنى ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

سنوات الحلم يا صديقى قد تصلح لأن يستعيدها الإنسان أحيانًا فى خياله ، فيعيش فى جوها الأثيرى الحالم بضع لحظات ويجيش صدره بانفعالات وأشجان أيام البراءة القديمة التى كانت تعدنا بالسعادة وتحقيق الآمال . لكنها لا تصلح غالبا لاستعادتها هى نفسها من الماضى إلى أرض الحاضر . . وبهذه البساطة كأنما قد ركبنا «آلة الزمن» للروائى الانجليزى «هـ . ج . ويلز» ، فرجعت بنا إلى الوراء عشر سنوات أو تزيد فى لحظات .

ولو كان ذلك ممكنا لما تحققت لنا السعادة التى نتصورها أو نحلم بها لأسباب عديدة ، أولها أننا لسنا نفس الأشخاص الذين كنا هم فى تلك الأيام ، وإنما نحن أشخاص آخرون تغيرت فى شخصياتنا وأفكارنا واستجابتنا لدواعى السعادة أو الألم أشياء كثيرة . . ولسنا على يقين من أن ما كان يسعدنا فى الماضى هو نفسه ما سوف يحقق لنا السعادة والهناء الآن . كذلك فإن الأفكار والأمانى والأحلام حُرة طليقة دائمًا كالطيور المغردة التى تنتقل بخفة ورشاقة بين رؤوس الأشجار ، أما «الأفعال»

والتصرفات فهى مثقلة دائما بعشرات الاعتبارات التى لا يمكن تجاهلها أو التغاضى عنها عند الإقدام عليها .

فالحياة التزام أخلاقى وواجب إنسانى عام لا يستطيع الإنسان معه أن يستسلم لأهوائه ورغباته وحدها بغض النظر عن تأثيراتها السلبية على الآخرين .

ومن يفعل ذلك متحرراً من أى قيد يخرج عن المسار العام للأخلاق السائدة فى مجتمعه ويستحق لوم الآخرين وانتقادهم . فالعالم ليس غابة مفتوحة يجرى فيها كل إنسان وراء أحلامه فى السعادة أو اللذة دون حساب ، وإنما هو على حد تعبير فنان جامح كالرسام الهولندى رمبرانت الذى خرج هو نفسه عن المسار العام الأخلاقى لمجتمعه ودفع ثمن ذلك غاليًا ، قفص ضيق محاط بالقيود الأخلاقية والاجتماعية من كل جانب ، وأبسط هذه القيود هى حقوق الآخرين علينا ، وواجبنا فى ألا نسعى وراء ما نتصور فيه سعادتنا على حساب سعادتهم الشخصية واستقرار حياتهم ، وفيما يخصك أنت مثلاً فهناك زوجة محبة طيبة عاشرتك عشرة هادئة مستقرة ثلاث سنوات ، وتحمل لك فى أحشائها الآن جنينا سيأتى من عالم الغيب خلال أسابيع . . وقد تقدمت إليها بملء حريتك فلقيت منها القبول والترحيب ومن أهلها الرعاية والمساعدة والتكريم . . فأين موقعها . . وأين موقع طفلها المنتظر من هذه الأحلام ؟ ثم أين موقع زوج «الأخرى» وطفلها البرىء الذى لا ذنب له هو الآخر فى نظرة أسرة أمه الطبقية للأمور . . ولا فى مذبحة الصالون التى دبَّرتها لك جدته بتدبير قاسٍ شريرٍ ؟

وحتى لو كانت علاقة فتاتك القديمة بزوجها متعثرة أو محكوماً عليها بالفشل ، فلماذا يتم ذلك على مقربة منك وبتشجيع غير مباشر من جانبك ؟ ولماذا تساهم فى التعجيل بانهيارها بظهورك فى أحلام هذه السيدة مرة أخرى ومشاركتها فى خططها وبرامجها للمستقبل بعيداً عن زوجها وطفلها .

إنها مشكلتها الخاصة وليست مشكلتك أنت ولا دور لك فيها ولا مسئولية . . فلتواجهها إذن بعيداً عنك وتتخذ بشأنها ما تراه مناسباً لها من قرارات بغير تشجيع منك . . ولا وعد بأى خطط للمستقبل ، وسوف يختلف الأمر فى تقديرها للأمور كثيراً فى هذه الحالة .

أما أنت فإذا أردت رأيى ففى تقديرى أنك لن تسعد مع هذه السيدة إذا تكدر صفو حياتك مع زوجتك الطيبة وفقدتها ، ولن يستمر جيشان المشاعر طويلا بعد الزواج إذا تزوجتها وأنت مثقل بالإحساس بالذنب تجاه زوجتك وأم طفلك ، لأن حبك لها وحبها لك ليس حب العمر الحقيقى فى حياتكما ، وإنما هو حب زمن البراءة والأيام الجميلة فقط لا غير ، فقصتك معها لم تطل أكثر من شهور ، فإذا كانت قد حفرت فى نفسك آثارا غائرة بعد ذلك ، فبسبب ما تعرضت له من إهانة قاسية أشعرتك بالمرارة وقسوة الحياة وليس بسبب ضياع الحب نفسه ، وهى من جانبها أيضا لم تتمسك بك طويلاً ، ولم تكافح من أجلك ولم تقاتل لإقناع أهلها بك ، وإنما استسلمت للنظرة الواقعية على الفور وتزوجت بعد أسابيع قليلة من مجزرة الصالون ، ولو أعطى كل منكما حب العمر الحقيقى للآخر لما فرَّط فيه بهذه السهولة ولما انهزم هكذا فى أول محنة!

ولا يعنى هذا أن كلاً منكما لم يحمل مشاعر الحب الصادق للآخر ، إنما يعنى فقط أنها كانت مجرد قصة لم تكتمل . . ولم تصمد لأى ضغط وقد أعادها إلى الأذهان سوء حظ هذه السيدة وتعاستها مع زوجها ، ولو كانت حياتها معه موفقة أو عادية لما ظهرت مرة أخرى فى حياتك ، ولما نالت منك أنت أى اعتبار سوى اعتبار الاعتزاز الطبيعى بذكرى من أحببت ذات يوم .

وأكبر دليل على أن تعاستها مع زوجها هى المحرك الأساسى للمشاعر القديمة «كراهيتها» المزعومة لطفلها ، فالحق أنها لا تكرهه ولا يمكن لأم سوية أن تكره طفلها . . وإنما هى فى اضطراب أعصابها تكره فيه أنه رمز ارتباطها بزوجها ورمز إحساسها بالواجب الذى يُملى عليها أن تستمر حياتها مع زوجها حرصًا على مصلحة طفلها ، وهذا إحساس مؤقت يزول مع تغير الأوضاع فى حياتها سواء بالانفصال أو انصلاح الأحوال .

وسواء أكان هذا أو ذاك فهى لا تصلح لك ولا أنت فى وضعك الجديد تصلح لها . . فهى ليست فتاتك الرقيقة القديمة التى أحببتها فى أيام البراءة القديمة ، وإنما هى الآن سيدة بائسة عصبية حادة الطبع نارية المزاج أفسدت عليها تعاستها حتى مشاعرها الطبيعية تجاه طفلها .

شىء أخير أود أن ألفت نظرك إليه هو أننى أخشى أن تكون من بين أسبابك التى لا تعيها الآن جيداً للاستسلام لحلم استكمال القصة الناقصة ، رغبة كامنة فى العقل الباطن لرد الاعتبار والثأر للنفس من مهانة الرفض والازدراء التى أورثتك الألم والمرض ، وهى رغبة طبيعية فى نفس أى إنسان قد لا تُلام عليها ، لكن الزواج لرد الاعتبار وحده يفقد

أهميته كثيراً بعد إتمامه ، فتفتر المشاعر سريعًا ويحل الشقاق .

لهذا كله فإن نصيحتى لك هى أن تكف عن الاتصال بهذه السيدة وأن تؤجل اتخاذ أى قرار بشأنها إلى ما بعد مجىء طفلك إلى الحياة، وسوف تكتشف بعد مجيئه أن إحساسك كأب مسئول عن وليد صغير لا يستطيع تجاهله فيما يتخذه لنفسه من قرارات يختلف جذرياً عن إحساسك الآن كزوج تعرضت حياته لهبة قوية من نسائم الذكريات .

وسوف يكون قرارك بإذن الله لصالح هذا الوليد . . ولصالح أمه الوديعة الطيبة . . وسوف تعرف وقتها أن نسائم الذكرى بعد الزواج والإنجاب قد تثير فى النفس أشجانها وتأملاتها ، لكن الإنسان لايحاول إعادة الزمن إلى الوراء وإنما يمضى فى طريقه مزودا بشحنة انفعالية مؤقتة يردد مع محمود سامى البارودى :

أين أيام لذَّتى وشبابى

أتُراها تعود بعد الذهابِ ؟

ويؤمن معه ومع العقلاء أيضاً بأن ما «يذهب لا يعود» ولا ينبغى له أن يعود لمن كان يتحمل مسئوليته الأخلاقية والأدبية عن طفل برىء وزوجة طيبة مثلك . . وشكراً .

أعرف أن مشكلتنا ليست من المآسى التى أقرأ عنها فى هذا الباب . . لكنك أنت أيضًا ياسيدى الذى قلت إن كل ما يتعلق بالإنسان من شئون وشجون يستحق منا الاهتمام والاحترام ولو كان بسيطًا ، وبهذا المنطق الذى أحببته أروى لك قصتنا .

لقد تفتحت عيناى فوجدت نفسى طفلة تلعب بين ثلاثة أشقاء يكبرنى أخ وتلينى أختان صغيرتان ، ولم أجد فى بيتنا سوى أمى التى طُلقت من أبى فترك لها الشقة بما فيها ، ثم هاجر إلى مدينة أخرى واستقر بها وتزوج واختفى من حياتنا نهائيا ، كأنه لم ينجبنا ولم يعرفنا ، وفى هذه البيئة نشأت فرأيت أمى مهمومة دائمًا بتوفير لقمة العيش لنا . . تتردد على أهل أبى تطالب بنفقة أبنائها فتعود مرات خائبة الرجاء وتعود ببضعة جنيهات مرة كل عدة شهور ، وينصحها البعض باللجوء إلى المحكمة فترفض حتى لا تقطع الشعرة الأخيرة بينها وبين أهل أبى حرصًا على مستقبلنا ، وتقوم بكل ما تستطيع أن تقوم به أم مكبلة بأربعة أولاد لتكسب بضعة قروش توفر بها مطالبنا من الخياطة . . إلى رعاية أطفال العمارة القديمة التى نسكن بها خلال فترة عمل أمهاتهن مقابل أجر زهيد ، تتقبله شاكرة ولا تساوم فيه أبداً إلى تدميس الفول على موقد «يوش» طول الليل ويحرمنا من النوم لنأكله ، وهو طعامنا الرئيسى ولتبيعه لمن يرغب من الجيران بأرخص من سعر المحل ، ويشتريه منا جيران السكن ليس فقط إشفاقاً على حالها ، وإنما لثقتهم التامة فى نظافتها . . فقد كنا رغم فقرنا البشع وبساطة ملابسنا آية فى

النظافة وشقتنا «تبرق» دائماً من نظافتها رغم الأثاث القليل المتهالك ، ولا أنسى فى طفولتى حين انتقل إلى عمارتنا القديمة ساكن جديد لا يعرف ظروفنا ، وكان متزوجاً حديثاً ويبدو متعالياً ومتغطرسًا وشكا من «وش» الموقد أثناء الليل وعرف حكاية الفول ، فإذا به يشكونا فى قسم الشرطة بأننا نزعج السكان ونعرض العمارة لخطر الحريق ، وجاءنا شرطى يستدعى أمى للقسم لسؤالها فارتعشت من الخوف وبكت وبكينا معها وصرخنا عالياً والشرطى يحاول طمأنتها بأن الأمر بسيط ولا يعدو بضعة أسئلة بلا جدوى حتى خرج السكان من شققهم وعرفوا الحكاية وغضبوا لها . . جداً . وإذا بثلاثة من جيراننا الأفاضل وأحدهم كان فى هذا الوقت معاون نيابة شاباً والآخر مهندسًا والثالث مدرسًا يطلبون من الشرطى الانتظار ، ثم يرتدون ملابسهم ويذهبون مع أمى إلى قسم الشرطة ويواجهون الساكن الجديد بأنهم مرتاحون جداً لوش موقد الست أم حسين ، وعلى استعداد لأن يأتوا بباقى السكان ليشهدوا بذلك ثم ينهالوا عليه لوماً وتقريعاً لأنه وقف ضد امرأة ضعيفة تعول 4 أطفال لا عائل لهم ، وتكافح لتوفير لقمة العيش الشريفة لهم ، وشاركهم ضابط الشرطة بعد أن عرف القصة فى تأنيبه ، فلم يملك إلا أن يتنازل عن الشكوى ، وسبحان الله الذى لا يتخلى عن عباده الضعفاء ، فإن هذا الساكن الذى كان يبدو متغطرسًا قابل أمى على السلم بعد ذلك بأيام ، فبادرها بالتحية ثم قال لها «سماح ياست أم حسين لأنى لم أكن أعرف ظروفك» ، فسامحته بنفس راضية وجاءتنا زوجته العروس الجديدة أيضًا تعتذر ، ثم أصبحت من زبائننا المستديمين فى طلب الفول ، وبعد أسابيع اصطحب هذا الساكن أمى إلى محل عمر أفندى واشترى لها

بوتاجاز مصانع صغيرا بالتقسيط باسمه ، وكان أول موقد بوتجاز يدخل بيتنا ودفع لها مقدم الثمن مقابل خصمه من حساب الفول ، وبدأت تدفع أقساطه لزوجته كل شهر ثم أنجب مولوداً فأقامت أمي له «السبوع» في شقتهم ، وبعد انتهاء أجازة الوضع ورعاية المولود أصبحت زوجته تتركه عندنا وتذهب مطمئنة إلى عملها ، وما محبة أحيانًا إلا بعد عداوة . المهم ياسيدي أن أمي لم تترك شيئًا تستطيع أن تفعله لإطعامنا وتعليمنا إلا وفعلته، وحين بلغ شقيقي الأكبر سن الثانية عشرة بدأ يعمل طوال الأجازة في أي عمل إلى موعد الدراسة . أما أبي وهذا هو أعجب شيء رأيته أو سمعت عنه فقد اختفى من حياتنا نهائياً ولم يفكر يوماً واحداً في زيارتنا أو رؤيتنا ، وظل كذلك إلى أن مات وعمر أكبر أشقائي 16 سنة ، ولم نعرف بوفاته إلا بعدها بشهور ولم نحزن عليه ، وكيف نحزن على من لا نعرفه ولم نر من عطفه أو حنانه شيئًا ، أو كيف نحزن على من نشأنا ونحن لا نسمع ذكره من أمنا إلا مرتبطًا بكلمة «النذل» الذي تخلى عن زوجته وأطفاله الأربعة . . جريًا وراء أرملة لعوب تعرَّف بها ونقل عمله إلى مدينتها وعاش معها حتى مات ، رغم أن أمي كانت شابة وجميلة أيضًا .

ومضت الأيام بنا حتى وصل شقيقي الأكبر إلى الثانوية العامة فرسب فيها ، لأننا غير قادرين على توفير الدروس الخصوصية له ، وفي العام التالي نجح بمجموع ضعيف لا يؤهله للالتحاق بالجامعة ، وأشار علينا الجيران بأن يلتحق بأي معهد لمدة سنتين ، لكن شقيقي فاجأنا بشيء حوَّل هدوء حياتنا إلى جحيم فقد قرر السفر إلى أوروبا ليعمل هناك . وفُجعت

أمي فيه فجيعة كبرى ، وهو الذى كانت تحلم بأن يتحمل عنها مسئولية إخوته ويكون رجل الأسرة التى بلا رجل . . ثم كيف يسافر؛ ومن أين يأتى بثمن التذكرة وكيف يتخلى عن أخواته البنات ؟

وأصبح العويل والبكاء هو المشهد اليومى فى حياتنا ، ولم تنجح جهود الجيران فى إقناعه حتى صاحت أمي يائسة منه مطالبة بأن ندعه لنفسه ، لأنه «نذل» كأبيه ويريد أن يهرب من مسئوليته عن 3 بنات وأمهن ، يتركنا وهو رجل الأسرة الوحيد وخاصمته خصامًا نهائياً ، ومضى أخي فى الإجراءات بجنيهات قليلة كان يدخرها من عمله فى الصيف ، ثم طلب منى قطعة الذهب الوحيدة التى كنت أمتلكها وهى غويشة خفيفة ، ولم أستطع رغم معارضتى لسفره أن أرفض منحها له ثم سافر للإسكندرية، ورفضت أمي أن تصافحه وهو يغادرنا بينما بكينا نحن طويلاً، ورفضت أنا مرافقته لمحطة القطار فرافقته شقيقتى الأصغر منى واعترف لها في المحطة بأنه اقترض مبلغًا من صاحب العمل الذى يعمل معه كل صيف وسيرده إليه ، وقال لها إنه لا يهرب من المسئولية ، لكن حياتنا قاسية وفقرنا شديد ولا أمل لنا إلا فى معجزة تنتشلنا من هذا الهوان . . وأنه سيحاول أن يصنع هذه المعجزة وطالبها بأن نعذره ولا نقسو عليه ، لأنه شقيقنا مهما حدث منه وعادت شقيقتى من المحطة محمرة العينين من البكاء .

وسافر شقيقى ولا نعرف كم بقى فى الإسكندرية أو ماذا فعل حتى استطاع شراء أرخص تذكرة على ظهر سفينة مصرية إلى اليونان . . ولا متى سافر إليها ؟

فقد شغلتنا «الكارثة الجديدة» عن كارثة سفره . . وهى كارثة المبلغ الذى اقترضه من صاحب العمل بغير أن يصارحه بأنه ينوى السفر ، وإنما ادعى له أن أمى تحتاج لعملية جراحية وسوف يسدده له بالتقسيط على 4 شهور ، ولا تتخيل الأيام السوداء التى عشناها بعد سفره حين بدأ صاحب العمل مطالبتنا بالسداد . . ولا كيف أصبحت حياتنا أشد جفافًا وحرماناً بعد أن بدأت أمى تقتطع من قوتنا القليل قيمة هذا القسط ، وكنت فى السنة الثانية من دراستى الثانوية وشقيقتى الأصغر منى فى الإعدادية والصغرى فى أولى إعدادى . . وتحجَّرت الدموع فى عينى أمى . . ولم يعد لها حديث إلا عن «النذل الكبير» وهو أبى رحمه الله . . و«النذل الصغير» الذى كرر سيرة أبيه وهو أخى . . وأصبحنا نتنفس الحزن والغم ليل نهار ، وزاد منه أن شقيقى الذى وعدنى بأنه سيكتب لنا بمجرد وصوله . . وسيرسل لنا جزءاً من أول نقود يكسبها لم يكتب لنا ولم يرسل لنا نقوداً ، وانقطعت عنا أخباره عاماً كاملاً حتى بدأت رغم حبى الغريب لهذا الشقيق الذى طالما شاركنى همومى ، أشك فى صدق حكمى عليه . . وأكاد أصدق رأى أمى فيه وبعد عام طويل فوجئت بأول خطاب منه لى وبداخله شيك بمبلغ بسيط واعتذار طويل منه عن عدم كتابته لنا طوال العام الماضى ، لأنه كان كما قال يلحس البلاط ويقاوم الموت جوعاً أو تجمداً من البرد فى أوروبا . . ويطلب العفو ويثق فى أن قلبى سوف يدلنى على أنه ما سافر وتغرب إلا من أجلنا .

وخفف المبلغ البسيط عنا بعض متاعبنا ، خاصة أننى كنت على مشارف امتحان الثانوية العامة . . ثم بدأت خطاباته تنتظم وتتوالى وفى كل منها شيك بمبلغ صغير وطلب جديد لأمه أن تعفو عنه وتعذره ،

ونجحت فى الثانوية العامة والتحقت بمعهد عال ، واستمرت خطابات أخى ومنها عرفت أنه استقر فى إحدى دول شمال أوروبا وأنه يعمل لكنه لم يحقق بعد أى نجاح يذكر .

ثم بدأ المبلغ الذى يرسله إلينا يتزايد حتى أصبح هو دخلنا الأساسى ، وبدأ شقيقى يرسل لنا مع بعض العائدين ملابس لأمى ولنا ، وفى العام الثالث طلب منى فى خطاب أن أطلب من أمى أن تستريح من العمل والشقاء ، لأنه قد أصبح قادراً على إعالة الأسرة وضاعف المبلغ الذى يرسله إلينا فاستقرت أحوالنا المادية وتنفسنا الصعداء للمرة الأولى ربما منذ ولادتنا ، ومضت خمس سنوات طويلة ونحن على هذه الحال ، وذات مساء دق جرس الباب ففتحته أمى فإذا بشقيقى واقفاً أمامها ينظر إليها صامتاً فى خوف ! . . أى والله العظيم فى خوف كما اعترف هو لى فيما بعد ثم يقول لها : هل أدخل يا أم حسين ؟

فصرخت أمى من الفرحة وجئنا على صراخها وكانت مناحة من الدموع والضحك والتهليل ، وجاءت وراءه حقائبه وأخرج منها هداياه لأمى ، فكانت كلها ذهباً فى ذهب وقال لها وهو يقدمها إنه لم ينس أبداً أنها باعت مصوغاتها قطعة وراء قطعة لتطعمنا وتحمينا من الموت جوعا وكانت هداياه لشقيقاته الثلاث . . ذهباً وملابس وحقائب يد وكشاكيل ملونة وأقلاماً وساعات . . الخ .

وسامحته أمى من قلبها حين قال لها إنه ليس نذلاً ولا جباناً ، لكنه رأى أن فى عنقه «ثلاث عرائس» يتحمل مسئولية زواجهن فمن أين يجهزن إذا لم يغامر ويقدم على المستحيل ؟ وقبلته فى جبينه راضية

وداعية له بالستر والصحة ، وأمضى معنا شقيقنا شهراً كان كالأحلام فقد عرفنا فيه للمرة الأولى أن فى القاهرة دوراً للسينما ومطاعم وكازينوهات على النيل وحدائق للحيوان وبرجًا فى الجزيرة بل ومسارح أيضا يضحك الناس فيها من قلوبهم !

وسافر شقيقى بعد أن دفع لنا ثمن تركيب تليفون فى شقتنا ليتصل بنا من غربته ، ودخل التليفون بيتنا بعد سفره بشهر ، وأصبح يتصل بنا مرة كل أسبوع ويرسل لنا المبلغ المقرر كل أول شهر وبدأ يعود كل سنة فى الصيف ويمضى معنا شهراً ، وتخرجت فى معهدى وبدأت أعمل والتحقت شقيقتى الأصغر منى بالجامعة ، وأصبح هدف أخى فى حياته هو أن نتعلم جميعا ونتزوج ممن يسعدنا ويعوضنا عن أيام الشقاء ، وتقدم لى شاب وافقت عليه لكنى أجلت رأيى النهائى إلى حين عودة شقيقى وجاء والتقى به واستراح إليه من أول لقاء وأصبحا صديقين وأنفق شقيقى على زواجى بكرم وسخاء وجهزنى بأحسن جهاز كان يمكن أن أحلم به ، وتزوجت وأنجبت وكسبت أسرتى رجلاً طيباً هو زوجى .

وبعد ثلاث سنوات تخرجت أختى التالية وخطبت بنفس الطريقة وكانت الكلمة الأخيرة فى زواجها لشقيقى ، الذى جاء وأنفق على زواجها بنفس الكرم ونفس السخاء ، وشاء الله أن يكون زواجها بداية تغيير جديد فى حياته ، فقد لفتت نظره فى فرحها إحدى صديقاتها وسألنى عنها وكلفنى بجس نبضها فرحبت به مما عرفته عنه من شقيقتى ومنى وخطبها قبل السفر . . وعاد بعد ستة شهور وعقد قرانه عليها واصطحبها وسعدت معه وأنجب منها بنتين حتى الآن وأعطاه الله على

قدر كفاحه ونيته الطيبة وبره بأمه وشقيقاته ، فأصبح يمتلك نصف فندق صغير يعمل فيه فى المدينة التى يقيم فيها .

ويملك سيارة ورصيداً فى البنك ويسكن فى شقة جميلة وحافظ على العودة لنا كل صيف فإذا شغله عمله أرسل زوجته وطفلتيه ثم يعود بعدهما بشهر أو أكثر ، وقد أعاد فى إحدى زياراته طلاء شقة أمى وأعاد فرشها بأثاث حديث قائلا لها إنها «عروس» أيضا ويجب أن يكون بيتها لائقاً بها .

ولم يبق منا دون زواج سوى أختى الصغرى التى تدرس الآن بالسنة النهائية بالجامعة وتنتظر حظها هى الأخرى ، وقد أغدق عليها شقيقى بالهدايا والملابس ، ووعدها بأن يجهزها كأفضل ما يكون الجهاز والحمد لله كثيرا على ذلك وعلى نعمته علينا بهذا الأخ الكبير ومن قبله بأمنا الصالحة المكافحة التى أدمنت الكفاح ولا تريد أن تستريح حتى الآن فتفصل لأطفالنا ملابسهم ، وأعادت فتح «الحضانة» المنزلية التى كانت تفتتحها فى الماضى ولكن بلا أجر هذه المرة . . فتطالبنا بإيداع أطفالنا عندها كل يوم رغم ما فى ذلك من مشقة عليها ، ويتصل بها شقيقى تليفونيا كل يومين على الأكثر ، ويتصل بكل منا كل أسبوع ويعود كل سنة ، وقد أصبح شقيقى الآن فى الثامنة والثلاثين من عمره ومضى على هجرته 19 عامًا طويلة وأصبحت ابنته الكبرى فى التاسعة من عمرها ، وأصبحت المشكلة التى بيننا وبينه الآن هى أننا نريده أن يعود ليستقر بيننا ويقيم لنفسه أى عمل يناسبه فقد اكتشفنا أن حاجتنا النفسية إليه ونحن زوجات وأمهات لم تقل عن حاجتنا إليه ونحن فتيات صغيرات ، وربما

زادت مع تقدمنا فى السن واستقرار حياتنا فهو أبونا الذى لم نعرف لنا أبا غيره ، وحرام أن نُحرم منه ويظل بعيداً تفصله عنا بحار وآلاف الأميال ما بقى لنا من عمر ونريده إلى جوارنا لنستشيره فى أمورنا . . ويشكونا إليه أزواجنا إذا غضبوا منا كما يفعل الأزواج الآخرون ونشكوهم نحن إليه إذا أغضبونا . . فالأخ عزوة كبيرة وشقيقنا أعطاه الله قلبًا عطوفًا وحنونًا ، ونحن محرومات من هذه العزوة رغم كل ما يفيض به علينا شقيقنا من حب وعطف وكرم ، ولهذا فنحن نريده إلى جوارنا وكفاه اغتراباً وغربةً ، وزوجته تؤيدنا فى ذلك رغم سعادتها معه فى الخارج لكن شقيقى غير مقتنع بذلك ، ويقول لنا إنه عاجز نفسيا عن العودة والاستقرار فى مصر بعد أن أدمن الحياة فى أوروبا منذ سن الثامنة عشرة ، علما بأنه والحمد لله متدين ويحافظ على صلاته وصيامه رغم طول نهار الصوم هناك حيث يفطر فى رمضان فى العاشرة مساء وأحيانًا بعد ذلك ، كما أنه لا يشرب الخمر ولا يدخن ، ولكنه كما يقول لا يتصور لنفسه حياة فى مصر الآن رغم حبه الشديد لبلده واستمتاعه بكل يوم يمضيه معنا فى الأجازة ، وهو يقرأ لك بانتظام منذ 7 سنوات ويقول إنه كان يشم «رائحتنا» رائحة مصر فى بابك الجميل ، هذا كما أنه معجب بآرائك وقد كتب لك منذ 5 سنوات يستشيرك فى مسألة شرعية هى مسألة (. . .) التى أرجو ألا تشير إليها فى الرسالة وكانت هذه المسألة تشغله فى ذلك الوقت فرددت عليه فى الردود الخاصة واستراح لرأيك وعمل به ، وأنا أريدك أن تخاطبه بقلمك وتدعوه للعودة لبلده ليستقر بيننا ويفتتح له أى عمل يجعلنا نحتفظ به بالقرب منا ونراه كل أيام السنة بدلا من مرة كل سنة فما هو رأيك فى ذلك ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

قرار العودة بعد رحلة عشرين عاماً من الهجرة ، من القرارات المصيرية فى حياة الإنسان التى ينبغى أن تنبع من داخله وتصدر عنه باقتناع تام ولدوافع ذاتية وشخصية لا تقل قوة عن الدوافع العائلية والاجتماعية التى تدعوه لذلك ، وإلا فان القرار إذا جاء لمجرد الاستجابة للضغوط العائلية والاجتماعية بغير اقتناع داخلى به ، فإنه يحمل معه بذور فشله واحتمالات النكوص عنه بعد فترة قصيرة أو طويلة .

فالإنسان يتحمل دائماً تبعات القرارات التى يتخذها بملء إرادته واختياره واقتناعه الخاص سواء أكانت صائبة أم خاطئة ، ولا يتحمل بنفس القدر تبعات القرارات التى تجىء استجابة لضغوط خارجية أو بغير اقتناع أصيل بها .

ومع اتفاقى معك فى حاجتكن النفسية لقرب شقيقكن الوحيد منكن وبأهمية دور الشقيق الأب فى حياتكن ، إلا أنى أفضل فى مثل حالة شقيقك أن تتركوه لنفسه بعض الوقت إلى أن يتحول نداؤكن الخارجى له بالعودة إلى نداء داخلى يهتف به فى باطنه بأنه قد آن للغريب أن يهجع إلى جوار من يحبونه ، ذلك أننا فى النهاية لا نسعد أبدا فى

المنفى الأبدى ولا يطمئن قلب الطائر البعيد، إلا إذا عاد ذات يوم إلى عشه بعد رحلة بطولية طار فيها طويلاً ضد الريح . .

وغريزة العودة للوطن من أقوى الغرائز التى يشترك فيها الإنسان والطيور والحيوان والأسماك . . وثعابين الماء مثال عجيب على هذه الغريزة الكامنة فى النفوس ، فهى تهاجر متى اكتمل نموها فإذا كانت فى أوروبا مثلاً قطعت آلاف الأميال فى مياه المحيط قاصدة الأعماق السحيقة جنوب جزيرة برمودة ، وهناك تضع بيضها وتموت ثم تخرج صغارها للحياة وهى لا تملك أية وسيلة تهتدى بها إلى موطنها الأصلى ، ورغم ذلك فإنها تعود أدراجها قاطعة نفس الرحلة الخارقة إلى الشاطىء الذى جاءت منه أمهاتها !

وهذه الغريزة أصيلة إلى حد كبير فى الإنسان أيضًا فهو يحب الأرض التى نشأ عليها ولا يفارقها غالبًا إلا مضطراً ، والرسول الكريم أشار ذات يوم إلى جبل أُحد وقال : «هذا جبل يحبنا ونحبه !» ، وحين اضطر للهجرة من مكة فارقها موجع القلب شاكيًا لربه قومه الذين أرغموه على فراقها .

وعملية الإقناع بقرار مصيرى كهذا القرار لا تتحقق دفعة واحدة أو بمجرد مناشدة مؤثرة ، وإنما تتم عبر مراحل متدرجة تبدأ بهز الأفكار المستقرة الثابتة ، ثم محاولة تعديلها وإلغائها ثم محاولة زرع الفكرة الجديدة والاقتناع بصوابها ، والمرء قد يرفض الفكرة التى تعرض عليه بإصرار ، لكنه لا يستطيع رغم ذلك أن يمنع تأثيرها التلقائى على عقله

وتستقر بعض رواسبها في وجدانه ومع تراكم الرواسب تتغير الأفكار وتلين المواقف .

والحق أنكن لستن فى حاجة إلى جهاد طويل لإقناعه بصواب فكرة العودة لأن بذورها مستقرة فى وجدانه وفى وجدان كل مصرى يغادر بلاده ، مهما طال به الاغتراب . فالمصرى قد يغيب عشر أو عشرين سنة أو أكثر لكنه لا يتصور لنفسه فى النهاية إلا مصيراً واحداً هو العودة لبلده ذات يوم ، ويعيش فى غربته بنفسية المسافر الذى سيؤوب يومًا ما من سفره ، لهذا قلت ذات مرة إننا شعب «مسافر» ولسنا شعبًا مهاجراً كالشعوب المهاجرة الأخرى التى تمد جذورها لأعماق الأرض فى البلاد التى تهاجر إليها .

وإلى جانب ذلك فهناك فى ظروف شقيقك الخاصة ما سوف يسرع به إلى الاقتناع بالعودة إليكن بعد سنوات معدودة وهما بنتاه ! فالبنات على وجه الخصوص هن أقوى حافز لعودة الغريب إلى أرضه حين يبلغن سن الصبا والشباب خوفًا عليهن من تأثيرات الحياة فى المهجر ، ورغبة فى ربطهن ببلادهن .

والمرء يعود فى النهاية ياسيدتى لمن يحب ولمن يحبونه وأنتن إلى جانب مصلحة بناته ورغبة زوجته «دوافع» لا يمكن مقاومتها إلى ما لا نهاية ، ومن أجمل ما قرأت مؤخراً فى قصة أمريكية هذه العبارة الجميلة التى تقول : إن الوسيلة الوحيدة لإعادة غائب بعيد هو أن تحبه حبًا صادقًا نقيًا من القلب ، فيشع إشعاعاته عليه فى غربته ويجتذبه

للعودة إليك ذات يوم ، تماما كما يجتذب قطب المغناطيس . . رؤوس الدبابيس الشاردة بعيدا عنه !

فإلى أن يأتى الوقت الذى يراه شقيقك مناسبًا لعودته فـ « كل مكان ينبت العز طيب » كما يقول الشاعر ، وما دام شقيقك يؤدى واجباته العائلية تجاهكن جميعًا ويفيض عليكن من حبه وعطفه ورعايته الكثير ومادامت الصلة موصولة بينكن وبينه دائمًا ، فلترافقه عناية الله فى أى أرض يحل بها ، فبأمثال شقيقك هذا الذى يرعى حدود الله فى نفسه وأسرته وأخواته ، تطيب الحياة وتتخلص من كثير من أسباب العناء ، والطائر البعيد الذى يستشعر واجباته العائلية تجاه من يتحمل مسئوليتهم النفسية والمادية أقرب كثيراً لمن يرعاهم من طائر يقيم فى الجوار ، لكنه لا يؤدى واجباته ولا يرعى الله فى رعيته ، ولقد كان أبوكم يعيش على بعد عشرات الكيلومترات منكن ، فكان أبعد عنكن بآلاف السنين الضوئية من هذا الأخ القريب للغاية وإن بعدت به الديار .

فانتظرن فلسوف يعود الغائب إليكن ذات يوم قريب بإذن الله ، ولسوف تفاجأن به واقفًا مرة أخرى أمام باب شقة الأسرة ولسان حاله يقول مع الشاعر العربى :

فلما عرفْتُ الدَّار قلتُ لربْعِها

ألاَ عمْ صباحًا أيها الرَّبْعُ واسْلَمِ

أكتب هذه الرسالة لأروى لك تجربة حياتى وأستفيد بخبرتك فيها . . فمنذ 17 عامًا كنت شابًا حاصلاً على شهادة فوق المتوسطة وأنتظر التعيين ، وذهبت ذات يوم إلى مكتب القوى العاملة لأقدم أوراقى إليه . فشهدت بالمصادفة مشاجرة عنيفة بين فتاة جميلة حاصلة على دبلوم التجارة جاءت للغرض نفسه وبين الموظف المختص ، وقد بدأت المشادة بأن وجهت الفتاة إليه سؤالاً عن موعد التعيين أو شىء كهذا ، فلم يرد على سؤالها وتشاغل عنها ، فانفجرت فيه بعصبية شديدة ووجهت له عبارات عنيفة ، ورد عليها الموظف بعصبية أشد ، ونهض من وراء مكتبه ليطردها أو يعتدى عليها . فوجدتنى بتلقائية أحميها ورائى وأدفعه عنها بقوة ، وتأزم الموقف بيننا وكاد ينتهى بنا فى قسم الشرطة لولا أن تدخل الحاضرون ، وفضوا النزاع وسمحوا لنا بالانصراف ، فخرجت الفتاة معى وعلى السلم سألتنى عن اسمى ثم طلبت منى توصيلها إلى محطة الأتوبيس خوفًا من أن يلاحقها الموظف ويعتدى عليها قبل أن تركب قالت لى بلهجة شبه آمرة : تعال زرنى فى البيت لأقدمك لأهلى ويشكروك ! ثم أعطتنى عنوانها وركبت الأتوبيس فى عظمة لا تتناسب مع فستانها البسيط ، وبعد انصرافها دهشت لكل تصرفاتها ، وقررت أن أنسى القصة كلها وألا أزورها ، لكنى فى اليوم التالى وجدت نفسى أتجه إلى بيتها وطرقت الباب وقدمت نفسى لشاب فتحه لى ، ففوجئت بأنه يعرفنى ويرحب

بى ، وتعرفت على الأب الذى شكرنى كثيراً وعرفت أنه موظف بوزارة الأوقاف وعنده أربعة أبناء . وجاءت الأم أيضًا وشكرتنى وشكت لى من عصبية ابنتها التى تجر عليها المتاعب ، وأحسست بعد قليل أنى لست غريباً على هذه الأسرة وأمضيت معهم وقتًا طيبًا وانصرفت ، فجاءت الفتاة ورائى وودعتنى على السلم وأكدت على أن أزورها مرة أخرى! وزرتها بالفعل وتكررت الزيارات واللقاءات بينى وبينها ، ووجدت نفسى غارقاً فى حبها وهى أيضًا كذلك . . وبعد أسابيع طلبت منى أن أخطبها من أبيها فأبديت لها مخاوفى من أن يرفضنى وأنا بلا عمل ولا مال ولا شقة ، وأبى موظف مثقل بالأعباء مثله فطلبت منى أن أتقدم بغير أن أخشى شيئًا . . ووافق أبى بصعوبة شديدة على فكرة الخطبة قبل العمل وتوفير إمكانيات الزواج .

واشترط علىّ أن أحصل من أبيها على موافقته أولا قبل أن يزوره ليخطب لى ابنته ، وفاتحت أباها فى الموضوع فلم يرحب بى كما توقعت ، وطلب منى أن يبحث كل منا عن نصيبه مع آخر تكون ظروفه أفضل قليلاً ، لأن كلينا غير قادر على إمكانات الزواج ، وعدت بالخيبة إلى أهلى . . لكن الفتاة لم تسكت عما حدث وإنما تمسكت بى وصارحت أهلها بذلك ، وانتابتها نوبة هياج شديدة ضدهم ، وحاول أبوها تبصيرها بالمشاكل التى تنتظرنا بلا فائدة ، وأخيراً حسم الأمر بالرفض النهائى فإذا بالفتاة تحاول الانتحار بقطع شريان يدها وتم إنقاذها فى اللحظة الأخيرة ونقلت إلى المستشفى واستسلم الأب لرغبة ابنته وتمت الخطبة . . وخلالها تم تعيينى فى إحدى الشركات ، أما هى فقد

جاءها التعيين فى جهة حكومية بعيدة . . وظنت أن موظف القوى العاملة الذى أهانته وراء ذلك ، فهاجت وخرجت ثائرة لكى تذهب إليه وتنتقم منه ، وهرولت وراءها حتى نجحت فى تهدئتها وإعادتها إلى بيتها ، وبعد شكاوى عديدة وجهود مضنية تم تعديل التعيين إلى جهة قريبة وبدأت أكافح للحصول على سكن وحصلت بمعجزة على شقة صغيرة من غرفتين فى المساكن الاقتصادية ، وساعدنى أبى بما يستطيع فى إعداد الجهاز ، أما أبوها فلم يساعدنى بشىء لأن عنده بنتين أخريين! وتم الزواج فى شقة شبه خالية من الأثاث ، وبدأنا بعد أن عملنا نشترى قطع الأثاث البسيط قطعة وراء قطعة وهى سعيدة بحياتها . ، الجديدة ، وأنا سعيد بها وبكل شىء رغم نوباتها العصبية التى إذا هبت لأى سبب انفجرت كالبركان ، فلا أجد طريقة لمواجهتها سوى اللين والصبر إلى أن تهدأ وتمر العاصفة بسلام ولولا صبرى وتجنبى لإثارتها بقدر الإمكان لتحطمت حياتنا الزوجية عشرات المرات وليس مرة واحدة. ولم يكن أمامى مفر من احتمالها والصبر عليها خاصة بعد أن أنجبنا طفلنا الأول ، كما أنها كانت حين تصفو تصبح رقيقة وجميلة وتحاول أن تنسينى ما تحملته منها ، وجاء الطفلان الآخران تباعًا فضاقت بنا الشقة وازدادت أعباء الحياة علينا . . وبدأت زوجتى تتذمر باستمرار من ضيق المسكن وقلة النقود ، وإذا واجهتنا أزمة مادية طارئة وعجزت عن تدبير النقود اللازمة لها انفجرت فىّ ولعنت اليوم الأسود الذى رأتنى فيه . .
وتحسَّرت على شبابها الذى دفن معى فى هذه «المقبرة» ، وتساءلت بمرارة وحقد بماذا تزيد عنها أختها الصغرى التى تزوجت تاجراً عنده سيارة

وشقة واسعة فى القاهرة ، وشقة فى الإسكندرية ويقبل «قدميها» كل صباح! أو ماذا تزيد عنها هؤلاء الأخريات اللاتى يرفلن فى الترف ؟! وعبثا أحاول إقناعها بأن لكل إنسان ظروفه ورزقه وأن لدينا الكثير مما ينبغى أن نشكر الله عليه كالأولاد والصحة والحب . . الخ . . ولكن بلا أى فائدة فهى إذا انفجرت لم تسمع لشىء إلا لشياطينها . . وكم اضطررت لأن أقترض من أخى الأصغر منى لألبى طلباتها ولأقدم لها الهدايا فى المناسبات حتى لا تشعر بأنها أقل من غيرها . . فتصفو بعض الوقت وتبدو جميلة وسعيدة ، ثم يتعكر جوها فجأة بلا مقدمات فتمضى الأيام وهى ناقمة على كل شىء ومكفهرة الوجه ، ولا ترد على تحيتى فى الصباح ولا تتكلم معى ، إلى أن أنهض ذات يوم من النوم فتبادرنى بالتحية كأن شيئا لم يكن فأعرف أن العاصفة قد انتهت ، ونواصل حياتنا أو فترة الهدنة المؤقتة إلى أن يجدَّ جديد فتتكرر نفس القصة بحذافيرها ، وفى هذا الجو المتقلب عشنا ثلاثة عشر عاما كاملة ياسيدى ، ناهيك عن مقاطعتها لأهلى بلا سبب والشياطين التى تركبها إذا علمت يوماً أنى قد زرت أمى بغير استئذانها ! فإذا قلت لها إن زيارة أمى واجب علىّ خاصة بعد وفاة أبى ، هاجت وقالت لى إن أمى تكرهها وتنظر لها بنظرات كراهية صامتة ! مع أنها كانت توصينى دائمًا باحتمالها من أجل الأولاد ولا تذكرها معى إلا بخير ، فى حين لا تذكر هى أمى أبداً إلا بسوء ! المهم أننى احتملت كل شىء من أجل الأولاد ، ومن أجل فترات الهدنة بين الأزمات إلى أن لاحظت منذ عام ونصف العام ، أن نوبات النكد والخصام قد تقاربت بشكل لافت للنظر ، وأن فتراتها أصبحت تطول

أكثر من المعتاد فاستعنت عليها بأهلها فلم يصلوا معها إلى شيء ، ثم فوجئت بها ذات يوم تطلب منى الطلاق فى هدوء . . ولم يكن ذلك شيئًا جديدًا بل كان دائماً من مراسم كل خلاف ، لكن الجديد كان هو الهدوء الذى طالبتنى به بالطلاق دون خلاف ولا عصبية ، وربما لهذا السبب وحده استشعرت خطورة الأمر هذه المرة وسألتها معاتبًا : أتريدين الطلاق وابنك الصغير لم يبلغ عامه الثالث بعد؟ . . فأجابت بالإيجاب . . ولجأت إلى أهلها شاكيًا بلا فائدة ، وأصبحت تطالبنى بالطلاق كل يوم مرتين ، مرة فى الصباح ومرة فى المساء ، حتى ضقت بكل شيء وأكدت لها أننى لن أطلقها مهما فعلت ، لأنى لا أريد أن أشرد أطفالى الثلاثة . . فإذا بها تمسك بموسى الحلاقة الذى أستخدمه وتهددنى بقطع شريانها إذا لم أطلقها الآن وفوراً !!

وتذكرت فجأة وأنا فى قمة ضيقى ونكدى حين حاولت الانتحار من قبل ، ولكن لكى تتزوجنى وتفرضنى على أهلها وليس لكى تطلق منى ، وتعجبت من تغير الأحوال . . وتقلب القلوب وقلت لها إننى سأطلقها وذهبت لإحضار شقيقها وعرضت عليه الأمر للمرة الأخيرة عسى أن يجد له مخرجاً ، فاختلى بها فترة من الوقت ثم خرج إلىّ وطالبنى بطلاقها فطلقتها . . وعرضت عليها أن أترك لها الشقة وأقيم مع أمى وأختى الصغرى التى لم تتزوج بعد فرفضت ، وطلبت أن تصطحب معها طفلها الصغير وتقيم عند أهلها . وغادرت زوجتى بيتها ، وانطويت على نفسى مجروح النفس والكرامة أنظر للطفلين وأتحسر على حيرتهما بعيداً عن أمهما . وأملْتُ أن ترجع إلى رشدها بعد شهور ،

لكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن ، فقد تزوجت أم أولادى ياسيدى بعد انتهاء عدتها بيوم واحد من رجل آخر . . ومن هو الذى تركتنى من أجله ؟ . . إنه زوج وأب لأولاد كبار وجد -لحفيدين أيضًا ويكبرها بخمس وعشرين سنة . . لكن كل ذلك يهون لأنه تاجر مستريح مادياً ويركب سيارة فاخرة وعنده شقة فى الإسكندرية تمامًا كزوج أختها الصغرى ! وقد أقامت معه فى شقة لا تزيد فى مساحتها على شقتى ، لكنها فى حى أرقى وأثاثها أفخر وفيها الفيديو والدش أو الإيريال الدولى الذى يلتقط تليفزيونات الدُّنيا !

كما ترك هو بيت أولاده وأقام معها إقامة دائمة فى الشقة ، ويذهب إلى أولاده كل يومين لمدة ساعات ، وقد علمت أن هذا كان شرطها وأنه استجاب له سعيدًا وراضيًا .

ورغم ما أحسست به من مرارة فقد تصبرت واستسلمت لمصيرى وأكثرت من الصوم وأفرغت أحزانى فى رعاية الولدين والاهتمام بشئونهما وإعداد ملابسهما وطعامهما ، ومن حين لآخر أرسل ابنى الكبير – وعمره 12 عامًا – لكى يحضر لى شقيقه الأصغر من بيت «ماما» الجديد لكى أراه لمدة ساعة . ومضت شهور على هذه الحال إلى أن كان الأسبوع الأخير من العام الدراسى حين عاد ابنى الكبير من المدرسة ، ففوجئت به يجر فى يده شقيقه الأصغر وفى يده الأخرى حقيبة صغيرة يتعثر فيها . . وسألته عما حدث ، فعرفت منه أن أمه «الحنون» قد ذهبت إليه عند موعد خروجه من المدرسة وسلمته شقيقه وحقيبة ملابسه ، وقالت إن زوجها لا يريد ابنها معهما لأن الشقة صغيرة وهو يريد الهدوء ! هل تتصور هذا ياسيدى؟!

وهل تتخيل حالى وابنى الصغير الذى يبلغ من العمر 3 سنوات يبكى من الجوع وتعب المشى ، وابنى الأكبر يسألنى هل معنى هذا أن ماما لم تعد تريد أحداً منهم أو تحبه ؟

لقد هتفت فى أعماقى : حسبى الله ونعم الوكيل . . وحاولت أن أخفف عن الأولاد وأشغلهم بترتيب أوضاع حياتنا الجديدة . . ولكن جرح الألم كاد يقتلنى وذهبت لأمها وشقيقها ، فقالا لى إنهما لم تعد لهما سيطرة عليها وإنهما رفضا قبول الولد عندهما أو توصيله لى حتى يجبراها على الاحتفاظ به ، لكنها لم ترتدع وفى النهاية طلبا منى أن أتزوج غيرها لترعى أولادى ولكى أنساها !

فغرقت فى همٍّ كبير . . وأضيفت إلى تعاستى الشخصية معاناتى كأب وأم فى رعاية أولادى ومحاولة تعويضهم عن حرمانهم من أمهم . . ووسط لحظات التعاسة أجد نفسى أحياناً أستسلم لأحلام اليقظة ، فأتخيل مطلقتى وقد اكتشفت أنها لم تحقق السعادة فى الحياة التى اختارتها ، وأنها أحست بتأنيب الضمير لتضحيتها بأولادها فى سبيل حياتها الشخصية . . وعادت إلىّ نادمة تطلب منى الصفح وأن تعود لتعيش خادمة تحت أقدامى بقية العمر وترعى أولادها ، فأصفح عنها بعد تمنُّع وأعيدها إلى عصمتى ، وخاصة أنى سمعت أن زوجها الجديد لا يقابل نوباتها العصبية بالصبر واللين كما كنت أفعل وإنما بالحذاء . . وسمعت أنها ثارت عليه للمرة الأولى بعد شهرين من الزواج فضربها «علقة» دامية وطردها من الشقة . ورغم ذلك فقد عادت إليه «كالكلبة»

بعد يومين أمضتهما في بيت أهلها ودون أن يذهب لإعادتها ! لكن هذا الحلم ليس سهلاً بعد أن صبرت مطلقتى على فراق أولادها تسعة شهور الآن . . ولولا أنى أرسلهم إلى بيت أمها كل شهر مرة لما طلبت رؤيتهم .

وفى أحيان أخرى أستمع إلى نصيحة الأهل والأصدقاء بأن أتزوج من أرملة أو مطلقة لتتقاسم معى رعاية أولادى ورحلة العمر ، لكنى أرى الخوف فى عيونهم من أن أتركهم كما تركتهم أمهم فأتردد . . ويطول ترددى . . فبماذى تنصحنى ياسيدى أن أفعل ؟ . . هل أنتظر حلم اليقظة هذا . . أم أتزوج أم أبقى وحيداً مع ما أعانيه من آلام ومتاعب وأتفرغ لأبنائى ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

أحلام اليقظة يا صديقى قد تصلح لأن يهرب إليها الإنسان أحيانًا من واقع أليم يعجز عن احتماله ، لكنها لا تصلح لأن يبنى خططه على أساسها أو ينتظر تحققها فى أرض الواقع ، إنها فترات هروب قصيرة إلى واحة الخيال من عناء الواقع ، لا يجوز أن تطول عن لحظات . . ولا أن يستنيم إليها المرء طويلاً وإلا اختلطت لديه الحدود بين الواقع والخيال . . وطاشت تقديراته وأحكامه وحلم يقظتك على وجه التحديد حلم بعيد المنال فى المنظور القريب على الأقل ، لأن زوجتك السابقة شخصية جامحة أنانية تطلب لنفسها ما تراه ملائما لها وتقاتل للحصول عليه ، ولا تضع فى اعتبارها إلا رغباتها وحدها. وقد فعلت ذلك حين حاولت الانتحار لتفرضك على أهلها ، وحين هددت به لتنال حريتها منك وتتزوج «الآخر» ، فإذا كان خطؤها فى المرة الأولى محتملاً . . فهو فى المرة الثانية جريمة لا تغتفر ، لأن له ضحايا أبرياء هم أنت وأولادها الثلاثة الذى لم يتم أكبرهم الثالثة عشرة من عمره ، ومن لا تردها غريزة الأمومة ولا عاطفتها تجاه أطفالها الصغار عن الاستسلام لرغباتها وهوى نفسها لا يردها عنها شىء آخر فى الوجود ، ذلك أن غريزة الأمومة هى أقوى غرائز المرأة ودوافعها على الإطلاق ، ومن لم يرق قلبها لصغارها

فيدفعها للتمسك بهم واحتمال ظروف حياتها من أجلهم أو حتى للاحتفاظ مؤقتًا بطفلها الصغير الذى يحتاج لرعايتها ، لا أمل فى الاعتماد على صحوة ضميرها أو مراجعتها لنفسها أو ندمها على ما فعلت . ثم هَبْها فعلت ذلك - وهو ما أستبعده الآن على الأقل - فهل تستطيع أنت أن تصفح عنها وتمحو من نفسك كل أثر لغدرها بك وتنكرها لأطفالها ؟

لقد كانت حياتك معها سلسلة متصلة من العواصف والبراكين التى تقف عاجزًا أمامها ، ولا تملك معها إلا انتظار انتهاء «النوة» العاصفة حتى تلتقط أنفاسك بعض الوقت قبل أن يموج البحر بعاصفة جديدة ، وقد احتملت حياتك معها مدفوعًا بأنبل الدوافع وهو الحرص على سعادة الأبناء من ناحية . . وبضعفك العاطفى تجاهها من ناحية أخرى ، مع اعتقادك أنها على الحب الذى جمع بينكما مازالت مقيمة ، وأن ما تعانيه من انفجاراتها إنما يرجع إلى مزاجها النارى المتقلب وليس إلى جفاف عاطفتها تجاهك . . فكيف ستكون حياتك معها لو تحقق هذا الحلم المستحيل ، وقد عرفت الآن بخيانة القلب الذى أحببته وتحملت من أجله كل هذه الأهوال ؟ صحيح أن الحب قلب غفور قد يغفر الكثير من الخطايا للأحباء ، لكن هناك بعض الحالات التى تنطبق عليها بصدق عبارة الشاعر الحكيم طاغور حين قال إنه :

حين ينقسم الحجر إلى نصفين فإنه يمكن إعادة وصله بيسر وإحكام ليعود كما كان من قبل بغير أن يلحظ أحد انقسامه السابق ، أما مع الإنسان فإن الأمر يختلف لأنه كائن حى ومتغير دائمًا . . وعندما يفترق

الناس لفترة طويلة أو يحدث بينهم ما لا يمكن الصفح عنه ، فإنه لا يمكن إعادة ضمهم ليعودوا كما كانوا من قبل .

وحالتك هذه للأسف من الحالات القليلة التى لا يمكن إعادة وصل الحجر المنقسم فيها ليعود كما كان من قبل ، ليس فقط لخيانة الحب ولا الغدر بعهد من اختاره القلب وكاد يفقد الحياة من أجله ، وإنما لبشاعة تنازل الأم عن أطفالها الصغار بهذا اليسر بغير أن يهتز لها رمش إلى حد تنازلها عن حضانة الطفل الوليد ، لأن زوجها الذى يحقق لها مستوى الحياة الذى أرادته لا يحتمل وجوده معها ! إن العجماوات يا صديقى لا تتنازل عن صغارها بهذه السهولة ، وإنما تقاتل وتخمش بمخالبها وأظافرها من يحاول انتزاعها منها . . والحديث الشريف يقول للآباء والأمهات : «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم» وكثيرون هم من يضحون باعتبارات السعادة الشخصية والاعتبارات المادية لكيلا يتخلوا عن أبنائهم أو عن واجبهم الإنسانى والدينى فى رعايتهم وإحسان أدبهم . . فكيف تأمل خيرا فيمن تخلت عن واجبها المقدس تجاه أطفالها الصغار بهذا اليسر ولولا أنك ترسلهم إليها لما طلبت رؤيتهم ؟! . . وكيف تتصور إمكانية عودة الحياة بينك وبينها مرة أخرى وكأن شيئا لم يكن ولم ينشرخ بينكما ؟

يا صديقى . . لقد فرطت كثيراً مع هذه السيدة ، ولم تلتفت من البداية إلى الإنذار المبكر الذى كان ينبغى أن تتلقاه وتتفهمه عن مزاجها العصبى وطبعها النارى من اليوم الأول ، لتعرفك عليها فى مكتب القوى العاملة ، فهى لم تكن تصلح لك ولا كنت تصلح لها ، وقد نالت

ما تستحقه الآن من الحياة ومن نمط الأزواج الذين يصلحون لها فدخلت فى عصمة رجل يعرف كيف يتعامل مع شياطينها . . وكيف يروِّضها كما يروض مروض الوحوش النمرة الشرسة . . ومستقبلها معه رهين بخضوعها لتسلطه وتجبره عليها ، كما حدث لـ «كاترين» الشرسة فى مسرحية شكسبير «ترويض النمرة» التى رفض كل الشبان أن يتقدموا لخطبتها لطبعها الشرس وجموحها . . إلى أن جاءها زوجها المجرب «بتروشيو» وأخضعها بخبرته وحنكته لشخصيته وتسلطه ، حتى كان يتعمد أن يشير إلى القمر الساطع أمام الآخرين ، ويقول لها إنها «الشمس المباركة» فتؤمن على ما يقول وتردد وراءه أنها الشمس المباركة بعد أن جربت عاقبة مخالفته فى الرأى . . ولكل جامح آفة من جنسه !

أما أنت فلقد كان استمرار حياتها معك رهينا بقدرتك على الصبر والاحتمال والمرونة وقد آن لك الآن أن تنال من الدنيا من تستحقها ومن تعرف لك قدرك ، وتشاركك حلو الحياة ومرها بلا تسلط ولا عدوانية ومن تقاسمك رعاية أولادك وربما أولادها أيضًا . .

فهز رأسك بعنف يا صديقى كلما راودك حلم اليقظة المزعج هذا لكى تطرده منه إلى الأبد . . ولا تحكم على نفسك بالوحدة والمعاناة بقية العمر وإنما استجب لنصيحة الأهل والعقلاء ، وابحث لنفسك عن شريكة عمر ملائمة لك ولسنك وظروفك الاجتماعية والمادية ، وفوِّض أمرك لربك فيمن تخلت عن صغارك ولم تحفظ لك عهدك . . وانتظر تعويض السماء لك عما لقيت معها من عناء . . ولسوف تأتيك جوائزها تترى قريبًا ، وقريبًا جداً بإذن الله . .

هذا هو ثالث خطاب أكتبه إليك ولا أجد فى نفسى الشجاعة لإرساله، وقد سبق لى أن أردت منذ سبع سنوات أن أكتب إليك وأنا طالبة بإحدى الكليات لأشكو لك من حياتنا وما نعانيه أنا وشقيقى الطالب الجامعى وقتها . . فى بيت النار . . الذى نعيش فيه مع أبى وأمى . . فقد كانت حياتنا فيه شعلة مستمرة من لهب الشجار والعراك بين أمى الموظفة التربوية وأبى الموظف الحكومى . شعلة تسمع فيها طقطقة الخشب حين يحترق ويرتفع فيها «الشبشب» أحيانًا . . ويعلو فيها الصوت بأقذع الألفاظ دائمًا إلى جانب الفضيحة التى تجلجل كل بضعة أيام فى العمارة ، مما كان يخزينا ويخجلنا ، ويسبب لى أنا وشقيقى ألما نفسيًا بالغا ، وقد بلغ هذا الألم قمته ذات مرة حين ترك أبى البيت بعد أحد هذه الصدامات العنيفة ، وضغطت علىّ أمى ضغطا شديدًا وأنا تلميذة صغيرة بالمدرسة الثانوية للذهاب معها إلى قسم الشرطة لتحرر محضراً ضد أبى وتستشهد بى فيه على أنه ضربها ، وذهبت مكرهة ، ووقفت أمام مساعد الشرطة وراحت أمى تستنطقنى . . والكلمات تتجمد فى فمى ولا تريد أن تخرج حتى أشفق علىّ مساعد الشرطة ، ونهر أمى قائلاً لها : حرام عليك ما تفعلين ياسيدتى ، إن ابنتك . . بنت طيبة ولا تريد أن تشهد على أبيها . . فسوَّى الموضوع بعيدًا عن الشرطة . . وخرجت من القسم باكية وأمى تلومنى على خذلانى لها ، وبسبب هذه المعاناة المستمرة ، كانت

تأتينى نوبات من الانتفاضات والتشنجات العصبية وأنا نائمة لا أعرف بها إلا حين تخبرنى عنها أمى فى صباح اليوم التالى ، لأنها كانت تنام معى منذ فترة طويلة هاجرة فراش أبى ، وقد استمرت هذه الانتفاضات تطاردنى عدة سنوات بعد ذلك .

وفى مثل هذا الجو الكئيب عشنا سنوات الصبا وأوائل الشباب ، وبدلا من أن نستمتع بأجمل فترات العمر . . تجرعنا فيها كل ألوان المعاناة ، وكلما انفرد بى أبى حكى لى عن مأساته مع أمى التى أضاع معها زهرة عمره ، وكلما انفردت بى أمى حكت لى عن مأساتها مع أبى الذى خدعها وأخذ «شقاء» عمرها كما تقول ، ويطلب منى أبى التوسط لدى أمى وتطلب منى أمى التوسط لدى أبى وكذلك يفعلان مع أخى . . ونقف نحن عاجزين ومحبطين بينهما .

وفى السنة الأخيرة من دراسة أخى الجامعية تعرَّف على فتاة وأحبها ووجد فى حبه لها مهرباً من جو البيت الثقيل ، وبدأ يخرج معها ويشركنى معه فى نزهاتهما ليخفف عنى ، ثم تخرج فى كليته وعمل فى مدينة نائية يقيم بها ثلاثة أسابيع من الشهر ثم يأتى ليقيم معنا أسبوعًا واحدًا. وأحسست لغيابه عنى بفراغ موحش ووحدة قاتلة ، فقد كان سلواى الوحيدة وشريكى الأوحد فى المعاناة . . وكم وقفنا متجاورين فى جانب من الغرفة نرتجف من الخوف والألم ونحن نشهد معركة جديدة بين أبوينا منذ سن الطفولة. ثم تخرجت فى كليتى وعقد أخى قرانه على فتاته ورحل معها للعمل فى إحدى الدول العربية ، وسعد بالتخلص من المعاناة ، وبقيت وحدى فى بيتنا الكئيب أحاول أن أشغل فراغى بشىء

مفيد والتحقت بدراسة حُرة بإحدى الكليات ، وفى هذه الأثناء تقدم لى شاب يعمل بالخارج وعائد فى أجازة لكى يبحث عن نصفه الآخر ويخطب ويعقد قرانه فى نفس الأجازة ، ولم أتحمس للفكرة من البداية ، لكن أمى نزلت فوقى بثقلها وضغطها لأوافق عليه لأنه عريس جاهز ولا يعيبه شىء ، ولست أنكر أننى أعجبت به كشخص ، ولكن حافزى الأول لقبوله كان أنه يعمل فى دولة عربية ، وسوف أهرب معه من بيت الشقاء الذى أعيش فيه . وهكذا وافقت على الارتباط به بلا حماس ، ولست أدرى حتى الآن كيف خطبت له وعقد قرانى عليه وتزوجت خلال أسبوعين فقط ، وبعد الزفاف المتعجل سافرنا إلى أحد الشواطىء فى رحلة شهر العسل . . فكانت أيامه أتعس أيام حياتى . . وفى الفندق الذى أقمنا به كنت أنظر أحيانًا إلى زوجى وهو نائم إلى جوارى فى الفراش وأتعجب من نفسى وأتساءل من هذا الرجل؟ . . ولماذا تزوجته ولماذا فعلت ما فعلت ، إلى حد أنى فكرت أكثر من مرة أن أحمل حقيبتى وأتسلل وحدى عائدة للقاهرة ، لكن هيهات أن أفعل ذلك وقد وقعت الفأس فى الرأس كما يقولون . . ولم يبق أمامى إلا استكمال المشوار الذى بدأته باختيارى ، وانتهت أجازة العسل وعدنا للقاهرة وسافر زوجى إلى عمله . . وانتظرت أن يستدعينى إليه وعاد أخى فى أجازته ففوجىء بزواجى وتعجب له ، وانفرد بى يسألنى هل أرغمنى أحد على هذا الزواج فنفيت له ذلك . . لكنه فهم دوافعى وتمنى لى السعادة . . وأرسل زوجى يستدعينى إليه ، وسافرت وتخلصت من بيت الأحزان الذى عشت فيه سنوات عمرى الضائعة ، وكل أملى أن

أحيا حياة هادئة مريحة . . ووجدت زوجى إنسانًا طيبًا لا يدخر وسعًا فى إسعادى ، وتخلصت بعد شهور من الزواج من الانتفاضات العصبية أثناء النوم ، وبعد عامين أنجبنا طفلتنا الوحيدة الجميلة ، ورغم ذلك كان المفروض أن يعمق مجيء الطفلة الروابط بيننا . . لكن ما حدث كان العكس . . فقد أحسست بأن هناك فجوة بينى وبين زوجى تتسع يوماً بعد يوم .

فأنا للأسف لم أحبه رغم احترامى له وتقديرى لأخلاقه ، وأحس كذلك بأنه لم يحبنى رغم حرصه على علاقتنا ، لأنه لم ينطق بكلمة واحدة يعبر لى بها عن حبه لى منذ زواجنا ويتعلل فى ذلك بأنه لا يعرف هذا النوع من الكلام ، وأنه يعبر عن مشاعره بالأفعال لا بالأقوال ، ولم يكن من المعقول أن أهدم بيتى لسبب تافه كهذا ، فواصلت الحياة معه ، لكنه حدث بعد ذلك ونحن فى أجازة بمصر ما أشعرنى بأنه لم يثق فىّ حتى الآن ثقة كاملة من الناحية المادية . . فغضبت جداً وصممت على عدم العودة إليه بعد سفره لعمله . . ثم تراجعت عن تصميمى وسافرت إليه وفى نيتى أن أختبر مشاعرى تجاهه ، ومنذ عودتى إليه وأنا أحس بأن مشاعرى تجاهه مشاعر نفاق ، لأنى لم أحبه وأتهرب غالبًا من علاقتنا الخاصة حتى بدأت أشعر بأنه قد بدأ يكرهنى فى صمت لهذا السبب . إننى أراجع حياتى الآن فأجدها فاترة مملة . . وساعد على ذلك المجتمع المغلق الذى نعيش فيه حيث لا صداقات ولا زيارات ، وزوجى قليل الصداقات بطبعه .

وأرجو ألا تنصحنى بمغالبة الملل بالعمل لأنى عملت فترة ثم تفرغت لطفلتى وهو غير متاح لى الآن .

وقد سمعت مرة أن الزواج إذا لم يدفع الإنسان خطوات إلى الأمام فإنه يكون قد أساء الاختيار . وأنا أحس أنى لم أتقدم للأمام وإنما رجعت خطوات إلى الوراء ، فهل أقدم على طلب الانفصال وأقلب المائدة بكل ما فيها ، وأواجه نفسى والمجتمع والناس ، وأحاول أن أتذوق طعم الحياة الذى حلمت به منذ صباى حين كنت أحلم بالحب والزواج والطموح إلى أشياء كثيرة ، أم أترك الحال كما هى عليه وأواصل حياتى الفاترة ، مع العلم أنى أشعر بحاجتى لطبيب نفسى ينقذنى من الاكتئاب ، وهل إذا أقدمت على الانفصال يكون ذلك تمردا على النعمة التى بين يدى ، وخاصة أن طفلتى هى روحى وجزء لا يتجزأ من كيانى . . أم بماذا تنصحنى ؟..

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

الإنسان لا يتزوج ياسيدتى لكى يتقدم خطوات إلى الأمام أو إلى الخلف ، وإنما لكى يسكن إلى شريك يطمئن به جانبه ويشاركه أفراح الحياة وأشجانها . وأكبر خطأ يرتكبه فى حق نفسه هو أن يرتبط بإنسان لغير سبب سوى دافع الهروب من مشكلة عجز عن مواجهتها أو تحملها ، وهذا ما فعلت بنفسك للأسف حين قبلت من طرق بابك مدفوعاً بآماله المشروعة فى السعادة ، لمجرد رغبتك فى التخلص من حياتك فى «بيت النار» الذى يتلظى كل يوم بلهب الشجار والشقاق . لكن الإنسان من ناحية أخرى مسئول دائما عن اختياراته وأفعاله ، وليس من الشجاعة أن ينكص عن تحمل تبعاتها ، أو أن يرضى للآخرين بأن يدفعوا نيابة عنه ثمنها . ولقد كانت مقدمات زواجك خاطئة بكل تأكيد ، لكن النتائج لم تخرج بعد عن دائرة السيطرة والتصحيح ، ومشكلتك الأساسية هى أنك قد تزوجت عن غير اقتناع كامل بزوجك . . وفى تعجل لم يسمح لبذرة القبول النفسى بالزواج بأن تنمو تدريجيًا فتثمر زهرة الحب فى موعدها الربيعى . ثم ساعدت طبيعة زوجك المتحفظة على بطء هذا النمو أو إيقافه ، وأنت تقولين إنك لم تتقدمى فى حياتك «خطوات إلى الأمام» بهذا الزواج ، لكنى أختلف معك فى ذلك رغم اعتراضى على

الفكرة من أساسها ، فلقد قطعت «خطوات» لا يمكن إنكارها إلى «الأمام» ، فغادرت بهذا الزواج بيت الجحيم الذى كنت تعيشين فيه ، وتخلصت من الانتفاضات التشنجية التى كانت تزعجك ، وأنجبت طفلة جميلة تستمتعين برعايتها . . وستعملين جاهدة على أن تجنبيها ما قاسيت أنت منه بين أبويك ، وتعيشين حياة هادئة بلا نزاع ولا شقاق مع زوجك الطيب الذى لا يدخر جهدا لإسعادك وحالتك الصحية والاجتماعية والمادية طيبة . . وطفلتك طبيعية وليست عليلة معاقة والحمد لله . . ﴿وإن تعدُّوا نعمة الله لا تُحصوها﴾. فكيف لا يكون كل ذلك خطوات إلى السعادة بإذن الله؟ حتى ما رويته لى عن المسألة المادية التى حذفتها من رسالتك لا يستحق منك هذه المغالاة فى الغضب، ولا فى الاستنتاج منها أنه لا يثق فيك من الناحية المادية ، فهى شأن تافه لا يستحق الاعتبار وليست دليلاً أبداً على ما توصلت إليه من نتائج ، ثم إنها من حقه أولاً وأخيراً وفيما عدا ذلك فهو لا يقصر فى حقوقك ، ولا ينى عن محاولة إسعادك ويتحمل صابرا تهربك منه، مع ما فى ذلك من جرح لمشاعره كزوج وكإنسان . . ومع كل ذلك فإن مشاعرك تجاهه ليست فى النهاية عدائية ولا مشاعر كراهية ، وإنما مشاعر حيادية فقط لأن شرارة الحب لم تولد بعد فى قلبك تجاهه . . وهذا شىء طبيعى لأنه يندر أن يكره الإنسان السوى «الآخر» الذى يحبه ويحسن معاشرته ، حتى ولو لم يستجب لمشاعره العاطفية ، وقد ذكَّرنى ذلك بما قرأته فى رسالة لقارىء فاضل من أن المحبة لا يمكن أن تكون عاقراً أبداً، لأنها إن لم تلد محبة فهى تلد خجلاً تجاه من يحمل لنا تلك المحبة ! وهذا هو حالك مع زوجك الآن أو ما ينبغى أن يكون عليه حالك معه .

وإذا كنت تشكين من فتور حياتك وخلوها من لذع الحب . . فتذكرى أن هناك من فرضت عليهم ظروفهم عشرة من يحتملون منهم كل ألوان المعاناة ، ومع ذلك فهم يمضون فى الحياة طاوين أجنحتهم على تعاستهم ويحتسبون شقاءهم ومعاناتهم عند من لا تضيع عنده الأجور . وما حال أبويك رغم اعتراضى على أسلوبهما ببعيد ، فقارنى حياتك بحياة هؤلاء ، وستجدين أن الأقدار قد ترفقت بك كثيراً ، وتذكرى دائمًا أن من واجبك أن تعطى زوجك وطفلته فرصتهما العادلة فى السعادة والحياة الخالية من الآلام وسوف تشاركينهما سعادتهما كاملة ، حين يأذن الله لشرارة الحب بأن تولد فى قلبك . . أو حين تتوافقين مع أوضاعك وترضين عنها فى جملتها وتتجاوزين عما ينقصها . . وأى الناس قد اكتملت له كل أسباب السعادة ؟! إن الكارثة الحقيقية ليست فى فتور حياتك ، إذ ما أهون هذه المشكلة بالقياس إلى آلام الحياة الأخرى ، وإنما فى منبت الشقاء الذى ولدت فيه وعشت زهرة عمرك ، فلقد أجرم أبواك فى حقك أنت وشقيقك بإشراككما معهما فى مشكلتهما الشخصية ، فبذرا بذور الاكتئاب فى نفسيكما ، وأثرا من حيث لا يحتسبان فى قدرتكما على الاستمتاع بالحياة وإدراك قيمة الأشياء والأهداف والمعانى . . وهذه هى جناية بعض الآباء والأمهات الذين لا يتجملون أمام أبنائهم ولا يستخفون بنزاعاتهم ومعاركهم وفضائحهم عن الأبناء . . ولا يعفونهم من معاناتها معهم ، كأنما يعز عليهم ألا يقاسوها وحدهم غير مدركين عمق الآثار النفسية التى ترسخ فى أعماقهم وتؤثر فى تكوينهم النفسى وفى تصوراتهم وأفكارهم عن

الزواج والسعادة والحياة ، إنك ضحية لأنانية أبويك فحاذرى أن تكررى القصة وتصنعى ضحية جديدة لنفس الجريمة هى طفلتك ، لأن من تعرَّض للظلم هو أقدر الناس على الإحساس بمشاعر الضحايا وأبعدهم عن أن يظلم الأبرياء بمعاناته واختياراته من بعده.
أما زوجك فنصيحتى الوحيدة له هى أن يواصل الصبر عليك إلى أن تتفتح له مسامك فى وقت قريب ، وأن يحاول الاقتراب منك ويرخى العنان للسانه ليعبر بالكلمات عن مشاعره تجاهك إلى جانب الأفعال، فهذه اللفتات الصغيرة ترضى وتؤلف بين القلوب . . وتقرب الشركاء ولا يجوز لرجل أو امرأة أن يتحفظا فيها . . فلقد كان الرسول الكريم لا يتحفظ فى التعبير عن مشاعره القلبية تجاه السيدة عائشة ، ولا يرى فى ذلك عيباً، وروى عن عمر بن الخطاب وهو المعروف بشدته وجديته قوله : ينبغى للرجل أن يكون فى أهله «أى مع زوجته» كالصبى أى فى الأنس والبساطة فإذا كان فى القوم كان رجلاً ! .

وكان الإمام الشافعى يمازح زوجة له فيقول متشكيًا : ومن البلية أن تحبه . . فلا يحبك من تحبه ! فتجيب عليه زوجته ببيت شعر مماثل فيه على غزله بدعابة مماثلة . . والاهتمام بهذه اللفتات الصغيرة . . يرقق القلوب الجافية ويفتح فيها الثغرات التى يتسلل منها الحب ، ولقد روى قاضٍ أمريكى نظر آلافاً من قضايا الطلاق أن معظم الحالات التى نظرها قد بدأت بإهمال اللفتات الصغيرة كنسيان الزوجة أن تودِّع زوجها وهو خارج إلى عمله بكلمة وداع طيبة أو نسيان الزوج مناسبات الزوجة الخاصة أو إهماله التعبير عن مشاعره تجاهها .

فواصلى المحاولة مع زوجك . . وانظرى إليه بعين جديدة منصفة تضع سعادته كإنسان اخترته بملء إرادتك أيضًا وسعادة طفلتك فى الاعتبار ، فلقد حسم مجىء الطفلة الأمر ، ولم يعد هناك مجال للاختيار أو الوقوف طويلاً أمام الاعتبارات العاطفية ، واستعينى بالطبيب النفسى على التخلص من الرواسب الاكتئابية التى مازالت مستقرة في أعماقك من سكنى «بيت النار» ، واذكرى نعمة الله التى أنعمها عليك وعندها سوف تتغير أشياء كثيرة فى روحك وأعماقك . . وسوف تقتربين من السعادة والرشاد بإذن الله .

أنا شاب فى الخامسة والثلاثين من عمرى نشأت فى أسرة طيبة بالجنوب وحيداً بين ثلاث شقيقات ، ففزت بنصيب الأسد من حب ورعاية أبوىَّ وشقيقاتى ، ونعمت بجو أسرى صالح طوال فترة تعليمى حتى تخرجت فى الجامعة وعملت فى مدينتى بالجنوب فى وظيفة مرموقة ، وخلال دراستى الجامعية لم تكن لى أية علاقة بالجنس الآخر ، وبعد تخرجى وعملى بدأ أبى وأمى يلحان علىَّ فى الزواج ، ليسعدا برؤية أولادى فى حياتهما ، وبدأت أمى ترشح لى الفتيات الملائمات فوافقت على إحداهن وخطبتها، وكانت علاقتى بها هى أول صلة لى بعالم الجنس اللطيف ، ولم تستمر الخطبة طويلاً فقد انتهت بالفشل بسبب اتهام أمى لخطيبتى بمحاولتها السيطرة علىّ . وانطوت هذه الصفحة من حياتى . ونسيت التجربة بعد شهور وركزت جهدى فى عملى وتشاغلت به ، وتزوجت آخر شقيقاتى فخلا البيت إلا من أبى وأمى ومنىّ . و ذكرنى أبى يوم زفافها ودموعه تترقرق فى عينيه بأمنيته القديمة فى أن يرى أحفاده من ابنه الوحيد قبل أن يسبق إليه الأجل ، ووعدته خيرًا . ولم يمض على هذا الحديث شهران إلا وكان الأجل قد وافاه فعلاً رحمه الله . . كأنما كان يستشعر اقترابه منه . وعشت مع أمى وحيدين فى مسكننا وازددت انشغالاً بعملى لأهرب من إلحاح أمى علىّ بالزواج . وذات يوم عدت من عملى فوجدت باب شقتنا مفتوحاً ، وتخوفت من ذلك ودخلت منزعجًا

فوجدت إحدى جاراتنا ومعها ابنتها الشابة وابنها الصغير مع أمى وعرفت منهم أن أمى قد فاجأتها إغماءة بسيطة وهى تفتح الباب لأمر من أمور البيت ، فأسرعت إليها الجارة الطيبة التى كانت تصعد السلم وسندتها ونادت ابنيها ليعيناها على إعادتها لمسكنها ، واستدعوا لها الطبيب وبقوا معها ليطمئنوا عليها . وشكرتهم بحرارة على ما فعلوا واستردت بعض اطمئنانى على أمى ، وتعرفنا منذ ذلك اليوم على تلك الأسرة الطيبة . وحاولت رد جميلها بالاهتمام بابنها الصغير ومساعدته فى دروسه بإعطائه درساً أسبوعياً بلا مقابل ، وخلال دروسى له أعجبت بشقيقته ذات الجمال الهادىء والحجاب الرقيق ، وأعجبت بتدينها ومحافظتها على صلاتها ، ففاتحتها بعد شهور بإعجابى وحبى لها ، وفاتحت أمها برغبتى فى الزواج منها ورحبت بى كما رحبت أيضًا أمى ، وتمت الخطبة سريعاً وسط سعادة الجميع وتزوجنا وسعدنا معًا بحياتنا . . لكن الشهور الأولى مضت بغير أن تحمل زوجتى وبدأت أمى تلح علىَّ فى السؤال عن أخبار الحمل والإنجاب وأتهرب من أسئلتها وأطالبها بألا تجرح مشاعر زوجتى بسؤالها . . ولكن هيهات لقلب الأم أن يتخلى عن هذه الطبيعة . وهكذا عرفت حياتنا الهادئة المشاكل بسبب كلام أمى مع زوجتى عن الحمل والإنجاب ، وطلبت زوجتى منى أن تعرض نفسها على الطبيب ، فرفضت ذلك نأياً بنا عن المشاكل ، لكن المشاكل لم تفارقنا بل تزايدت بين أمى وأسرة زوجتى بسبب هذا الموضوع . وبعد تردد طويل اتفقت مع زوجتى على أن أذهب إلى طبيب مختص . . وتذهب هى إلى طبيبة متخصصة ، فإذا تبين لنا أن أحدنا غير قادر على

الإنجاب ، فإننا نحتفظ بهذا السر فيما بيننا ولا نُطلع عليه أحداً مهما حدث . وذهبت إلى الطبيب وأجريت الفحوص والتحاليل . وجاءت نتائجها بمفاجأة قاسية لى هى عدم قدرتى على الإنجاب ، رغم تمتعى بكل مقومات الرجولة. وترددت ماذا أفعل بما عرفت ؟! وقررت بعد تفكير طويل ألا أخبر زوجتى بهذه الحقيقة إلى أن تنتهى هى من فحوصها وتحاليلها . ثم عدت ذات يوم إلى مسكنى فوجدت زوجتى تبكى وأسرعت تخفى عنى دموعها حين شاهدتنى ، وفسرتها بأن أمها مريضة وفى حالة سيئة ، وحمدت الله أن زوجتى لم تسألنى عن نتائج تحاليلى ، وتجاهلت أنا الموضوع وإن كنت قد أحسست بأنها تخفى عنى سراً لا أعرفه . . وبعد أسابيع قليلة توفيت أمها إلى رحمة الله ، ومضت شهور قليلة ثم عدت إلى بيتى فلم أجد زوجتى . وعرفت أن أمى قد زارتها فحدثت مشكلة جديدة كالعادة بسبب إيلامها لها بحديث الحمل والإنجاب ، وأسرعت إلى بيت أسرة زوجتى فقابلتنى للمرة الأولى بطلب الطلاق ، وسألتها عن السبب ، فأجابتنى بأن التحاليل قد أثبتت عدم قدرتها على الإنجاب . . وأنها أخفت عنى هذه الحقيقة المؤلمة حتى لا تصدمنى ، وكانت تتعذب بالتساؤلات الصامتة فى عينى عن نتيجة الفحص ، وإزاء كرم أخلاقى معها وعدم سؤالى لها عن النتيجة حرصاً على شعورها . . فإنها تريد لى ألا أرتبط بمن لن تهبنى الأبناء . . وتريد لنا أن نفترق ، لأبدأ حياتى مع غيرها بالرغم مما تكنه لى من حب كبير .

لقد كان هذا ما واجهتنى به زوجتى يا سيدى . . فهل تدرى بماذا أجبتها عليه ؟ . . لقد كان المفروض أن أهوِّن عليها آلامها وأصارحها

بأننى أيضًا غير قادر على الإنجاب ، وأن هذه هى إرادة الله وعلينا أن نعيش حياتنا معًا ، ونسعد بحبنا وعشرتنا الجميلة بلا أى إحساس بالذنب عندى أو عندها ، لأن كلينا فى «الهوا سوا» كما يقولون ، لكنى لم أفعل ذلك بكل أسف ولا أعرف حتى الآن سر هذه النزعة الآثمة التى دفعتنى لأن أكتم عنها ما أعرفه عن نفسى ، وأمثِّل عليها دور الزوج المضحى الذى يتمسك بزوجته ويتخلى عن حلمه فى الإنجاب من أجلها . . وفعلت ذلك كله ، وقلت لها بلهجة الشهامة إننى سأقف إلى جوارها إلى أن تعالج وتشفى وتستطيع الحمل والإنجاب بإذن الله ، وإننى لا أريد منها أطفالاً ، وأكتفى بالحب الذى يجمع بيننا وأجد فيه كل تعويض وسعادة . وعجزت عن أن أصارحها بالحقيقة ، فقد أبت علىَّ رجولتى «وصعيديتى» وتقاليدنا وعاداتنا بأن أصارحها بأننى مثلها غير قادر على الإنجاب . وعدت معها إلى بيتنا وأصبحت أغضب من أمى غضباً شديداً وأقاطعها حين تعايرها بعدم الإنجاب ، إلى أن تسترضى زوجتى ، وتفانت زوجتى من ناحيتها فى محبتى وحنانها بى وسعدت جداً بحياتى معها بالرغم من نسيانى أحيانا تقمص شخصية الزوج المضحى وإفلات لسانى بعبارة عابرة أتشهى فيها الأطفال قبل أن أستدرك سريعا مؤكدا لها أن بيتنا هو جنة للسعادة بغير متاعب الأطفال .

والحقيقة التى أصارحك بها الآن يا سيدى هى أننى لا أستطيع أن أستمر فى أداء هذا الدور للنهاية . . ولا أستطيع أن أراها تتعذب بإحساسها بالنقص وتأنيب الضمير وتقصيرها فى إسعادى بالأولاد . . وأحزن كثيراً لرؤية نظرة الانكسار مستقرة دائمًا فى عينيها حين تنظر إلىَّ ساهمة . .. كما لا أستطيع رؤيتها وهى تغفر لى كل شىء وتصبر على

عصبيتى معها أحيانًا مهما فعلت ، لإحساسها بأن لى «فضلاً» عليها . . وقد زاد الأمر سوءا أنها واصلت العلاج منذ ذلك الحين بصبر وبلا كلل وبغير أن تتخلى لحظة واحدة عن الأمل فى استرداد قدرتها على الحمل والإنجاب ، وطوال السنوات الماضية كنت أراها دائما على موعد مع الطبيبة . . أو مع معمل التحاليل . . أو لأخذ حقنة وأدوية . . أو لإجراء عمليات جراحية ، وكل ذلك وهى تطالبنى من حين لآخر بألا أتحمل هذا الحرمان ، وأن أطلقها وأتزوج غيرها . . فأرفض وأكاد أصرخ فى وجهها معترفاً لها بالحقيقة المُرة . وهى أنى لست صاحب فضل عليها ، بل أنا محروم مثلها من الإنجاب ، ولا أمل لى فيه معها أو مع غيرها ، لكى تهدأ وتستريح وتهدأ أيضًا أمى وتستريح من معايرة زوجتى وكيل الشتائم لها ، ومن ترشيح عروس جديدة كل يوم لى لأتزوجها وأنجب منها ، وأملأ البيت بالأطفال كما تريد .

لقد اصطحبتها معى لأداء الحج والعمرة . . لكنى أحس بأن الله سبحانه وتعالى لم يتقبل منى لأنى إنسان مخادع أظلم زوجتى وأقابل كل هذا الحب الكبير منها بالكذب والخداع وادعاء الشهامة .

فإذا سألتنى لماذا أصارحك أنت الآن بكل ذلك . . وهل استيقظ ضميرى متأخرًا . . فإنى أجيبك بأن ضميرى متيقظ منذ البداية ، لكنه جبان . . أما ما جعلنى ألجأ إليك لأستشيرك فى أمرى فهو أن العلاج قد بدأ يُؤتى ثماره مع زوجتى ، وبدأت تستجيب له كما تقول . . وما يشغلنى الآن هو ماذا أفعل حين يتحقق لها الشفاء وتصبح قادرة على الإنجاب ؟

إننى لا أطيق مواجهة زوجتى بالحقيقة ، ولا أحتمل فى نفس الوقت فراقها . . وهو من حقها لكى تنجب من غيرى إذا أرادت ذلك ، وقد فكرت مع تحسن تحاليلها وازدياد احتمالات نجاح علاجها ، أن أختلق معها مشكلة من أى نوع ثم أطلقها لتتزوج غيرى وتنجب الأطفال ، لكنى لا أستطيع أن أفعل ذلك وهى كل حياتى ، كما أنها لن تغفر لى ما فعلت بها إن صارحتها بالحقيقة بعد كل ما تجرعته من ذل وهوان لعدة سنوات على يد أمى بسبب هذا الأمر . . فماذا أفعل يا سيدى ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

يا صديقى لقد أفسدت قصة جميلة لزوجين شابين متحابين علمًا أن الله لم يرد لهما معا الإنجاب ، فتساندا فى مواجهة الحياة وتعاطفا وازدادا امتزاجًا بعد أن تأكد كل منهما أنه الشريك المثالى لصاحبه . . ونصفه الصحيح الذى لا يكتمل إلا به . . فلماذا أفسدت هذه القصة الجميلة التى جبرت بها الأيام نقص كل منكما ؟ . . ولماذا استسلمت لنزعتك الغريبة هذه لتقمص شخصية الزوج المضحى الصابر على نقص زوجته لكى تستحوذ عليها وتتملكها وتتسيدها وتجتنى منها عطاء عرفان أنت أول من يعرف أنك لا تستحقه . ثم وأكثر من ذلك ترضى لزوجتك بمعاناة الإحساس المرير بالنقص تجاهك وهى فى غنى عنه ، وبتحمل الأذى من أهلك وفى مقدورك بشهادة حق يطالبك واجبك ودينك ألا تكتمها ، أن ترفعه عنها . . لقد قال أحد الصوفية «إن الحب هو إيثار المحبوب على نفس المحب» وأنت ياصديقى لم تؤثر من تحب على نفسك . بل ولم ترض لها بالعدل الذى تتساويان فيه معًا فى أمر لا حيلة لأحدكما فيه . . ولا عيب ، وكل ذلك لأنك توهمت خطأ أن معرفة الحقيقة تنقص من قدرك . . وتمس رجولتك ، مع أن الجميع يعرفون أنه لا علاقة فسيولوجية للرجولة أو الأنوثة بالقدرة على

الإنجـاب أو الحرمان منها، وأن ناقص الرجولة قد ينجب ومكتملها قد يكـون محـرومًـا مـن الإنجاب ، وأن كـل ذلك أقـدار مقدورة لا فضل لأحد فيها . . ولا جريرة .

ولأن كل شيء يعـرف بعـد حين . . وليست هناك خـديعـة يمكن أن تستمر للأبد ، فلقد جاء الوقت العصيب الذى لابد فيه من كشف المستور مهما أجهدنا أنفسنا فى إخفائه . وفى ذلك فإن أمامك طريقين لك أن تختار منهما ما يتوافق مع مبادئك .

الأول : هو أن تتخلص من الإثـم الذى تتحمله الآن بلا مبرر وهو إثم كتمان الشهادة والنكوص عن إنصاف مظلوم تستطيع إنصافه ، وكتمان الشهادة إثم عظيم كما تعلم ، فإذا أردت أن تتخلص من عبئه أمام ربك أولا ، فصارح زوجتك بالحقيقة كاملة ، واطلب صفحها وفهمها لضعفك البشرى ، ولعجزك عن مواجهة الموقف فى حينه بين أسرتك فى مجتمعك مع تسليمك الكامل لخطئك فى حقها وسكوتك عن معاناتها الطويلة . وخيِّرها بعد ذلك الصفح وتجاوز المرارات وبدء صفحة جديدة من حياتكما لا انكسار لأحد فيها تجاه الآخر . . ولا ادعاء للفضل أو الشهامة من طرف تجاه طرف ، ولا إذلال لها فيها من أهلك ولا معايرة ، وبين أن تنال حريتها وترى رأيها فى حياتها بملء إرادتها . . لأن إخفاء نقص جوهرى فى شريك الحياة كنقص القدرة على الإنجاب عن الآخر ، يعطيه الحق فى الانفصال عنه إذا أراده .

وفى هذه الحالة . . فإنها إما أن تصفح عنك بطبيعتها المتسامحة العطوف ، حتى ولو تغيرت النفوس لفترة تطول أو تقصر ، وعاتبتك

عتاباً مؤلماً على صمتك على إذلالها طوال السنوات الماضية، وتحملت أنت لومها وعتابها بل وغضبها وربما هجرها لك لفترة قصيرة.. ثم تبدآن بعد ذلك حياة سوية خالية من الادعاء والمن بشهامة لا مبرر لها من جانبك، ومن الانكسار ومعاناة الإحساس بالنقص.. والذل من جانبها ولا يكون فيها لأحد فضل على الآخر إلا بالحب وحسن العشرة وجميل الرعاية، وإما أن تعجز هى عن الصفح والغفران.. والتخلص من المرارة.. وتطلب الانفصال.. وفى هذه الحالة لابد أن تجيبها لما تطلب على أمل الإصلاح فى المستقبل.. أو بلا أمل إذا تمسكت بما أرادت للنهاية.

ولا عجب فى ذلك ياصديقى، لأن هناك دائماً «ثمناً» يدفعه الناس لأفعالهم، وليس من حقهم أن يتشكوا منه أو من فداحته فى بعض الأحيان.

لكنى رغم ذلك آمل أن تتجاوز زوجتك مرارتها. وتتفهم تأثير بعض تقاليد مجتمعك ونشأتك وحيداً بين شقيقات عليك فى عجزك عن مواجهة الحقيقة التى تصورت أن بها مساساً برجولتك. كما آمل ألا تفرِّط فيك وقد كانت عشرتكما فى مجموعها يظللها الحب بالرغم من خطئك فى حقها، والحب كما يقولون يا صديقى.. رب غفور ينسى الإساءة مهما عظمت بعد حين، ويصفح عن المخطئين.

أما الطريق الثانى: فهو الطريق «البراجماتى» العملى الذى يبرر الغاية بالوسيلة ويعتمده البعض فى سلوكياتهم رغم تصادمه مع المثاليات

والمبادىء وبمقتضاه تستطيع أن تجرى علاج زوجتك ، ثم «تفاجأ» بعدها بالحقيقة «القاسية» ، وتشرك زوجتك فيها وتستمتع بمواساتها وتعاطفها معك ، وتواصل خداع نفسك وخداعها . وفى هذه الحالة فإن زوجتك سوف تتخلص أيضاً من انكسارها وروحها الذليلة . . لكنك لن تتخلص أنت من وزر ظلمك السابق لها . . ولن تستريح من وخز الضمير بل ولن تستمتع بحياتك معها استمتاعًا صافيا لأن الضمير كما يقول الروائى الأمريكى تيودور درايرز «إذا لم يمنع الإنسان أحياناً من ارتكاب الخطيئة ، فإنه أبداً لا يسمح له بالاستمتاع بها» .

ولهذا فإني أنصحك بالطريق الأول . . مهما كانت تبعاته ، لأنه طريق الصحة النفسية ولأن الخديعة هى أضعف أساس لبنيان الحياة الزوجية ، ولأنك تنال به عفو ربك قبل أن تطمح لعفو زوجتك ، ولأن راحة القلب لا تتأتى إلا براحة الضمير وتخلصه مما يؤرقه ، فتحمَّل أقدارك بشجاعة وتخلَّص من هذا القيد الذى ينغص عليك صفو الحياة ، ولن تكون النتائج فى النهاية أفظع من أن تحتمل ، فحتى لو لم يصفُ لك قلب زوجتك ، فإنك تستطيع أن تبدأ حياتك مع غيرها إذا أرادت ذلك بلا خديعة . . ولا إحساس بالنقص . . ولا تعذيب للضمير . . وظنى بعد كل ذلك أن زوجتك لن تضحى بك . . لكنها فقط ستتخلص من أسْر الشعور بالدونية . . والانكسار ، وماذا يضيرك فى ذلك والإنسان لا يسعد حقا بمشاركة من يشاركه الحياة عن قهر وقلة حيلة وانعدام للبديل . . وإنما يسعد بمن يشاركه حياته عن إرادة حرة وثقة واختيار .

إن هذا هو ما أختاره لك يا صديقى . . أما التشكِّى من وخز الضمير بلا تحرك للتخلص مما يؤرقه فهو ما ينطبق عليه قول ابن المقفع :

لا يتم حسن الكلام إلا بحسن العمل ، كالمريض الذى علم دواء نفسه ثم لم يتداوَ به ، فلم يُغنه علمه بالدواء عن مرضه شيئاً !

وأنت قد علمت دواءك يا صديقى فلماذا لا تتداوى به وتتحمل مراراته على أمل السعادة وراحة الضمير إلى آخر العمر إن شاء الله ؟؟

لا أعرف لماذا أكتب إليك ولا ماذا أريد منك ، لكنى أحس بأنك قريب منى بشكل ما ، وأنك ستعطينى من اهتمامك وفهمك ما قد لا أجد حولى ، فأنا شاب أو رجل فى الثانية والأربعين من عمرى نشأت بين أبوين طيبين ، وتخرجت فى إحدى الكليات وساعدتنى الظروف على العمل بهيئة عامة مرموقة ، وكان أبى بعيد النظر . . فاقتطع من قوته ما دفعه كمقدم بسيط لشقتين تمليك لى ولأخى الوحيد فى منطقة كانت وقتها نائية فى المعادى ، وظل يدفع أقساطها بصبر وجلد إلى أن تخرجنا وعملنا وتحمَّلنا عنه عبء باقى الأقساط ، وشكرنا له نحن ذلك وتعاونا معه على جهاز شقيقتنا الوحيدة حين تزوجت ، ونجحنا بفضل الله وبالحب الذى يجمع بيننا فى أن نزفَّها إلى زوجها بأفضل مما تسمح به إمكانياتنا ، ويكفى أن أقول لك إننى وشقيقى ظللنا ثلاث سنوات بعد عقد قرانها ندفع مع أبى أقساط الأثاث والديون ، ولايبقى لى ولشقيقى من مرتباتنا سوى تكاليف المواصلات وربما ثمن الشاى والقهوة ولم يشعر أحد من الأهل والأقارب بما نحن فيه من ضيق وتكفينا سعادة أختى مع زوجها الفاضل ونظرة الحب والعرفان فى عينيها واهتمامها بنا ، ودعوات أبى وأمى لنا فى الغدْوة والرَّوحة ، واطمئنان ضميرنا إلى أننا قد أدينا واجبنا . ثم خطب أخى شقيقة أحد أصدقائنا ، وفعلت معه ما فعلت مع شقيقتى من قبله فظللت لمدة عامين أسلمه مرتبى أول

الشهـر ما عدا مبلغًا بسيطاً للمواصلات والنثريات ، وهـو يكـتب كل ما يأخذه منى فى «النوتة» لأنـه كما قال ليس مسئولاً منى كشقيقتنا ، وإنما هـى ديون سوف يؤديها إلىَّ حين ميْسرة ، وتزوج شقيقى وهو فى السابعة والعشرين وسعد بحياته الجديدة ، وأكرمنى الله بعمل إضافى فى شركة خاصة فدرَّ علىّ أكثر من ضعف مرتبى من الوظيفة وعوَّضنى عن الحرمان الذى تحملته خلال السنوات الماضية ، وأراد أخى بعد زواجه بعام أن يبدأ فى تسديد دينه لى فرفضت لأن زوجته حامل وطلبت منه أن يدخر ذلك إلى أن أتزوج وأحتاج إليه . . فسألنى : ومتى تتزوج يا أخى؟ ووجدت نفسى أتأمل السؤال نعم لماذا لم أتزوج وقد قاربت الثلاثين؟ لقد أمضيت سنوات الجامعة والعمل بغير أن تكون لى أى تجربة عاطفية رغم شخصيتى الاجتماعية وروحى المرحة . ولقد تقرَّبتْ منى أكثر من زميلة خلال الدراسة وبعد العمل ، لكنى لم أتجاوب مع إحداهن وحين تزوج شقيقى الأصغر أحس أبى وأمى بالقلق تجاهى ، وعرضا علىَّ أكثر من فتاة مناسبة ، فكنت أرى كل فتاة وأحس بأن قلبى صندوق مغلق أمامها فأعتذر إلى أن يئسا منى . وازداد انشغالى بعملى بالشركة الخاصة وتضاعف دخلى منه فحصلت على أجازة دون مرتب من وظيفتى وتفرغت له . . ، وكان عملى هذا يفرض علىَّ إنهاء بعض المعاملات مع جهات مختلفة ، فكان الله يعيننى على إنهائها بحسن تعاملى مع الناس وكثرة أصدقائى واستعدادى الدائم لخدمة الآخرين ، وكلما وفقنى الله فى إنهاء معاملة صعبة كافأنى عليها صاحب الشركة مكافأة مالية كبيرة وعلا قدرى عنده حتى أصبحت خلال عدة سنوات رئيسًا لإحدى

إدارات الشركة . وتحسَّنت أحوالى المالية واشتريت سيارة صغيرة . . وبدأت فى إعداد شقتى الخالية بالمنطقة التى كانت نائية استعداداً ليوم أتزوج فيه .

وبلغت الثلاثين ولم ينفتح بعد الصندوق المغلق لأية فتاة ، ثم أرسلنى صاحب العمل لإنهاء معاملة مهمة فى إحدى الهيئات العامة المرموقة ، فلاحظت تعنت المسئول الأكبر عنها فى تعقيدها رغم وضوح الحق فيها .

وكنت أنهى معاملاتى ببركة دعاء الوالدين وبالمجاملات والخدمات البريئة لمن يساعدنى فيها . . أما الرشوة فلا وألف لا . وحين شممْت فى الحكاية رائحة غير مريحة رجعت إلى صاحب العمل وطالبته بأن يتحرى حقيقة الأمر مع هذا المسئول أو يوكله إلى غيرى .

وأعفانى الرجل مشكوراً من المهمة . . ونسيتها . . وبعد نحو شهرين فوجئت بصاحب الشركة يستدعينى إلى مكتبه ، ويقدم لى فتاة تجلس أمامه بشىء من الكبرياء ويقول لى إنها موظفة جديدة فى إدارتى ويطلب منى تعليمها والاهتمام بها ، فرحبت بها وطلبت منها النهوض معى فخرجت واستبقانى صاحب الشركة ليعطينى فكرة سريعة عنها . . فإذا به يقول لى إن هذه الفتاة هى «الأمر» الذى شككت أنا فيه عندما تعسَّرت فى إنهاء تلك المعاملة مع الهيئة السيادية الكبرى منذ شهرين ، فهى ابنة المسئول الكبير عنها وقد أراد تعيينها وتم ذلك وبمرتب مضاعف ، لكنها مدللة وعصبية وقد تشاجرت مع رئيسها فرشَّحها للعمل معى لما يعرف

عنى من طول بال وصبر إلى أن تنتهى معاملاتنا مع تلك الهيئة أو يُحال رئيسها إلى المعاش قريباً فيفقد قدرته على عرقلة أعمالنا!

وعدت لمكتبى . . واستدعيت الفتاة وتلطفت معها فى الحديث واخترت لها عملاً سهلاً.

وبعد يومين أو ثلاثة فوجئت بها تدخل علىّ ثائرة ، لأن أحد الزملاء «أهانها» وأبدى ملاحظة على عدم دقتها فى العمل . . فردَّت له الصاع صاعين ولفت نظرها بحزم إلى أنه لايصح لها أن تجيب بهذه العصبية على زميلها فانصرفت غاضبة ، ولم آبه لها ولاحظت أنها فضلاً عن جرأتها وشراستها مع الزملاء غير ملتزمة بمواعيد العمل ، وكنت أعرف أنه لا فائدة من أن أشكوها لصاحب العمل ، لأنه لن يتخذ ضدها أى إجراء للأسباب المعروفة ، فحاولت أن أحافظ على نظام العمل بأن ألومها بحزم على عدم الالتزام بالمواعيد فتلتزم أياماً ثم تعود للاستهتار ، إلى أن وجدت نفسى ذات مرة أكاد أرجوها أن تلتزم بالمواعيد مراعاة لعدم إحراجى شخصيًا وحتى لا تثير حقد الزملاء المطحونين عليها . . ففوجئت بها تقول لى بجرأة علشان خاطرك أنت بس . . واحمرَّ وجهى، أما هى فلم يهتز لها رمش ثم غادرت مكتبى وهى تشير لى بيدها كما يفعل الأصدقاء فى النادى . . هاى!

ومنذ ذلك اليوم أصبحت أول من يحضر إلى المكتب . . وآخر من يغادره وبالتزام مثالى بمواعيد العمل . . وبما يطلب منها أداؤه وحمدت الله أن استطعت حل مشكلتها ، لكنى بدأت أشعر بأن مشكلتها مع العمل قد انتقلت إلى مكان آخر . . هو ذلك الصندوق المغلق الذى لم

ينفتح لفتاة قبلها فلقد أحببتها واعترفت لنفسى بذلك بعد إنكار واستنكار طويل ، فهى من وسط عائلى ينتسب أو يدَّعى الانتساب لأهل النفوذ والسطوة فى المجتمع ، وأنا من وسط عائلى عادى لا يعرف القوة ولا النفوذ وهى جريئة عنيدة مدللة . . قوية الإرادة إلى حد مخيف . . ترتدى مايروق لها من ملابس ولا يهمها رأى الآخرين فيها وتفعل ما تشاء حين تشاء بلا تردد ، وطموحها بلا حدود وأنا شاب بسيط خجول متدين باعتدال ، أبى مدير بالمعاش وأمى جامعية قديمة ودنياى بسيطة وهادئة . .

لكن الصندوق المغلق انفتح ياسيدى على مصراعيه ، فقد جاءتنى بعد فترة وسألتنى عن رأيى فى التزامها فى العمل ، فأجبتها بأنى مذهول لاستجابتها فقالت لى ببساطة : هكذا أنا دائمًا لا يستطيع أحد أن يفرض علىَّ شيئا إلا بالحب . . وأنا أحببتك !

ووجدت نفسى غارقاً فى هذه القصة التى لم أتوقعها ذات يوم . وعرضت عليها كل ظروفى ومخاوفى من الفروق الاجتماعية الكثيرة بينى وبينها وبين طريقتى فى الحياة وطريقتها . . فهزأت بكل شىء وأكدت لى أن الحب يهد الجبال .

واستشرت صديقى الأول وهو شقيقى فغاب عنى أسبوعاً أو أكثر وجاءنى بنتيجة استقصائه عنها ، وكانت خلاصة رأيه بعد التحريات أنها لا تصلح لى ليس فقط للفروق الاجتماعية بيننا وشخصيتها الجريئة . . ولكن لأنها أيضا متقلبة المشاعر ولها عدة تجارب عاطفية سابقة بدأت كلها من جانبها وانتهت كلها من جانبها أيضًا !

ونصحني شقيقي بالابتعاد عنها . . ولكن هيهات للغريق أن ينجو من قدر محتوم ، فسرْتُ في طريقي ورغم تحفظ أبي وأمي وشقيقتي بتأثير أخي إلا أن الجميعَ تمنوا لي السعادة مخلصين . . وبدأت خطوات الزواج وعانيت من صلف والد فتاتي وأمها مالم أكن أتصور أني سأواجهه ذات يوم ، وفوجئت بمطالب تعجيزية من جانب أبويها رغم وقوف فتاتي في صفي . . واستنفدت كل ما ادخرته وأنجدني شقيقي برد دينه وزاد عليه إقراضي مبلغاً كبيراً وتعاون أهلي معي في الحفاظ على مظهري أمام أسرة فتاتي التي بدا من الواضح أنها لم ترحب بي .

وتزوجنا والحمد لله في شقة المعادي . ونهلت من نبع السعادة البكر التي لم أعرفها من قبل ، وبدلاً من أن ينتهز صاحب الشركة فرصة انتهاء معاملاتنا مع الهيئة التي يعمل بها والد زوجتي لمضايقتها في العمل حتى تضطر للاستقالة من نفسها كما هو المتبع في مثل هذه الحالة إذا لم تكن مفيدة للعمل ، أصدر قراراً بزيادة مرتبها إكرامًا لي ونقلها لإدارة أخرى في موقع آخر .

وبعد عامين أنجبت حبيبتي طفلنا الأول ومضت الحياة حلوة جميلة . . حتى رغم «غلاسة» صهري وتكبر بعض أهل زوجتي بلا مبرر وتذكرت تحذيرات المحذرين وحمدت الله أنها لم تصح .

وبعد انتهاء أجازة الولادة عادت زوجتي للعمل ، وبعد فترة لاحظت أنها ضيِّقة الصدر برعاية طفلنا مع ظروف عملها فعرضت عليها أن ندعه لأمي وأبي بعض الوقت ، فرحبت بذلك وأصبح الطفل يمضي كل أيام الأسبوع في رعاية أمي ولا تستعيده زوجتي إلا يوم العطلة . . وبعد فترة

أخرى بدأت أسمع من زوجتى للمرة الأولى تأففًا من ضيق معيشتنا رغم أننى أضع كل ما أكسبه من عملى وهو كثير فى يدها .

وضاعفت من ساعات عملى حتى أصبحت لاأكاد أتوقف عن العمل لأحصل على دخل أكبر ومكافآت أكثر ، وكلما حصلت على مبلغ جديد أسرعت به إلى زوجتى الحبيبة لعلها ترضى . وحدث بيننا نقاش بسيط لم أقل فيه سوى أننى لا أدخر جهدا لكى أكسب كل ما أستطيع كسبه من حلال لأوفر لها الحياة التى تريدها ، فإذا بزوجتى تغضب لذلك وتترك البيت إلى بيت أبيها بحجة أنها تحتاج إلى فترة لإراحة أعصابها ، وسألتها إن كانت تفضل أن تصطحب معها ابننا فرأت إبقاءه مع أبوىَّ ، وعُدْتُ إلى بيت أبى وأمى واكتشفت أنى محرومٌ من رؤية ابنى معظم الوقت فالتصقت به وبدأت أؤدى له كل ما يحتاج إليه من شئون ، وأنام وأنا أحتضنه . . ومضى أسبوع ثم أسبوعان . . وكاد الشهر ينتهى ولم يجتمع شملنا بعد ، وكنت خلال ذلك أتصل بها وأزورها من حين لآخر فأجدها مرات ولا أجدها مرات أخرى . .

ثم عادت بعد شهر كامل . . وعدنا لحياتنا معا مع اختلاف واحد هو أنى أصررت على عودة طفلنا إلينا لأنى لم أعد أحتمل بُعده عنى ، ووافقت زوجتى على مضض بعد أن أكدت لها أنى سأقوم بكل شئونه . . ولم أقصر فى إرضاء زوجتى . . لكنى أحسست رغم ذلك أن شيئًا ما فى روحها قد تغير إلى الأبد . . فهى واجمة معظم الأوقات . . شديدة العصبية . . لاتكاد تتحمل مداعبة طفلها لها أو صوت بكائه إذا بكى ،

كما أنها أصبحت تنفر من اقترابى منها ، وطلبت منى أن أنام مع الطفل فى غرفته لأرعاه فى الليل بدلا منها لأن أعصابها مرهقة !

وكل ذلك وزوجتى ترضى أحيانا قليلة فتبهج أيامى بقدرتها السحرية على خلق السعادة حين تريد ذلك ، وترجع إلى صمتها ووجومها فى معظم الأحيان . . فأعود للانزواء مع ابنى فى غرفتنا ننتظر الفرج من السماء !

وشيئًا فشيئًا لاحظت كثرة خروجها منفردة . . وكثرة تليفوناتها الغامضة واختفاءها من العمل فى فترات كثيرة مع عدم وجودها فى بيت أسرتها . . وبدأ الشك يساورنى تجاهها فبدأت أراقبها وأنا أدعو الله أن يُخيب فيها سوء الظن . . ولاحظت ملاحظات مؤلمة أحالت نهارى إلى جحيم وليلى إلى عذاب طويل ، وصارحتها بشكوكى وملاحظاتى على أمل أن تطمئن قلبى وتنفيها لأستريح . . فهاجت هياجًا مدويًا أتبعته بترك البيت غاضبة . وانحنيت على ابنى الوليد المحروم من أمه منذ ولادته تقريباً وأفرغت فيه عاطفتى المكبوتة ، وفوجئت بعودتها بعد أسبوعين على غير انتظار ، غاضبة أيضا كما خرجت وترفض مجرد الحديث معى، وزادت شكوكى لأنها شديدة الكبرياء ولابد أن وراء عودتها من تلْقاء نفسها أمراً لا أعرفه وبدأت أضيِّق عليها الخناق فى الخروج ليلا ، وَذات صباح خرجت إلى العمل وكانت منذ نقلها إلى موقع آخر قد اشترت بمساعدتى سيارة صغيرة قديمة لتذهب بها إلى عملها ، فركبت سيارتها . . ونزلت بعدها بدقائق وركبت سيارتى وتابعتها عن بعد ففوجئت بها تسير فى طريق بعيد عن طريق عملها ثم رأيتها تتوقف فى

شارع خال من المارة ثم تنزل من سيارتها وتغلقها وتتجه إلى سيارة أخرى واقفة بجوارها ويجلس فيها شاب لا أعرفه ثم ركبت بجواره وبدأ يتحرك بالسيارة وهما يتبادلان الضحك والابتسام والنظرات الرقيقة وهي تسوى له شعره وهو يضع يده على شعرها ويداعبها بيده في خدها وهي ترد له المداعبة وانتهزا فرصة خلو الشارع من المارة في الصباح وتبادلا قبلة سريعة ، ففقدت كل ما تبقى لي من عقل ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ بأعلى قوتي وأنا في سيارتي وأبكي دون وعي ولا إرادة وأندفع تجاههما أريد أن أصدمهما وأموت ويموتان معي ، ولست أعرف ماذا حدث على وجه الدقة وقتها ، فلقد اندفعت إليهما فأحسا بي ورأتني زوجتي فصرخت . . وتفادى الوغد صدمتي لاأعرف كيف فصدمت الحائط وغبت عن الوعي ، وحين أفقت وجدت نفسي في المستشفى القريب وبجواري أبي وشقيقي . . ولم أصب بشيء خطير فلقد غبت عن الوعي من الصدمة العاطفية وليس من صدمة السيارة ، وعدت مع أبي وشقيقي لبيتي وأنا أحس بالانكسار والخزي والعار واحتضنت ابني الصغير وبكيت بمرارة . وحصلت على أجازة من العمل واعتصمت بالبيت لا أريد أن أغادره حتى لا أرى أحداً ولا يراني أحد . . ولم يسألني أحد من أسرتي عن زوجتي الغائبة لكنهم أحسوا بأن هناك شيئًا يتعلق بها . وبعد 3 أيام من جلوسي صامتًا محتضنًا ابني في صدري معظم ساعات النهار والليل صارحت أبي وشقيقي بالحقيقة المرة ، وهي أنه لم تعد لي حياة مع هذه الزوجة التي تفانيت في حبها ورعايتها وإرضائها . . فغدرت بي وأحالت حياتي إلى جحيم . وقلت لأبي إني مستعد

لإعطائها كل ما تريد إلا شيئًا واحداً هو ابنى لأنها لم تكن له فى يوم من الأيام أمًا ولن تكون . وطلقتها وأعطيتها مختلف حقوقها ما عدا حضانة الطفل . وبدأ أبوها يهددنى ويستخدم نفوذه فى استدعائى كل يوم إلى قسم الشرطة . . بتهمة خطف ابنى . وبدا «الآخر» شريك واقعة السيارة وهو من أهل النفوذ أيضاً يستعرض عضلاته أمام شريكته فى الجرم المشهود ، وبدأ يتفنن فى تلفيق التهم لى لتنغيص حياتى وإجبارى على الخضوخ لها لكنى صمدت لكل ذلك . . وأصبحت كالمطارد أتنقل مع ابنى بين شقق الأهل والأصدقاء حتى إذا جاءت الشرطة إلى بيتى لم تجدنى ولم تجد الطفل ، وعلى هذه الحال عشت عامين طويلين بعت خلالهما شقة الزوجة المنهارة واشتريت شقة أخرى فى حى بعيد ، وتوفى أبى رحمه الله خلال فترة المطاردة فبكيته بالدمع السخين ، وضمَمْت أمى إلى مسكنى الجديد مع ابنى ، ثم هدأت الزوابع حولى لأن زوجتى السابقة تزوجت ذلك الشخص الآخر ، ففقدت حماسها لاسترداد ابنها مؤقتًا ، وخاصة أن مشاعرها كأم كانت أصلاً ضعيفة لكن زواجها لم يطل سوى ستة شهور شهدت كثيراً من الزوابع فقد اصطدمت طبيعتها العنيدة الأنانية المدللة مع طبيعة أشد منها عناداً وصلفًا ، فلم يستريحا يومًا واحداً وتضاربا عدة مرات وتشاكيا للشرطة . . وشكته إلى رئاسته بعد أن أثخنها ذات مرة بالضرب وبالحزام ، فنقلته رئاسته إلى منطقة نائية ثم طلَّقها بعد منازعات مخجلة . فعادت تنازعنى فى حضانة الطفل وعدت مرة أخرى لاستدعاءات الشرطة والمحاكم لمدة عام آخر . . ثم هدأت العاصفة من جديد . . لأنها تصالحت مع زوجها الثانى فاشترط عليها

ألا تضم إليها ابنها . ومازالت الزيجة الثانية مستمرة بينهما منذ عامين لم يتخللها والحمد لله أية أزمات سوى طلاق آخر والعودة بعده بشهور بحيث لم يبق لهما إلا طلاق واحد أدعو الله ألا يتم لكيلا «تتذكر» فجأة أن لها ابنا وتبحث عنه . ومع أن ذلك لم يعد يخيفنى لأن فترة حضانتها له أوشكت على الانتهاء بعد أسابيع .

وأنا ياسيدى أعيش مع ابنى هذا وحيدين بعد أن رحلت أمى أيضا إلى رحمة مولاها راضية عنى وداعية لى بالسعادة التى حُرمت منها . . وقد رتَّبْتُ حياتى بحيث أكرسها كلها لهذا الطفل المحروم الذى لم يشعر يوما بعطف أمه عليه أو بحنانها ، فأصبحت أعود من عملى قبل عودته من المدرسة وأقوم له بكل ما يحتاج إليه من شئون من طعام إلى حمام إلى غسيل ملابس إلى ألعاب إلى أى شيء يحتاج إليه ، وفى المساء أذاكر له دروسه وأؤدى معه كل ما يريده من ألعاب ، فإذا اضطرنى عملى للخروج إلى موعد عمل مسائى دخلت إلى المكتب الذى أقصده وابنى فى يدى وأغادره وهو فى يدى لأنى أخشى أن أتركه فى السيارة . . فيحدث ما يمكن أن يفقدنى ما بقى لى من عقل وحياة ، فابنى هذا هو حياتى . . وقد وهبه الله شكلاً جميلاً وروحًا طيبة وادعة . . تنفذ إلى القلوب وطبيعة هادئة وهو لايسألنى عن أمه أبداً ، وأتجنب بالطبع الحديث المؤلم عنها ، وأنتظر الشهور الباقية من انتهاء سن حضانتها له لأسمح لها برؤيته فى مواعيد مناسبة وإن كنت أشك فى أنها سوف تهتم بذلك .

وقد مضت الآن ست سنوات تقريباً على المحنة التى عشتها خلت خلالها الدُّنيا من أبى وأمى ، ولم يبق لى من دنياى القديمة سوى شقيقى

وشقيقتى وابنى الوحيد ، وشقيقى وشقيقتى يلحان علىّ بأن أنسى ما حدث وأتزوج من جديد . . لأمنح ابنى المحروم أماً أخرى بعد أن حُرم من أمه الأولى وإخوة يتساند عليهم فى الحياة . وأنا أستجيب أحيانا لهذه الفكرة ، لكنى أعود فأفزع منها حين أتذكر صورتى وأنا أصرخ داخل السيارة وأندفع بها فى عمل جنونى لأصدم الغادرة والغادر اللذين طعنا قلبى ورجولتى فى الصميم . . إننى أنام كل ليلة محتضنًا ابنى وأفكر هل اختارت لنا الأقدار أن نمضى حياتنا وحيدين معًا للنهاية ؟ إننى أعرف أن الخير كما تقول دائمًا فى ردودك هو الأصل فى الحياة وأن الشر هو الاستثناء المفزع ، وأن الفاضلات هن الأغلبية العظمى ، لكننى أعرف أيضًا أن الخيانة قاسية جداً ياسيدى ولا أريد أن أسترجع مرارتها مرة أخرى . . فبماذا تنصحنى أن أفعل ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

أنت يا صديقي تعرف كل ما يمكن أن يقال في مثل هذه الظروف، لكنك رغم ذلك مشفق على نفسك من تكرار المحنة الأليمة ، وفي البداية لابد أن أقول لك إن مخاوفك هذه منطقية من الناحية النفسية ، لأن الخبرة المؤلمة التي نتعرض لها تزيدنا إشفاقاً على أنفسنا من احتمال تكرارها أو احتمال تعرضنا لها مرة أخرى . لكن هذه المخاوف ليست منطقية من الناحية العملية ، لأنه ليس من العدل أن نحكم على النوع الإنساني كله بتجربتنا الشخصية مع أحد أفراده أو بعضهم ، كما أنه ليس من المنطق أيضا أن نتصور أننا سنلقى دائمًا سوء الجزاء ممن نأمن إليهم ولا نحمل لهم إلا الحب والوفاء .

ذلك أن لكل تجربة إنسانية ظروفها الخاصة والعوامل التي أسهمت في إنجاحها أو فشلها ، ولا شك أن تجربتك مع زوجتك السابقة كانت مرشحة للفشل منذ البداية لاختلاف الطبائع واختلاف عالم كل منكما وطابع شخصيته عن الآخر . . ولجرأة فتاتك على الاقتحام والانسحاب أو بدء العلاقات وإنهائها بقسوة كما قيل لك بوضوح قبل الزواج ، ولكن «هيهات للغريق أن ينجو من قدر محتوم» كما قلت أنت صادقًا في

رسـالتك . إذن فسـوء الاختـيـار من البـداية هـو المسئـول عن النهـاية المأساوية وليس أى شـىء آخر ، ولا شك أن الإغراق فى الحب لايسمح لإنسان باتخاذ القرار السليم بشأن من يحب أو بتقييمه التقييم الصحيح ، لهـذا فـإن الحب «المبـصر» أكـثر قـدرة على الاخـتـيـار السليـم من الحب «الأعمى» الذى تغيب معه كل القدرة الواعية على التقييم الصحيح . والحياة تصحح أخطاءها بطريقة تدريجية أحيانا فتفرق بين من لم يكن منطقيا أن يلتقوا من الأصل ، وتجمع بين من كان ينبغى أن تجمع بينهم من البداية وكل ما يأمله المرء هو ألا يكون لهذا التصحيح ضحايا أو آلام تجلُّ عن الاحتمال كآلام تجربتك هـذه . . ولاشـك أن زوجتك السابقة لم تكن تصلح لك ولا كنت تصلح لهـا ، لكن الكارثة الإنسانية تبـدأ حين يصر الإنسان على أن يُخالف كل القواعد والأعراف والأصول المتبعة بدعوى أن «القاعدة الذهبية هى أنه ليست هناك قاعدة عامة لأى شىء» كما قال ساخرا ذات مرة برنارد شو . . أو بدعوى أن الحب وحده قادر على أن يهدَّ الجبال كما قالت لـك فتاتك فى البداية ، مع أنـه لـم يثبت حتى الآن أنه وحده قادر للنهاية على حل دائم لمشكلة كمشكلة تنافر الطباع !

والمؤكد أن زوجتك تستحق ذلك «الآخر» كما يستحقها وأن كلاً منهما هو جائزة الآخر أو «عقابه» بمعنى أصح . . ولكل شىء آفة من جنسه !

ولست أدرى بعد كل ذلك سبباً لتخوفك من تكرار تجربة الزواج رغم حاجتك النفسية والعاطفية إليه . فالحياة لن تكون دائما رحلة متواصلة

من العثرات والمحن ياصديقى . وسوء الحظ الذى صادفك فى هذه التجربة ليس منطقيًا أن يتكرر بنفس التفاصيل ، لأنك فى النهاية لست مستهدفاً من الأقدار بحيث تخصك بأن تضع فى طريقك وحدك الغادرات والعابثات ، وإنما هى محنة طارئة عبرت بك كما عبرت بغيرك المحن والخطوب . . وقد صبرت أنت لها إلى أن داوى الزمن جرحك . .

وأصبحت الآن مؤهلاً لأن تستجيب من جديد لنداء الحياة . . فلماذا الخوف والتردد يا صديقى . . ولماذا تحرم إنسانة فاضلة من حقها العادل فى الحياة بإحجامك أنت عن تكرار تجربة الزواج وربما كنت أنت قدرها المقدور ؟

فحذار من أن تسمح للشك وسوء الظن بأن يحكما نظرتك للجنس الآخر أو لأى شىء فى الحياة ، وإلا عجزت عن أن تحيا حياة طبيعية ذات يوم ، فحسن الظن بالحياة وبالبشر من كمال التوافق النفسى الذى يرشح الإنسان للسعادة والتوافق مع الآخرين ، فلا تفقد حسن ظنك بالحياة لمجرد أن غادرة قد وقعت فى طريقك ولا تستشعر الخزى أو العار من جراء ذلك . العار الحقيقى إنما هو عار الغادر وليس عار المغدور به . واعلم أن الخيانة ضد طبيعة الإنسان السوىّ رجلا كان أم امرأة لأنها خروج على المألوف فاطمئن للغد . . واختر لنفسك ذات الدين والضمير والرحمة تأمن على نفسك وعلى ولدك دائما بإذن الله .

أثارت مواجعي رسالة «الصندوق المغلق» التي روى لك فيها شاب قصة فجيعته في وفاء زوجته الشابة له ، وكيف يعيش وحيداً مع ابنه الذي يتعزى به عن الوفاء المفقود ، فقررت أن أروي لك أنا أيضا قصتي ، منذ 23 عاماً رأيت زوجتي للمرة الأولى وأعجبت بها وتقدمت لخطبتها وتزوجنا وعشْنا في سعادة خالصة إلى أن حملت وأنجبت ابننا ، وللأسف فقَد أخطأ الطبيب المولِّد وترك في بطنها فوطة من الشاش ، فعانت بسببها من مضاعفات عديدة في المعدة ، واستمر علاجها عدة شهور واحتاجت هي لأكثر من جراحة أخرى إلى أن شفيت من المضاعفات ولكن بثمن باهظ هو عدم قدرتها على الحمل مرة أخرى .

وخلال تلك الفترة العصيبة التي أرهقتنا نفسياً ومادياً تُوفي والد زوجتي ، واستطاع مالك البيت بطريقة ما الحصول على حكم بطرد أمها وإخوتها الصغار من شقتهم ، فوجدت نفسي بصفتي زوجًا للابنة الكبيرة مسئولاً عنهم رغم ضآلة مرتبي ومرتب زوجتي ، واستضفتهم جميعاً في شقتنا ، وواجهت مشاكل عديدة مع صاحب البيت الذي أُقيم فيه والذي تصور أني أؤجر لهم شقتي من الباطن ، ورتب ذلك علينا أعباء مادية إضافية ، إلى جانب ما نعانيه من الظروف الأخرى ، لكننا تمكنا والحمد لله من مواجهة مشاكل صاحب البيت ، ومضت بنا الحياة إلى أن تزوج الابن الذي يلي زوجتي في السن ، وبقيت

معنا أمها وشقيقها الأصغر ، ثم تزوج الابن الأصغر بعد عدة سنوات وبقيت معنا الأم ، ولم أفكر لحظة فى لوم أحدهما لتركه أمه معنا رغم سعة مسكنه ورزقه ، وإنما قدرت أن لكل إنسان ظروفه ورضيت بحياتنا، وخلال تلك السنوات كنت قد شجعت زوجتى على استكمال تعليمها المتوسط لكى تنسى ظروفها المرضية مع ما ترتب على ذلك من أعباء مادية ونفسية أخرى كحضور زملائها بالعمل والمعهد للبيت لاستذكار الدروس معها وخلافه ، وحصلت زوجتى على بكالوريوس المعهد، وتمكنت بفضل الله من نقلها إلى عمل أفضل بإحدى الهيئات مما جعل مرتبها يزيد على مرتبى ، لكنى بعد قليل سافرت للعمل بإحدى الدول العربية فزاد رزقنا واشتريت لها أشياء كثيرة واستطعت تعويضها عن كل الظروف السابقة ، واغتربت ست سنوات عُدْتُ بعدها واشتريت شقة تمليك وسيارة ، وطلبت منى زوجتى إعادة تأثيثها بأثاث لائق ، فبعْتُ السيارة واشتريت أثاثًا جديداً وكتبته باسمها دون أن تطلب منى ذلكَ. وواصلنا حياتنا إلى أن جاء يوم فوجئت بها تطلب منى أن أكتب الشقة باسمها أيضًا. ولم أجد مبرراً منطقيًا لهذا الطلب فرفضت ففوجئت بها تطلب الطلاق ! وتعجبت لهذا الطلب وفهمت أنها محاولة للضغط عليَّ للاستجابة لطلبها . . إذ ليس من المعقول أن تكون زوجتى جادة فى طلب الطلاق بعد 23 سنة من زواجنا وبعد أن تخرج ابننا الوحيد من معهده وخطبنا له زميلته التى ارتبط بها . لكنها واصلت مطالبتى بالطلاق بإلحاح غريب وصاحب ذلك مضايقات واستفزازات عجيبة . . وفُجعْتُ فى أمها وشقيقها الأصغر اللذين رافقانا معظم سنوات الرحلة فىَ مسكن

واحد حين وجدتهما يؤيدانها فى مطلبها . وفى إحدى نوبات الاستفزاز استجبت لطلبها وطلقتها، ولكنى طلبت منها عدم مغادرة المسكن وإعطاء نفسها مهلة للتفكير برويَّة فى حياتنا، فليس من المعقول أن تنهار حياة زوجية بهذا الشكل المفاجىء بعد 23 عاماً من العشْرة ، وتركت للأيام تهدئة الخواطر الثائرة والانفعالات المؤقتة ثم انتهت شهور العدة وعدت ذات يوم من عملى إلى البيت فلم أجدها فى الشقة. . ولم أجد فى الشقة نفسها من الأثاث سوى الفراغ والخواء والصمت ، فوجئت بأن زوجتى قد حملت الأثاث الذى اشتريته باسمها وتوجَّهت إلى مسكن شقيقها الأصغر ، واستعدت توازنى بعد قليل وتوجهت إليها عنده وطلبت منها أن تعود إلى بيتها. . فأبت العودة إلا إذا كتبت الشقة باسمها. وتألمت لذلك ألمًا شديداً . . وتعجبت منها كيف هان عليها أن تتركنى وابنها وحدنا فى شقة على البلاط فى عز برد الشتاء دون أن تفكر فى متاعبنا أو حياتنا فيها ، وانصرفت حزينًا وعشت مع ابنى فى الشقة الخالية على البلاط نواجه متاعب حياتنا الجديدة . . وبعد فترة علمت أنها قد دخلت المستشفى لإجراء جراحة جديدة لفك التصاقات بالمعدة فتوجهت لزيارتها بالمستشفى وتمنيت لها الشفاء ورجوتها أن تعود لبيتها بعد كل ما حدث . فرفضت بإصرار ، وانصرفت حزينًا وأنا أفكر هل تساوى الشقة كل هذا العناد . . وكل هذه الآلام. وأين مكان ابننا الوحيد من قلب أمه وعقلها فى كل ذلك؟ ولم أصل لإجابة شافية عن تساؤلاتى، لكنى علمت بعد أيام بخبر عجيب هو أن أحد زملاء زوجتى بالعمل قد تقدم لخطبتها وأنها وافقت عليه. . ولم أصدق الخبر فى البداية

ثم تأكدت منه فتوجهت إليها فى بيت شقيقها ودعوتها من جديد للعودة للبيت وفتح صفحة جديدة فى حياتنا الزوجية ، فلم تقبل بل ورفضت أيضاً أمها وشقيقها الأصغر سامحهما الله . وسكت ذاهلاً لحظات ثم سألتها عن الخبر العجيب الذى سمعته ، فإذا بها تؤكده لى وتضيف عليه أنها سوف تتزوج قريباً وأن زوج المستقبل سوف يكتب لها شقة باسمها! وتساءلت : وماذا عن ابنك الوحيد ياسيدتى ؟ فأجابت بأنه قد كبر الآن وسوف يتزوج ويصبح له بيت ذات يوم . . وسوف «يفهم» موقفها جيداً ولن تتأثر علاقتها به . وتأكدت من أنه لا أمل فى محاولة تغيير رأيها فسألتها عن شخص العريس المرتقب ، فإذا بى أصدم صدمة أخرى أشد وهو أنه أحد زملائها بالعمل الذى كثيراً ما دخل بيتى ورحبت به واعتبرته من أصدقائى ، ولم أجد ما أقوله فانصرفت وأنا أكثر حزنًا . وعلمت فيما بعد من زملائها بالعمل أن القصة قديمة وأنهم كانوا يخشون إبلاغى بها لعدم تأكدهم منها . وفى غمرة أحزانى سألنى ابنى عما يفعل معها وكيف يكون موقفه فأجبته بأنه شاب رشيد وأنها أمه فى النهاية ولا أستطيع أن أمنعه عنها بالرغم مما سببته لى من آلام . وتزوجت زوجتى السابقة من زميلها . . وكان أثاث عشها الجديد هو نفسه الأثاث الذى اشتريته باسمها وبعد أيام من زفافها السعيد اتصلت بابنها باكية وأبلغته أنها تفتقده . . وسألنى ابنى حائراً عما يفعل فأشرت له أن يذهب لرؤيتها وذهب لزيارتها وعلمت أنها قد زارت أسرة خطيبته وأنها تحدثت عن أن الشقة التمليك التى نقيم بها خالية وأننى يجب أن أعود للإقامة فى الشقة القديمة المؤجرة التى أوتها وأهلها عشرين سنة لأننى الأب والأب ينبغى أن «يضحى» من أجل ابنه .

ولم أنزعج لذلك ، لكنى مازلت حزيناً ومنزعجاً من «السهولة» الغريبة التى باعت بها هذه الأم وهى فى الثالثة والأربعين من عمرها عشْرة 23 عاماً . .

وأتساءلْ ماذا يستطيع هذا الزوج الجديد أنْ يقدم لها أكثر مما قدمته لها ولأسرتها . . وكيف يطمئن إلى أن من باعت عشْرة العمر وابنها الشاب سوف تكون أكثر حرصاً عليه من حرصها علَى حياتها وابنها وزوجها الذى قدم لها كل ما قدم . . إننى حزين ياسيدى وأشعر بالحزن والألم . . ولا أعرف ماذا أصنع فبماذا تشيرعلىّ ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

من سوء الطالع أن نحب من لايحبنا . . وأن نخلص لمن لا يخلص لنا وأن نحرص على من لا يحرص علينا . ومن حقك ياصديقى بكل تأكيد أن تشعر بالمرارة والألم ، لكنه ليس من حقك أبدًا أن تشعر بالخزى أو عدم الاعتبار ، فما واجهته قد يواجهه أى رجل قد يفجع في وفاء شريكة عمره ، وأى امرأة قد تصدم أيضاً فى شريك عمرها ، وما أكثر الوفاء وما أكثر الغدر أيضاً ، لكنها الحياة التى ترينا من صور الوفاء ما نحبها من أجله أحيانًا ، ومن صور الغدر ما نضيق بها من أجله أحيانًا أخرى . لكن يبقى دائماً أن الوفاء هو القاعدة وأن الغدر هو الخروج عليها . . لهذا ننزعج له بشدة وترتج علينا الأمور حين نصطدم به ونفقد أحيانًا الثقة فى النفس والاعتبار ، ولا عجب فى ذلك لكنه ينبغى دائما ألا يتجاوز حدود التأثر الطبيعى لإنسان له مشاعر البشر وأحاسيسهم ، ولفترة محددة لابد أن نستعيد بعدها توازننا وتقييمنا الصحيح للأمور . . ونعرف عن يقين أن من غدر بنا فلقد خسرنا كما خسرناه ، وأن هناك على الجانب الآخر من هو على استعداد لأن يرحب بنا ويرى فينا هبة الحياة له . . ومنتهى أمله فيها . . لكننا لم نلتق به بعد . . وسوف نلتقى به بالضرورة بعد أن تحررنا من أسر الماضى وقيوده ،

ولسوف نحس معه بأننا أخيرا قد أصبحنا على الطريق الصحيح لحياتنا ، وربما اكتشفنا أيضاً أن كل ما مضى من العمر قد كان ضربًا على غير هدى فى صحراء التيه والحيرة ، وجاء أخيراً أوان الاهتداء إلى واحة الأمان والسعادة الحقيقية . . فهوِّن الأمر على نفسك ياصديقى . . ولا تنشغل بأمرها ولا بماذا تستطيع أن تقدم لزوجها الجديد أو لاتقدم ، فما يعنينا الآن هو تحجيم خسائرنا النفسية والصحية ومحاصرتها حتى لانبدد ما بقى لنا من عمر فى المعاناة واجترار الآلام . والحق أننى لم أقتنع منذ البداية بقصة الشقة التمليك كمبرر للطلاق من جانبها ، وأحسست دائماً أنها مجرد ذريعة للتمسك به . . وتغيير حياتها . . وبدء صفحة جديدة منها مع الطرف الآخر . بل لعلك لو كنت قد قبلت طلبها بمنحها الشقة لما تغيرت النتائج . . ولبحثت عن مبرر آخر للرفض والتمسك بالطلاق . .

فالقصة قديمة فعلاً كما قال لك زملاؤها بعد فوات الأوان ، ومن تُقْدمُ على هذه الخطوة الحاسمة فى مثل عمرها لاتثنيها عنها الاستجابة لمطلَب مادى كالشقة أو كغيرها . . ، ولا شك أن زواجها ممن ارتبطت به هو فى النهاية «أكرم» لكل الأطراف من استمرار الوضع الخاطىء رغم تعارض ذلك مع مسئوليات الأم تجاه ابنها الوحيد . . وتجاه قيم كثيرة فى الحياة كالوفاء والعرفان وغيرهما ، لهذا فدعنا من أمرها فلقد اختارت لنفسها ما أرادت . ولها عاقبة ما اختارت وعليها تبعاته ، لكن من لم تضح من أجل ابنها بمغالبة هوى قلبها . . وارتضت له أن تعرضه لهذه التجربة القاسية على نفسه مهما خففت من آثارها عليه بدعوى أنه سوف يفهم ويعذر ، ليس من حقها أن تتحدث عن «تضحية» الأب من أجل

ابنه، أو أن تلقى على أحد دروسًا فى التضحية وإنكار الذات من أجل الأبناء . فلقد اختارت لنفسها ما يتعارض معهما ، فافعل أنت ما يمليه عليك ضميرك وواجبك تجاه ابنك بغض النظر عن رأيها بشأن الشقة . . فأنت الأب المسئول عنه وعن تيسير سبل الزواج له سواء أوفت الأم بعهدها أو لم تف ، فإن شئت أن تهبه تلك الشقة ، فافعل حبًا وكرامةً . . وإن شئت ألا تفعل فلعلَّك تستطيع أن تعينه على أمره بطريقة أخرى . وفى العمر متسع بعد ذلك بإذن الله لتضميد الجراح . . وبدء صفحة جديدة من حياتك مع إنسانة أخرى تخفف عنك وحدتك ، وتعيد إليك الأمل فى كل شىء جميل فى الحياة ، وتأكد أنك حين تلتقى بها سوف يصبح ما عانيناه من آلام وكأنما كان خبراً مؤلمًا قرأناه ذات يوم فى صحيفة قديمة . . وتأثرنا به بعض الوقت ثم شغلتنا الحياة عنه بانفعالاتها ومؤثراتها .

لا تروى هذه الرسالة قصة فريدة ، ولا تطلب رأيى فى موقف اختيار بين أمرين محيرين كما تفعل رسائل الأصدقاء الأخرى ، لكنها تصورٍ بصدق إنسانى آسر حالة وجدانية مؤثرة ، وقد رأيت أن أنشرها لنتشارك معًا فى الإجابة عما تطرحه من أسئلة حائرة . تقول الرسالة :

لا أعلم هل لى الحق فيما أشكو منه أم لا ؟ فمنذ ثلاث سنوات فقدت ابنى الكبير بلا مقدمات وهو ممتلىء شباباً وقوة وعافية ودون سبب معلوم إلا أنها إرادة الله سبحانه وتعالى ، وكان عمره حين غاب عنا فجأة ثمانية عشر عاماً . لقد كان الله رحيمًا بنا فتوفى ابنى إلى رحمة ربه وهو فى فراشه ببيته وأمام أعيننا وفى لحظات ، ورغم فداحة المصاب فقد ألهمنا الله التسليم بقضائه وقدره وأعطانا القوة فلم يرتفع صوت بكاء ولم نلبس السواد ولم نُقِمْ سرادقاً للعزاء ليأتى إليه من يأتى غالباً مضطراً ويجلس وهو يتعجل انتهاء التلاوة ليسارع بالخروج منه ، ولم ننشر نعيًا للتفاخر بالأنساب . . ولا صورته لتثير المواجع وتبرعنا بتكاليف كل ذلك وأكثر منه لأوجه الخير ونفعل ذلك كل عام فى ذكراه السنوية راجين أن يتقبل الله منا وأن يشمل روحه الطاهرة برحمته وعفوه .

وأنا رجل مؤمن بالله وبقضائه وقدره وبأن لكل أجل كتابًا وموقن بما جاء فى آى الذكر الحكيم بسورة الحديد من أنه

﴿ما أصابَ من مصيبةٍ فى الأرضِ ولا فى أنفسِكُم إلاَّ فى كتابٍ منْ قبلِ أنْ نبْرأها إنَّ ذلكَ علَى اللهِ يسيرٌ . لكيلاَ تأسوا علَى ما فاتَكمْ ولا تفرحُوا بما آتاكُمْ واللهُ لايحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ﴾ صدق الله العظيم.

وما يحيرنى بعد ذلك هو أنه بالرغم من كل هذا مازال حزنى على ابنى كبيراً وعميقًا عمق قاع البحر ، ويملأ كيانى كله ويفقدنى حماسى للحياة والعمل ، ويسوِّى عندى بين كل الأشياء بحيث أصبح لا أهمية لشىء عندى ولا طعم لأى شىء . ولأنى قد تعودت أن أناقش مع نفسى كل الأمور بهدوء فإنى أجد أن حزنى هذا غير منطقى . . إذ كيف أحزن على ابنى وقد متَّعنا الله به ثمانية عشر عامًا كاملة وغيرنا مثلا لم ينجب ولم يعرف طعم الأبوة.

وكيف أحزن كل هذا الحزن وقد كنا فى البحر الأحمر قبل وفاته بثلاثة أيام ، وكنت معه وهو يمارس هواية الغطس أمام ناظرىّ وأراه يهبط إلى عمق سحيق ثم يصعد منه كالفهد القوى ، وأسأل نفسى الآن وماذا لو كانت وفاته قد حدثت فى تلك اللحظة . . وكيف يكون الأمر لو كان ذلك قد حدث . . وكيف كنت سأتصرف فى هذه الحالة . . وأقول لنفسى أليس لطف الله بنا كبيراً أن يموت بعدها بأيام فى بيته . . وفى فراشه . . وليس فى عرض البحر ؟ وكيف أحزن وقد اختاره الله لجواره فى لحظة كلمح البصر ، وغيره تعذب عذابًا أليمًا فى كوارث وحوادث وانهيارات ثم مات أيضاً فى النهاية . . أليس هذا لطفًا إلهيًا آخر بنا وبه ؟ وكيف أحزن وقد كبر أخوه الأصغر وبدأ يسد بعض نقص غيابه ، ووهبنا

الله طفلاً آخر بعد وفاته فحمل عنا وعن أمه على وجه الخصوص بعض جبال الحزن التى كانت تجثم فوق الصدور .

أوليس لكل أجل كتاب ؟ إذن لماذا أحزن كل هذا الحزن لأن الله جل شأنه قد استرد وديعته حين شاء ذلك .

إن ما يحيرنى الآن ياصديقى هو أننى إذا كنت قد سلمت راضيًا بما كتبه الله لنا . . فكيف يسيطر علىّ هذا الحزن الداخلى الهائل الذى يهد كيانى ؟

إننى أخشى أن يكون ذلك بطراً بلطف الله بنا . . وابتعاداً عن الصبر الذى أمرنا الله به ، كما أخشى أن يتزايد هذا الحزن ويتوحش داخلى ويسيطر على كل تصرفاتى . . فهل لى من كلمة عاقلة منك . . وهل لى أن أطلب منك ومن قرائك الأفاضل قراءة الفاتحة على روحه وأرواح كل أحبائنا الذين سبقونا إلى دار البقاء ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

بكى أحد الحكماء على قبر ولده . . فقيل له : كيف تبكى وأنت تعلم أن الحزن لايُفيد ؟ فأجاب متنهداً : إن هذا هو ما يبكينى !

وهذا صحيح ياسيدى فنحن نحزن ونحن نعلم جيداً أن الحزن لايفيد ولن يعيد غائباً من غيبته ، ونحزن لفراق الأعزاء وللأيام الجميلة التى ذهبت ولن تعود ، ولكن إلى أى مدى يحق لنا هذا؟ . . وإلى متى !

إن أرقى مميزات الإنسان هى التفكير . . والتفكير العاقل ينبئنا أن الإنسان لابد له بعد أن يسلم بقضاء الله وقدره ويمتثل له ، أن يسلم أيضاً بأن ما جرى ما كان ليتأخر عن موعده لحظة واحدة . . ولو اجتمع الإنس والجن على أن يحولوا دونه لأنه أجل محتوم وموعد مسطور من قبل أن يخرج الجنين من ظلام رحم أمه . وله بعد ذلك أن يبكى أعزاءه ويطفىء النار الحية المشتعلة فى كبده بماء الدموع ولا بأس فى ذلك بشرط ألا يقول إلا ما يرضى ربه . . فالدموع «مطافىء الأحزان» ولم يخلقها الله لنا عبثا وهو «أدرى بلوعة الحزن» كما يقول الشاعر ، وبعد أن يشتفى لابد له أن يتجمَّل بالصبر . . وأن يستعين بالصلاة على أمره . . وبالانشغال عن أحزانه بكل ما يخفف من لوعتها عليه . . وأن ينخرط

فى دوامة الحياة ويشغل كل أوقاته بالعمل . . وبالنشاطات الاجتماعية المختلفة وبالاهتمام بالآخرين . . ولا بأس بأن يسعى إلى تجديد حياته والبعد لفترة قصيرة عن موطن الأحزان . . ويسعى لاكتساب صداقات واهتمامات جديدة تصرف ذهنه عن التركيز فقط فيما يثير أشجانه ، فيهدأ لهيب النار تدريجيًا . . وتخف حدة الأحزان . . ثم تصبح مع الأيام كندوب الجراح القديمة . . لم تعد تؤلمنا . . لكنها أبدا لا تزول . وهذا هو مصير كل الأحزان مهما طالت إذا أعان الإنسان نفسه عليها وأنعم عليه ربه بنعمة النسيان .

وفقد الولد من نكبات الحياة الأليمة . . وفضل الصبر عليها يفتح لأصحابه أبواب الرحمة ، ويُعلى من دزجاتهم عند ربهم ويغفر لهم من ذنوبهم ، وهو من المواجع الإنسانية القديمة حتى لقد خصص له بعض الأئمة فصولاً طويلة فى مؤلفاتهم عن «فضل الجلد عند فَقْد الولد» . والجلد لا يمنع العين من أن تبكى أعزاءها عند الصدمة الأولَى ، لكنه يحمى النفس من الاستسلام للحزن إلى ما لا نهاية ومن شلل الروح وفقد الحماس للحياة ، لقد فقد سليمان بن عبد الملك ابنًا له وكان معه عمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة ورجل آخر فقال لهما مستنصحًا : إنى لأجد فى كبدى جمرة لا تطفئها إلا عبرة ، فنصحه عمر بأن يذكر ربه ويستمسك بالجلد ، وتلفت للرجل الآخر يستنصحه فنصحه بأن يبكى إذ لا بأس فى ذلك ، وقد دمعت عينا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عند فقده لولده إبراهيم فانتحى سليمان جانباً وبكى حتى اشتفى ، ثم عاد إليهما وقال : والله لو لم أذرف هذه العبرة . . لانصدع كبدى» .

وهذا ما ينبغي أن يفعله الإنسان المؤمن مثلك . . أن يبكى عند الصدمة الأولى بكاءً صامتاً ثم يستعصم بالصبر والصلاة . . ويُغالب أحزانه . . إلى أن تطفىء الأيام جذوتها ثم يمضى بعد فى الحياة حاملاً ذكرى أحبائه فى صدره . . ملتمسًا السلوى والعزاء فى وجوه التعويض الإلهى الأخرى . . وفى صور الألطاف الإلهية العديدة كالتى تتحدث عنها ، وفى الأمل فى رحمة الله . . وعونه للمهمومين .

إن عالم النفس الكبير وليم جيمس يقول : إن الأفعال والإحساس يسيران جنبًا إلى جنب ، فإذا نحن سيطرنا على العقل الذى يخضع لسلطان الإرادة أمكننا بطريق غير مباشر أن نسيطر على الإحساس . وعلى هذا ، فإن الطريق إلى الابتهاج والنسيان هو أن نتصرف كما لو كنا مبتهجين وناسين ، لأن السعادة لا تخضع لأى عوامل خارجية وإنما تتأثر بالعوامل الداخلية للإنسان فقط ، فإذا سيطرنا على العقل بالإرادة وحثثناه على التفكير فى وجوه التعويض الإلهى التى تحيط بنا وعلى ما فى حياتنا من أسباب أخرى تدعو للابتهاج أو على الأقل لالتماس السلوى والعزاء . . استجاب الإحساس تدريجيا . . واستشعر السلوى والابتهاج . ثم لا يلبث بعد حين أن يتعمق إحساس الابتهاج وينزوى إحساس التعاسة فى الخلفية ، لهذا قيل : أنت كما تفكر . . فكر فى السعادة تستشعر رياحينها ، وفكِّر فى أحزانك دائما تدميك أشواكها . والإنسان مطالب دائما بأن يتشاغل عن أحزانه . . وبأن يستشعر السعادة فى أوهى أسبابها . . ولابد أن تفعل ذلك أو تحاوله على الأقل وسوف يخفف عنك أحزانك ويردك إلى معركة الحياة الصاخبة من حولك ،

أما أسئلتك المعبرة فلا تعليق لى عليها سوى ما قاله الشاعر متفجِّعًا على ابنه :

ولـمَّا دعوْتُ الصبْرَ بعدَك والأسى

أجابَ الأسَى طوْعاً.. ولم يُجِبْ الصَّبرُ!

وأنت ياصديقي بإيمانك العميق بالله وقضائه وقدره . . وإدراكك لما فى حياتك من وجوه التعويض الأخرى . . وبحزنك العظيم أيضاً على ولدك قد دعوت الصبر والأسى معًا . . فأجابك الأسى «طوعًا» ولم يجبك الصبر . . ولهذا تحس بتفكيرك العاقل أن استمرار حزنك بنفس حدة الصدمة الأولى لم يعد منطقيًا ، وهو كذلك بالفعل فكِّرر الدعوة للصبر . . وتمسَّك بأن يلبى لك النداء . . وتأسَّ بالألطاف الإلهية التى أحاطت بك . . وضعْ ابنك الغالى فى حُشاشة القلب واستمد من ذكراه دافعًا جديدًا للحياة ولإسعاد أخويه وأمه ، ولمواساة المكلومين والإحسان إلى الحياة والإضافة إليها . . وسوف تشعر دومًا أنه رفيقك الذى يؤنس حياتك رغم غيابه ويمسح دمعتك . . ويُجدد إقبالك على الحياة من جديد بإذن الله ، وإذا أذنت لى فلسوف أعطى اسمك وعنوانك لبعض الأصدقاء من جرحى الحياة الذين رزئوا مثلك بفقد الولد ليكتبوا إليك بعصارة تجربتهم مع الألم ، وكيف تغلبوا عليه وتعايشوا معه وواصلوا الحياة بقلب يخفق بالإيمان بالله والحب للحياة والبشر ، عسى أن تجد فى ذلك ما يعينك على أمرك . . ويأخذ بيدك على طريق السلوى . . فهل تأذن لى فى ذلك ؟

كتب للمؤلف

1- أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 1998
2- يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الثالثة 2004
3- هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 1998
4- صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة2001
5- نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة2001
6- العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2001
7- صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
8- افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
9- اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
10- أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2001
11- أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2001
12- رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2000
13- أماكن فى القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2000
14- لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة 2000
15- نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2000

16- أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2000
17- مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
18- أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
19- طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
20- أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2000
21- الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثانية 2000
22- سائح فى دُنيا اللَّه	أدب رحلات	الطبعة الرابعة 2004
23- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2001
24- صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 1997
25- أهلاً .. مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2001
26- قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الثانية 2001
27- أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 1999
28- حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2001
29- صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2001

* كتب للمؤلف من إصدارات "الدار المصرية اللبنانية "

30- العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة السادسة2003
31- وقت للسعادة وقت للبكاء	مقالات وصور أبية	الطبعة السادسة2003
32- شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2002
33- خاتم فى إصبع القلب	قصص أدبية	الطبعة الرابعة 2001
34- وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة الرابعة 2001
35- ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة 2001
36- عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2001
37- ترانيم الحب والعذاب	خواطر وتأملات	الطبعة الرابعة 2003
38- الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2003
39- دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2003
40- أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2002
41- من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية 2001
42- الأرض المحترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2002
43- سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2003
44- هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
45- حكايات شارعنا	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية 2003

46- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
47- الرسم فوق النجوم	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
48- تحية المساء	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
49- الزهرة المفقودة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2004
50- يوميات طالب بعثة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى 2004
51- سائح فى دُنيا اللَّه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى 2004
52- أرض الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
53- نافذة على الجحيم	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
44- بعد مغيب القمر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
44- فتاة من قاع المدينة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006

نهر الدموع

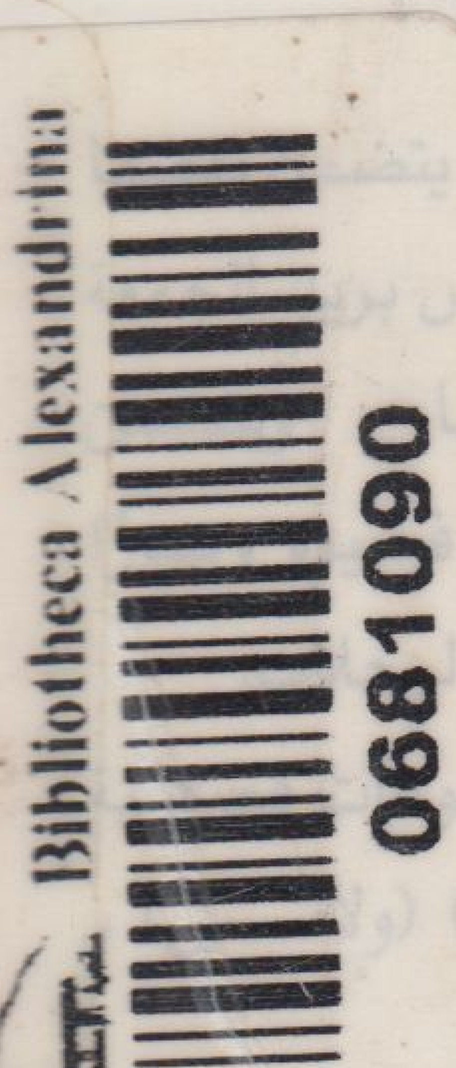
الحياة قاسية..

هذا حق .. وهذا قدر الإنسان حين استخلفه الله فى الأرض وأراد منه عمارتها وحمل الأمانة ومحاولة الوصول إلى أقرب نقطة ممكنة من الكمال..

ولكن لقسوتها دواءً .. حين نتسم بحسن الخلق الذى يجعل الآخرين يفتحون لنا أبواب قلوبهم، ويساعدوننا على النهوض حين نتعثر .. وحين لا نعجز عن التواصل معهم .. وحين لانستسلم إلى فشل الروح والتشاؤم .. وحين نتمسك بالإرادة والحماس والقدرة على الكفاح وتحقيق الأهداف .. حينها .. لانشعر أبدًا بقسوة الحياة..



* عبد الوهاب مطاوع 1940 ـ2004
* شغل منصب مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.
* حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام 1992 كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.
* كان يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.
* صدر له 52 كتابًا ، ... نماذج مختارة من قصص ... الإنسانية وردوده علي... البعض الآخر قصصًا ... أدبية ومقالات فى أدب ...
* صدرت له ثلاث مجـ... هى: (أماكن فى القلب) ... (والحب فوق البلاط).







6 222006 315443